

سيرانو دى برجراك

بقلم المرحوم
مصطفى لطفى المنفلوطى

وهى خلاصة الرواية التمثيلية التى وضعها الشاعر العظ

إدمون روستان

تشتمل على ٢٤ رسما

الطبعة الثالثة

ربيع الثانى سنة ١٣٤٤ — نوفمبر ١٩٢٥

تطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد على بمصر
لصاحبها مصطفى محمد

المطبعة الرحمانية بمصر
لصاحبها عبد الرحمن موسى شريف



سیرانو دی برجراك بطل الرواية



مادلين روبان الشهيرة بروكسان فتاة الرواية

اهداء الرواية

إلى الشعراء

مؤلف هـذه الرواية شاعر وبطلها شاعر ، وأكثر أشخاصها شعراء ، وموضوعها الشعر والأدب ، وعِبرتها أن النفس الشعرية هى أجمل شىء فى العالم وأبدع صورة رسمتها ريشة المصور الأعظم فى لوح الكائنات ، وأنها هى التى يهيم بها الهائمون ، ويتولّه المتولّهون ، حين يظنون أنهم يعشقون الصور ويستهيمون بمحاسن الوجوه

لذلك أقدمها هدية إلى الشعراء فهم رجالها وأبطالها وأصحاب الشأن فيها ، ولا أطلب عندهم جزاء عليها أكثر من أن أراهم جميعاً فى حياتهم الأدبية والاجتماعية سيرانو دى برچراك ؟

أول مايو سنة ١٩٢١ مصطفى لطفى المنفلوطى

مقدّمة

أطلعني حضرة الصديق الكريم الدكتور محمد عبد السلام الجندى على هذه الرواية التى عربها عن اللغة الفرنسية تعريباً حرفياً حافظ فيه على الأصل محافظة دقيقة وطلب إلىّ أن أهذب عبارتها ليقدمها إلى فرقة تمثيلية تقوم بتمثيلها ففعلت واستطعت فى أثناء ذلك أن أقرأ الرواية قراءة دقيقة وأن أستشفّ أغراضها ومغازيها التى أراد المؤلف أن يضمنها إياها فأعجبنى منها الشىء الكثير ، وأفضل ما أعجبنى منها أنها صورت التضحية تصويراً بديعاً وهى الفضيلة التى أعتقد أنها مصدر جميع الفضائل الانسانية ونقطة دائرتها فرأيت أن أحوّلها من القالب التمثيلى إلى القالب القصصى

ليستطيع القارئ أن يراها على صفحات القرطاس كما يستطيع المشاهد أن يراها على مسرح التمثيل ، وقد حافظت على روح الأصل بتمامه وقيدت نفسي به تقييداً شديداً فلم أتجوز إلا في حذف بعض جمل لا أهمية لها وزيادة بعض عبارات اضطرتني اليها ضرورة النقل والتحويل واتساق الأغراض والمقاصد بدون إخلال بالاصل أو خروج عن دائرته ، فمن قرأ التعريب قرأ الأصل الفرنسي بعينه إلا ما كان من الفرق بين بلاغة القلمين ومقدرة الكاتبين ومالا بد من عروضه على كل منقول من لغة إلى أخرى وخاصة إذا قيد المعرّب نفسه وحبس قلمه عن التصرف والافتنان

مصطفى لطفي
المنفلوطي

أشخاص الرواية

سيرانو دى برْجراك

شاعر فرنسى من شعراء القرن السابع عشر نشأ غريباً فى أطواره وأخلاقه منفرداً بصفات قلَّ أن تجتمع لأحد من معاصريه ، فكان جامعاً بين الشجاعة إلى درجة التهور ، والخجل إلى درجة الضعف ، وبين القسوة إلى معاقبة أعدائه على أصغر الهفوات ، والرقة إلى البكاء على بؤس البائسين من أصدقائه وأبناء حرفته ، وكان كريماً متلافاً لا يُبقى على شىء مما فى يده ، وعفيفاً لا يمد يده إلى مخلوق كائناً من كان ، وصريحاً لا يتردد لحظة واحدة فى مجابهة صاحب العيب بعيبه كيفما كان شأنه وكيفما كانت النتيجة المرتبة على ذلك ، فكان عدو الكاذبين والمرائين

والمغرورين والسفلة والمتملقين ، أى انه كان عدواً للهيئة الاجتماعية التى يعيش فيها تقريباً كما كانت عدوة له كذلك لاتهدأ عن مشاكسته ومناوأته وابتغاء الغوائل به

ولم يكن له من الأصدقاء إلا أفراد قلائل جداً الذين يفهمون حقيقة نفسه وجوهرها ويقدرونه قدره وقدر صفاته الكريمة التى كان يتصف بها

وكان الخلق الغالب عليه من بين جميع أخلاقه خلق العزة والانفة فكان شديد الاحتفاظ بكرامته والضن بعرضه أن ينال منهما نائل أو يعبث بهما عابث ، وكان لا يُرى فى أكثر أوقاته إلا مبارزاً أو مناضلا أو ثائراً أو مهتاجاً أو واضعاً يده على مقبض سيفه أو ملقياً قفازه على وجه خصمه شأن الفوارس الابطال فى ذلك العصر

وكانت بليته العظمى فى حياته ومنبع شقائه وبلائه أنه كان دميم الوجه كبير الأنف جداً إلى درجة تلفت النظر وتستثير الدهشة ، وكان يعلم ذلك من نفسه حق العلم

ويتألم بسببه تألماً كثيراً لأنه كان عاشقاً لابنة عمه «روكسان» الشهيرة بجمالها النادر وذكائها الخارق ، وكان يعتقد أن المرأة مهما سمت أخلاقها وجلت صفاتها لايمكن أن تقع في أحبولة غرامية غير أحبولة الجمال ولا تُعنى بحسن غير حسن الوجوه والصور فكان وهو أشجع الناس وأجرؤهم وأعظمهم مخاطرة واقداماً لايجسر أن يفاتح حبيبته هذه في شأن حبه حياءً من نفسه وخجلا

فكان أنفه سبب شقائه من جهتين ، أنه وقف عقبة بينه وبين غرامه ، وأنه كان المنفذ العظيم الذي ينحدر منه أعداؤه وخصومه الى السخرية به والتهكم عليه ، وهو لايطيق ذلك ولا يحتمله ، فكان النزاع بينه وبينهم دائباً لاينقطع ، وكان لاينتهي غالباً إلا بمبارزة يخرج منها في الغالب فائزاً منتصراً ولكن كثير الخصوم والأعداء

وكان جندياً في فصيلة شبان الحرس من الجيش

الفرنسي وكان أفراد تلك الفصيلة جميعهم من
الجاسكونيين مثله ، وهم قوم معروفون بخشونة الأخلاق
ووعورتها وبكثرة التبجح والادعاء والغرور والكذب ،
ولهم مع ذلك فضيلة الشجاعة والصبر والقناعة والشرف
وعزة النفس ، وكان سيرانو متصفاً بحسناتهم مترفعاً عن
سيئاتهم ، فكان له فى نفوسهم أسمى منزلة من الاجلال
والاعظام ، وكانوا يحبونه حباً شديداً ويذعنون لرأيه
ويستطرفون أحاديثه ودعاباته ويفاخرون به وبنبوغه
وشجاعته وجراءته وصراحته كما كان يفخر بهم وبعصبيتهم

وكان من أسوأ الشعراء حظاً فى حياته فقد قضى عمره
كله خاملا مغموراً يجهل الدهماء قدره لأنهم لايفهمونه ،
وينكر الأدباء فضله لأنهم يبغضونه ويَجِدون عليه
وينقمون منه خشونته وشدته فى مؤاخذتهم ونقدهم ، فلم
يكن يحفل بذلك كثيراً لأنه كان مخلصاً لايهمه إلا أن
يكون عظيما فى عين نفسه ثم لايبالى بعد ذلك بما يكون

وكثيراً ما كان ينظم الرواية الجليـلة ذات المغزى العظيم والاسلوب الرائق فلا يفكر فى أهدائها الى أحد من العظماء ليتوسل بذلك الى نشرها وترويجها وحمل الفرق التمثيلية على تمثيلها كما كان يفعل الشعراء فى عصره أنفة وإباء وضناً بنفسه أن يقف موقف الذل والضراعة على أى باب من الابواب كيفما كان شأنه ، وربما سرق بعض الروائيين قطعاً من رواياته فضمنوها رواياتهم وانتفعوا بها فلا يغضبه ذلك ولا يزعجه ، وكل ما كان يفكر فيه أو يسأل عنه فى هـذا الموقف ماذا كان وقع تلك القطعة فى نفوس الجماهير حينما سمعوها ؟

ولقد أخلص فى حبه لابنة عمه « روكسان » اخلاصاً لم يسمع بمثله فى تاريخ الحب فأحبها وهى لاتعلم بحبه ، وتألم فى سبيل ذلك الحب ألماً شديداً وهى لاتشعر بألمه ، وأحبت غيره فلم يحقد ولم ينتقم ، بل كان أكبر عون لها فى غرامها الذى اختارته لنفسها ولم يلبث أن اتخذ حبيبها

الذى آثرته صديقاً له وأخلص فى مودته اخلاصاً عظيما وأعانه على استمرار صلته بها وبقاء حبه فى قلبها لانه ما كان يهمه شىء فى العالم سوى أن يراها سعيدة فى حياتها مغتبطة بعيشها وهذا كل حظه فى الحياة

ولم يزل هذا شأنه طول حياته حتى خرج من دنياه ولم تعلم روكسان بسريرة نفسه إلا فى الساعة الاخيرة التى لا يغنى عندها العلم شيئاً

روكسان

إبنة عم سيرانو دى برچراك ، وهى فتاة شريفة متعلمة وافرة الفضل والذكاء عالية الهمة عفيفة الذيل مولعة بالشعر والادب إلا أنها كانت تذهب فى ذوقها الأدبى مذهب النساء المتحذلقات فى ذلك العصر ، أى أنها كانت كثيرة التكلف فى أحاديثها واشاراتها ، وكان لا يعجبها من الكلام إلا ذلك النوع الذى يسمونه بالصناعة

اللفظية ولا من المعانى إلا تلك الخيالات الطائرة الهائمة على وجهها التى لاأساس لها فى الحياة ولا وجود لها فى فطرة النفس وطبيعتها

وقد نشأت يتيمة منقطعة لا أهل لها ولا أقرباء الا ابن عمها سيرانو الا أنها كانت تعيش عيشاً رغداً هنيئاً بفضل الثروة الواسعة التى ورثتها عن أبويها

فأحبها كثير من النبلاء والاشراف وعرضوا عليها الزواج فلم تحفل بهم وأحبها « الكونت دى جيش » وهو أحد قواد الجيش الفرنسى وكان متزوجا بابنة أخت الكردينال دى ريشلييه فأراد أن يستخدم نفوذه وجاهه فى حملها على الزواج من فتى من أشياعه اسمه الفيكونت ڤالڤير على الطريقة المعروفة فى ذلك العهد عند الملوك والنبلاء فدفعته عنها برفق وحكمة خوفاً على نفسها منه ، وظلت تماطله زمناً طويلا حتى أحبها البارون كرستيان دى نوڤييت فأحبته وأخلصت له اخلاصاً عظيما ، ولم يكن فى الحقيقة

متصفاً بصفات الفطنة والذكاء والنبوغ التى كانت تظنها مجتمعة فيه لولا الحيلة الغريبة التى احتالها عليها سيرانو حتى أوهمها ذلك ، وهنا نكتة الرواية وبيت قصيدها ، ثم تزوجت منه بعد ذلك زواجاً سرياً ولكنها لم تكد تضع شفتها على الكاس حتى انتزعت منها وكان هذا آخر عهدها بسعادة الحياة وهنائها

كرستيان دى نوفييت

نبيل من نبلاء الريف وفد الى باريس ليلتحق بفرقة الحرس من الجيش الفرنسى كما كانت عادة الاشراف فى ذلك العهد ، وهى الفرقة التى كان يعمل فيها سيرانو ، وكان فتى جميل الصورة شريف النفس طيب القلب الا أنه كان أقرب الى البلادة منه الى الذكاء فوقع نظره على روكسان فى حانة بورجونيا فأحبها وأحبته على البعد ، وكان قد علم من أمرها انها فتاة قديرة متفوقة ذكية الفؤاد غزيرة العلم قوية

الارادة لايعجبها من الرجال إلا الاذكياء المتفوقون. فهاب الدنوّ منها ومفاتحتها فى شأن حبه وخشى أن يسقط من عينيها سقطة لاقيام له من بعدها ولم يزل هذا شأنه حتى أدركه سيرانو واحتال له تلك الحيلة الغريبة المدهشة التى جعلت روكسان تعتقد أنها قد أحبت أذكى الناس وأسماهم عقلا وأبعدهم غورا وأطلقهم لسانا وأبلغهم قلما لا يريد بذلك الا سعادتها وهناءها وهو يتهالك بينه وبين نفسه غمّاً وكمداً لأنه وهو ظامئ هيمان يقدم الكأس بيده للشاربين ولا يذوق منها قطرة واحدة

الكونت دى جيش

أحد قواد الجيش الفرنسى وهو من أصل جاسكونى كسيرانو وروكسان إلا انه كان يذهب فى حياته مذهبا غير مذهب أبناء جلدته الجاسكونيين فى قناعتهم وخشونتهم وبساطة عيشهم بل كان رجلا واسع المطامع شغوفاً بالمعالى

متطلعاً الى المناصب العليا والمراتب الكبرى وقد تم له ماأراد من ذلك بجده واجتهاده فاصبح قائداًمن قوادالجيش الفرنسي وصهراً للكردينال دي ريشلييه

وقد رأى روكسان في طريقه مرة فشغف بها شغفا عظيما وأراد أن يضمها اليه من طريق تزويجها من أحد صنائعه فاحتالت للخروج من ذلك المأزق بحيلة لطيفة جداً وتزوجت من الرجل الذى أحبته بمعونة ابن عمها سيرانو* فعاداها الكونت من أجل ذلك وانتقم منها ومن زوجها ومن سيرانو انتقاماً هائلا

لينيير

شاعر مسكين من أصدقاء سيرانو نظم قصيدة طويلة هجا بها الكونت دى جيش وعرّض فيها بقصته مع روكسان وفضح جريمته التى أراد أن يقترفها معها فحقد عليه الكونت حقداً شديداً ودسّ له كميناً مؤلفاً من

مائة رجل ليقتلوه عند رجوعه الى منزله ليلاً لولا أن أدركه سيرانو على أعدائه فنجا

لبريه

أحد أصدقاء سيرانو المخلصين وكان ينصحه دائماً بالهدوء والسكينة وينعى عليه شدته وصرامته فى أخلاقه وطباعه وينصح له باتخاذ خطة فى الحياة تناسب البيئة التى يعيش فيها رحمة بنفسه وإبقاء على راحته وسكونه فلا يحفل بنصحه لأن له رأياً فى الحياة غير رأيه ومذهباً غير مذهبه ، ولم يكن اختلافهما هذا فى المشرب والخطة مانعاً لهما من الصداقة والاخلاص ووفاء كل منهما لصاحبه حتى ما كانا يستطيعان الافتراق ساعة واحدة

مونفلورى

أحد الممثلين فى حانة بورجونيا ، وكان مشهوراً بحسن القائه لرواية « كلوريز » تأليف الروائى الشهير « بارو »

وكان سيرانو يبغضه ويستثقل حركاته التمثيلية وينقم عليه إعجابه بنفسه على قبحه ودمامته ويأخذ عليه كثرة ترديد نظره أثناء التمثيل فى مخادع السيدات يحاول افتتانهن واجتذاب قلوبهن ، وقد رآه مرة ينظر الى روكسان نظرة مريبة فتعلل عليه ببعض العلل وأمره أن ينقطع عن التمثيل شهراً كاملا فحاول الامتناع عليه وعصيان أمره فأنزله من المسرح بالقوة وطرده رغم دفاع الكثيرين من الأشراف والنبلاء عنه وخاصة الكونت دى جيش

راجنو

طباخ مشهور يبيع فى حانوته الكبير أفخر أنواع المطاعم من شواء وفطائر وحلوى وكان محباً للشعر والأدب والتمثيل عطوفاً على البؤساء من الشعراء والممثلين وكان يستقبلهم فى حانوته استقبالاً حافلاً ويقدم لهم على

حسابه ما يقترحون من طعام وشراب ، وكان كل حظه منهم أن يجلس اليهم ويسمع محاوراتهم الأدبية ويلتقط ما يتناثر حولهم من مسودات أشعارهم وفصولهم ويسمعهم ما ينظمه من الشعر الضعيف التافه فيتظاهرون باستحسانه والاعجاب به إبقاء على مودته حتى أدركته حرفة الأدب فأفلس وأغلق حانوته فأعانه سيرانو على شؤون حياته وكان من أكبر أنصاره والمتشيعين له ولكن الحظ كان قد فارقه فلم ينجح فى عمل من الأعمال التى اشتغل بها وظل البؤس ملازماً له طول حياته

ليز

زوجة راجنو وهى امرأة فاسدة الأخلاق خبيثة النفس كانت تهزأ بزوجها وتسخر منه وتنعى عليه اشتغاله بالشعر والأدب واهتمامه بالشعراء والأدباء وعنايته بهم ، وكانت تفضل أن تقدم هى بنفسها الحانوت كله لضابط

من ضباط الجيش تعجب به على أن يقدم زوجها راجنو لقمة واحدة منه لأديب من الأدباء ، ولما رأت تضعضع حاله وانتكاث أمره فرت مع أحد ضباط الجيش ولم يرها بعد ذلك

كاربون دى كاستل

قائد فصيلة شبان الحرس وكان كل أفرادها من الجاسكونيين وهو جاسكونى مثلهم فكان يحبهم حباً شديداً ويعطف عليهم ، وكان يعتمد فى أعماله على سيرانو ويعده خير جنوده ، والتاريخ يذكر له دفاعه العظيم بفصيلته فى ميدان أراس عن الموقع الذى اختار جيش العدو مهاجمته حتى تم النصر للراية الفرنسية على الراية الاسبانية

الفصل الأول

« حانة بورجونيا »

في ليلة من ليالى سنة ١٦٤٠ بدأ الناس يفدون الى حانة بورجونيا فى باريس لمشاهدة رواية «كلوريز» وهى إحدى روايات الشاعر المشهور « بَلْتازاز بارو » ولم يكن للتمثيل فى ذلك العصر دُورٌ خاصة به وإنما كانوا يمثلون فى الحانات أو المطاعم الكبيرة على مسارح خاصة يعدونها لذلك

وكان جمهور المشاهدين فى تلك الليلة كما هو شأنهم فى جميع الليالى خليطاً من العمال والجنود واللصوص والخدم والأشراف والعلماء والكتاب وأعضاء المجمع العلمى الفرنسى قد اختلط بعضهم ببعض ، وجلس أخيارهم بجانب

أشرارهم ، فبينما العلماء يتناقشون فى مباحثهم العلمية ، والأدباء يتحدثون فى شؤونهم الأدبية ، إذا فريق من الخدم قد ألصقوا شمعة بالأرض واستداروا من حولها حلقة واسعة وأخذوا يقامرون بالمال الذى سرقوه من أسيادهم فى ساعات لهوهم واستهتارهم ، وآخرون من أبناء الاشراف قد تماسكوا بأيديهم وظلوا يدورون حول أنفسهم راقصين مترنحين ، وآخرون من الغوغاء يأكلون ويقصفُون (١) ويتسابّون ويتلاكمون ويجأرون بأصوات عالية متنوعة كأنهم فى سوق من أسواق المزايدة ، وجماعةٌ من يتلهّون بالمبارزة والملاكمة لايبالون من يطأون بأقدامهم ، أويصيبون بشفرات سيوفهم ، وفئةٌ من الصعاليك قد اصطفوا صفاً واحداً بين يدى لص من دهاة اللصوص ومناكيرهم يعلمهم كيف يسرقون الساعات من الصدور ، ويمزقون الجيوب عن الأكياس ، وكيف

---

(١) القصف الاقامة فى الشرب واللهو

يتغفلون صاحب المِعطف عن مِعطفه ، والقبعة عن قبعته ، والعصا عن عصاه ، كأنه قائد يدرب جنوده على الحركات العسكرية ، وفتى من المتأنقين المتظرفين يطارد فتاة المقِصف [1] من ركن إلى ركن يحاول إمساكها والعبث بها وهي تمتنع عليه وتتأبّى تأبّياً أشبه بالاغراء منه بالامتناع ، وجنديٌّ من جنود الحرس قد تغفّل البوابَ عند دخوله وامّلس من يده دون أن يدفع اليه شيئاً والبوابُ يطارده ويلاحيه ويأخذ بتلابيبه فيجادلُ عن نفسه بأنه حارس الملك وحراسُ الملك أحرار يدخلون من الامكنة ما يشاءون ، وزمرةٌ من المتأدبين قد انتبذوا ناحية من القاعة وأخذوا يندبون الأدب وحظه وشقاء أهليه وبلاءهم ويقول بعضهم لبعض : أليس من مصائب الدهر ورزاياه أن يقفَ موقفَ الممثل بين هـذا الجمهور الساقط أمثالُ « مونْفلوري » و « بلْرُوز » و « بويرِيه » و « جودِليه »

---

(١) مكان القصف

وأن تمثل على مثل هذا المسرح الحقير المبتذل روايات أكابر الشعراء والروائيين أمثال « روترو » و « كورنى » و « بارو »

ولم يكن يضىء تلك القاعة على كبرها واتساعها إلا بضعة مصابيح ضئيلة تتراءى تلك الجماهير على نورها كأنها الأشباح المتحركة ، أو الأرواح الهائمة ، وقد يسمع السامع فيها من حين إلى حين فى وسط هذه الضوضاء صوتَ فتاة المقصف وهى تصيح خلف مقصفها بصوتها الرقيق الرنان « اللبن » ، « الحلوى » ، « عصير البرتقال » ، « عصير الرمان » ، « الشواء » « الفطير » ، « النبيذ » ، أو صوتَ شيخٍ هرم يسب ويحتدم ويضرب الأرض بقدميه وهو عارى الرأس منقلب السحنة لأن أحد الجالسين فى الطبقة العليا من الملعب قد أرسل على رأسه المستعار شِصاً [1] فاجتذبه به وظل معلقاً فى الفضاء على مرأى من

---

(١) الشص حديده عقفاء يصاد بها السمك تشبه الصنارة

الجماهير الضاحكين ، أو صارخاً متألماً قد وضع يده على عينه وظل يصيح واغوثاه واويلتاه لأن بعض المتفرجين صوب إليها حصاة صغيرة أو نواة فأصابها بها ، إلى أمثال ذلك من صراخ الصارخين وهتاف الهاتفين من جميع جوانب القاعة : أشعلوا الأنوار ، إرفعوا الستار

ولم يزل هذا شأنهم حتى دقت الساعة العاشرة من الليل وقرب ميعاد التمثيل فدخل جماعة من الأشراف المتأنقين يجررون أذيالهم ، ويشمخون بأنوفهم ، ويتأففون لضعف الأنوار وضوضاء الجماهير ، ويصيحون : الطريق الطريق ، أيها الصعاليك ، فتنفرج الصفوف لهم انفراجا ، حتى بلغوا مكان المسرح فصعدوا عليه ، وجلسوا فيه على مقاعدَ متفرقة فى أنحائه جلسة باردة وقحة لاأب فيها ولا احتشام ، وكانت المقاصير فى ذلك التاريخ خاصة بالنساء لايجلس فيها غيرهن إلا مقصورة واحدة بجانب المسرح كان يجلس فيها الكردينال إذا حضر أو من ينزل

منزلته من عظماء المملكة ووجوهها

« طاهى الشعراء »

جلس فى ركن من أركان القاعة فى تلك الساعة شخصان منفردان ، أحدهما الشاعر « لينيير » وهو رجل بائس مسكين مغرم بالشراب ومعاقرته لا تكاد تفارق يده الكأس ليله ونهاره ، وثانيهما البارون « كرستيان دى نوفييت » وهو فتى من أشراف الريف ، جميل الطلعة ، حسن الزى والثياب ، إلا أن هندامه على الطراز القديم حضر من « تورين » الى باريس منذ عشرين يوماً ليلتحق بفرقة الحرس من الجيش الفرنسى فلم يدخلها إلا صباح اليوم ، فقال الشاعر للبارون : إن صاحبتك لم تحضر حتى الساعة ، وهاهى مقصورتها التى أشرت لى إليها لا تزال خالية ، وقد اشتد ظمئى فائذن لى بالذهاب إلى إحدى الحانات القريبة لأتناول قليلا من الشراب ثم أعود اليك ،

فاضطرب كرستيان وتشبث بثوبه وقال له : إنك إن ذهبتَ لن تعود يا لينيير ، وأنا فى أشد الحاجة اليك ، فاني أريد أن أعرف من هى ؟ وما منبت دوحتها ؟ وربما بدا لى أن أزورها الليلة فى مقصورتها وأتعرف إليهـا وليس فى استطاعتى أن أُقْدِم على ذلك وحدى ، فأنت تعلم أنى رجل جنـدى ساذَج حديث عهد بهذا البلد وأهليه وآدابه ومصطلحاته ، ويخيَّل الىّ وإن لم أكن قد حادثتهـا أو جلستُ إليها أنها فتـاة ذكية متوقدة بارعة فى أساليب الحديث ومناهجه ، وأخاف إن أنا لقيتها وحدى أَن أضعف أمامها وأضطرب أو أرتبك فى حركة من الحركات بين يديها فأسقطَ من عينيهـا سقطةً لا مقيل لى منها أبد الدهر ، فابق معى وكن عونا لى عليها لتتمَّ بذلك يدك عندى

وهنا مرت فتاة المقصف حاملةً على يدها صينية بيضاء وهى تتغنى بصوتها الرقيق الشجى فناداها لينيير فدنت منه فسألها عما عندها فظلت تسرد عليـه أسماء

فطائرها وقدائدها وأشربتها وحلواها وهو لا يأبه لشيء من ذلك حتى ذَكرتْ له نبيذ « بوردو » فتهلل وجهه وتَحلّب فوهُ ، وطلب إليها أن تأتيه بالجيدِ منه ، فأتت له بما أراد فملأ كأسه وبدأ يشرب ويتغنى ، وما هي إلا لحظة حتى قال لكرستيان : الآن أستطيع أن أبقى معك قليلا أيها الصديق الكريم

وفي تلك اللحظة دخل القاعةَ رجلٌ قصير ضخم الجثة غريب الهيئة في ملابس الطهاة وشمائلهم فصرخ الجماهير حين رأوه : راجنو ! راجنو ! فلم يأبه لهم ، ولم يلتفت إليهم ، واندفع مسرعاً الى لينيير ، وقال له بصوت متهدج مضطرب دون أن يحييه أو يحيي جليسه : ألم تر صديقنا سيرانوا يا لينيير ! قال لا ، ومالي أراك مضطرباً هكذا كأنك هارب من معركة أو مأخوذ بجريمة ، قال ما أحسبَ إلا أنه سيحدث الليلة في هذه القاعة حادث عظيم لا يعلم إلا الله كيف تكون عاقبته ، فانزعج لينيير

وقال أى حادث تريد ؟ قال قد علمت الساعة أن سيرانو كان قد وَجِدَ على الممثل مونفلورى منذ أيام فى شأن من الشؤون لا أعلمه فحكم عليه بأن ينقطع عن التمثيل شهراً كاملا وهدده بالموت إن هو خالف أمره ، وكنت أظن أن الرجل قد أذعن لهذا الحكم ضناً بنفسه وبحياته ، ولكننى رأيته الساعة واقفاً فى حجرة الممثلين يترنم بقطعة تمثيلية وأظن أنه سيقوم بتمثيل دوره الذى اعتاد أن يمثله فى رواية « كلوريز » وهو دور « فيدين » فان فعل فقد وقعت الكارثة العظمى التى لا حيلة لنا ولا لأحد من الناس فى دفعها ، وسيرانو كما تعلم رجل مخاطر جرئ لا يبالى بعواقب الأمور ولا يفكر فى نتائجها ، فقهقه لينيير ضاحكاً وقال : ياله من قاض غريب ، وياله من حُكم عجيب ، هدئ روعك ياصديقى ، فالأمر أهون مما تظن ، فربما لا يحضر سيرانو أو لا يمثل منفلورى فلا يقع شىء من المكروه الذى تتوقعه ، ثم التفت إلى كرستيان وقال

له : أقدم إليك المسيو راجنو طاهى الشعراء والممثلين وهو اللقب الذى اختاره لنفسه وعُرف به بين الناس جميعاً ، لأنه صديقهم المخلص الذى يحبهم ويكرمهم ويذود عنهم ويفتح لهم باب مطعمه على مصراعيه يأكلون منه ما يشتهون ، ويشربون ما يقترحون ، لا يتقاضاهم على ذلك أجراً سوى قصيدة من الشعر يُملونها عليه ، أو قطعة تمثيلية يمثلونها بين يديه ، أى أنه يملأ لهم أفواههم طعاماً ، فيملأون له أذنيه كلاماً ، والأذن كما تعلم ليست طريقاً إلى المعدة كالفم ، وهو فوق ذلك شاعر متفنن مطبوع ينظم أكثر شعره فى وصف فطائره وحلواه ، فانحنى راجنو بين يدى كرستيان وقال : نعم ياسيدى إننى صديق الشعراء والممثلين ، بل عبدهم ومولاهم ، وصنيعة فضلهم وإحسانهم ، وإنّ ساعةً أقضيها فى حضرتهم أسمع طرائف أشعارهم ، وبدائع فصولهم ، لهى عندى ساعة الحياة التى لا أعدِل بها ساعةً غيرها ، فشكر له كرستيان فضله وأدبه

وأثنى خيراً على شرف عواطفه وا كتمال مروءته وما هى إلا كرّةُ الطرف أنْ عاد الى راجنو قلقُه واضطرابُه وأخذ يدور بعينيه فى الجماهير يفتش عن سيرانو فقال له ليتيير : انه لم يحضُر حتى الآن ، وها هو الوقاد قد بدأ فى إشعال المصابيح وها هو الستار قد أوشك أن يرتفع وما أظنه حاضراً بعد ذلك

« سيرانو »

وكان رجل من الأشراف اسمه المركيز دى جيچى جالساً على مقربة منهم يسمع حديثهم وينصت لحوارهم فوضع يده على كتف راجنو فالتفت راجنو اليه فقال له : أتستطيع أن تخبرنى من هو سيرانو هذا الذى تتحدثون عنه ؟ فهزَّ راجنو رأسه كالمستغرب وقال له : انى لأعجب لأمرك ياسيدى فهى أول مرة سمعت فيها أن إنساناً فى العالم لا يعرف السيد سيرانو ، قال إنى أعرف عنه شيئاً

قليلاً ، وأريد أن أعلم أنبيل هو أم صُعلوك ؟ قال إن كنت تريد من النُّبل شيئاً غير الشرائط والأوسمة والذهب والفضة والحرير والديباج فهو أنبل النبلاء وأشرفهم ، لأنه جندى شجاع ، جرىء فى مواقفه ومشاهده ، صادق فى قوله وفعله ، لايحابى ولايجامل ، ولا يتذلل ولا يتزلف ، ولايخضع فى شأن من شؤون حياته إلا للحق الذى يعبده ويدين له ، ولو عرفته ياسيدى لعرفت أفضل الناس خلقاً ، وأشرفهم نفساً ، وأطيبهم قلباً ، وأشدهم عطفاً على البؤساء والمنكوبين ، وهو فوق ذلك شاعر مجيد ، وعالم فاضل ، وناقد بارع ، أما شكله فمن أغرب الأشكال وأعجبها ، حتى لو أراد مصورنا العظيم « فيليب دى شامبينى » أن يرسمه كما هو لعجز عن ذلك أو كاد ، فان الناظر إليه ليعجب كل العجب لمنظر قبعته المحلاة بالريشات الثلاث ، وردائه الملون الجميل ، وقبائه الواسع المسدس الأطراف الذى يرفع مؤخره بطرف سيفه ثم يمشى به مختالا كأنه طاووس يجر ذنبه وراءه ، وله

أنف هائل جداً لا يراه الرائى حتى يُذعَر ويرتاع ويقف أمامه مدهوشاً منذهلا يعجب لصاحبه كيف استطاع أن يحمله فى رقعة وجهه وكيف لا يلتمس السبيل إلى الخلاص منه ، أما هو فراض عنــه كل الرضا ، لا يشعر بثقله ، ولا يفكر فى الخلاص منه بحال من الأحوال ، والويل كل الويل لمن يرفع نظره إليه أو تختلج شفتاه بابتسامة العجب منه أو السخرية به ، فان رأسه يطير بضربة واحدة من حد سيفه ، فقال له المركيز : كيفما كان الأمر فانى أستطيع أن أقول لك وأنا على ثقة مما أقول : إنه أعجز من أن يمنع مونفلورى عن التمثيل بل هو لا يحضُر الحفلة الليلة فراراً من وعيده الكاذب ، فقال راجنو : وأنا أراهن على حضوره بدجاجة مشوية من مطعم « راجنو » الشهير ، ولا أرزؤك دانقاً واحداً إن أنا ربحت الرهان ، ثم أدار ظهره إليه وجلس يتحدث إلى لينيير وكرستيان

— ٥ —

وإنه لكذلك إذ لمح رجلاً مقبلاً على البعد فقال لصاحبيه ، هاهو المسيو « لبريه » صديق السيد سيرانو الحميم ، فائذنا لى بالذهاب اليه علنى أستطيع أن أعلم من شأنه شيئاً ، ثم تركهما وذهب اليه فرآه يقلب نظره فى الجماهير ويلتفت يَمنة ويَسرة فقال له : لعلك تفتش عن سيرانو أيها الصديق ؟ قال نعم وإنى قلق من أجله جداً ، قال قد فتشتُ عنه قبلك فلم أجده ، ثم انتحى به ناحية من القاعة وجلسا معاً يتحدثان

«روكسان»

وهنا ظهرت روكسان فى مقصورتها فضج الجمهور حين رآها ضجيج السرور والابتهاج ، وصاح أحد الأشراف الجالسين على المسرح : آه ياإلهي ، إن جمالها فوق مايتصور العقل البشرى ، وقال آخر : إنها زهرة تبتسم فى أشعة الشمس ، وقال آخر : إنها روضة يانعة يحمل

النسيم رياها العطر إلى القلوب فينعشها ، وكان كرستيان مشغولا بأداء ثمن الشراب الذى شربه لينيير فلم ينتبه إليها ثم التفت فرآها فارتعد واصفر وجهه وأخذ بيد لينيير وقال له : هاهى ذى فقل لى من هي ؟ انى خائف جداً يا صديقى فضع يدك على قلبى فما أحسب إلا أنه يحاول الفرار من مكانه رهبة وجزعاً ، حدثنى عنها واذكر لى كل ماتعلم من أمرها ، وارفق بى فى حديثك ، حتى لا تقضى على الامل الوحيد الباقى لى من حياتى ، فقهقه لينيير ضاحكا وقال له بخٍ بخٍ لك يا كرستيان ، لقد أحسنت الاختيار لنفسك كل الاحسان ، وما أحببتَ إلا أجمل فتاة فى فرنسا ، فان كان صحيحاً ما تقول من أنها تمنحك من ودها مثل ماتمنحها وأنها تنظر إليك بمثل العين التى تنظر بها إليها فأنت أحسن الناس حظاً ، وأسعدهم طالعاً : إنها السيدة مادلين روبان الشهيرة بروكسان ، وهى فتاة عذراء يتيمة لا أهل لها ولا أقرباء سوى ابن عمها سيرانو دى برچراك

الذى كانوا يتحدثون عنه الآن ، وهى على فرط جمالها وكثرة محاسنها عفيفة طاهرة الذيل عاقلة رزينة تجلس إلى أذكياء الرجال وتحادثهم وتفتتن بتصوراتهم وأفكارهم ، وتخوض معهم فى كل شأن من شؤون الحياة حتى شأن الحب ، ولكنها لا تأذن لأحد أن يحبها أو أن يعبث بقلبها ، فان حاول ذلك منهم محاولٌ دافعته عنها برقة وأدب ورفق وحكمة فسلم لها شرفُها وكرمها ، ولا عيب فيها الا أنها من فريق الاديبات المتحذلقات اللواتى أفسد الادباء المتحذلقون أذواقهن الادبية فذهبن مذهب التكلف والتعمُّل فى أحاديثهن وحوارهن ، فلا ينطقن بكلمة صريحة خالية من التشابيه والمجازات والاشارات والكنايات ، ولا يواجهن المعانى التي يردن الافضاء بها إلى السامعين مواجهة بل يَدرن حولها دورات كثيرة حتى يصلن اليها ، فاذا أردن أن يقلن فى أحاديثهن العادية : أشرقت الشمس قلن « ذر قرن الغزالة » أو : أقبل الليل قلن

« هجم جيش الظلام » أو : طلعت النجوم قلن « تجلت عروس الزنج فى قلائدها الدرية » أو : هاهو ذا الكرسى فاجلس عليه قلن « هاهو ذا الكرسى يفتح ذراعيه لاستقبالك فتفضل بالقاء نفسك بين أحضانه » أى انهن لا يعجبهن من الألفاظ الا المتكلف المصنوع ولا من المعانى إلا المجلوب المغتصب ولا من الشعراء والكتاب إلا المتكلفون المتشدّقون فى أساليبهم وتصوراتهم ، وهى سعيدة فى عيشها مغتبطة بحياتها ، لا ينغص عليها صفوها غير هذا الرجل الهمجى المتوحش الذى تراه واقفاً بجانبها الآن ، فالتفت كرستيان فرأى رجلاً رشيقاً متأنقاً حسن الزى والهندام متشحاً بوشاح حريرى أزرقَ متقلداً سيفاً عسكرياً مرصعاً قد أسند ذراعه إلى ظهر كرسيها كانه يحتضنها وظل يحادثها بصوت منخفض كانه يسارُّها ويناجيها ، فقال له وهو يرتجف غيظاً وحنقاً من هذا الرجل ؟ وكان لينيير قد ثقل وبدأ يتمتم ويتلعثم فقال بنغمة الفأفاء (١)

---

(١) فأفأ أكثر الفاء فى كلامه وظل يرددها فهو فأفاء

إنه الكونت دى جيش أحد قواد الجيش الفرنسى وصهر لكردينال دى ريشليبه وزير فرنسا العظيم ، وقد أحب روكسان وأغرم بها غراماً شديداً ، ولما رأى أن لا سبيل له إليها من طريق المخالَّة [1] لانها شريفة مترفعة ، ولا من طريق الزواج لانه متزوج بابنة أخت الكردينال أراد أن يزوجها من رجل ساقط من أشياعه لاتحبه ولا تأبه [2] له اسمه الفيكونت « ڤالڤير » طمعاً فى أن ينال منها من طريقه مالم ينل من طريق آخر ، فهالها الامر وتعاظَمَها وأبت أن تذعن لرأيه أو تنزل على حكمه ، ولكنه لايزال يلح عليها ويضايقها وهى تدافعه عنها بلطف وأدب وحذر واحتياط، وأخاف أن استمرت هذه الحال أن ينتهى بها الأمر إلى الخضوع والاذعان ، لان الرجل قوىّ جرىء مُدِلٌّ بمكانه من قيادة الجيش وبحظوته عند الكردينال ، وليس

(١) المخالة المصاحبة من الخلة بالكسر أى الصداقة

(٢) أبه بالشىء احتفل به .

في أنحاء المملكة جميعها من يجرؤ على التفكير في مشادته أو الخلاف عليه ، ولقد أثرت هذه الحادثة في نفسي تأثيراً شديداً وأشفقتُ على تلك الفتاة المسكينة أن يستبد بها ويستقبلها رجل جائر متوحش كهذا الرجل فنظمت قصيدة رنانة شرحت فيها قصته معها وهجوته فيها هجاء مراً لا أحسبُ أنه يغتفره لي مدى الدهر ، وان شئت أن تسمع هذه القصيدة فها كها ، وكان الشراب قد نال منه أقصى مناله فنهض قائماً على قدميه وأخذ يصوب إلى الكونت نظرة هائلة مخيفة ورفع الكأس بيده وحاول أن يتغنى بقصيدته فأسكته كرستيان وقال له لا تفعل فاني ذاهب ، قال الى أين ؟ قال أفتش عن فالڤير ، قال ماذا تريد منه ؟ قال أقتله ، قال اني أخاف عليك منه لانه أقوى منك وربما قتلك ، قال لا أبالي بالموت في سبيلها ، قال انظر هاهي ذي تنظر إليك وتحدق فيك تحديقاً شديداً فلا يشغلك شاغل عنها ، أما أنا فاني ذاهب لشأني فان أصدقائي ينتظروني في الحان ولا خير لي في الكأس من

دونهم، فائذن لى بالذهاب، فأذن له فانصرف، وظل هو شاخصاً إلى مقصورة روكسان يبادلها نظرات الحب والشغف، ويفضى اليها من طريق الصمت والسكون بما عجز عن الافضاء به من طريق الكلام، وكان الكونت دى جيش قد نزل من مقصورتها ومشى فى القاعة يحف به جمع عظيم من حاشيته وأصدقائه يتملقونه ويدهنونه، وحساده ومنافسوه من نبلاء القوم وأشرافهم يتغامزون عليه فيما بينهم ويرمونه بنظرات الحقد والحرد ويسمونه القائد المغرور مرّة والجاسكونىّ الكذاب أخرى، حتى إذا مرّ بين أيديهم نهضوا له إعظاماً وإجلالاً وانحنوا بين يديه وداروا به يصانعونه ويماسحونه حتى بلغ مكان المسرح فصعد إليه هو وأتباعه وجلس على كرسيه المعدّ له ثم التفت حوله وقال: أين الفيكونت ڤالڤير: فأجابه هائنذا ياسيدى، قال تعال بجانبى لأحدثك قليلاً، وكان كرستيان واقفاً مكانه ينظر إليه على البعد نظرات الحقد والموجدة،

فما سمع اسم ڤالڤير حتى ثار ثائره ، وغلى دمه في رأسه ، وعلم أنه قد وجد خصمه ، فوثب من مكانه وثبة عُظمى وصاح ها قد عرفتُه وسألطمه بقفازى على وجهه لطمة هائلة ، ووضع يده فى جيبه ليخرج قفازه منه فدهش حين عثرت يده فيه بيد أخرى غريبة فقبض عليها بشدة والتفت وراءه فاذا لصٌّ قبيح المنظر رزىُّ الهيئة يحاول سرقته ، فصاح فيه من أنت وماذا تريد : فتضعضع الرجل واستخذى واستُطير عقله خوفاً ورعباً ، ثم ما لبث أن عاد إلى نفسه واستجمع قواه وقال له عفواً ياسيدى فانى ما أردت سرقتك ، وإنما هو تمرين بسيط ، فقد تلقيت الساعةَ أول درس من دروس اللصوصية عن أستاذى « بوار » وقد بعثنى إليك كما بعث غيرى الى غيرك لا لنسرقكم أو نحول بينكم وبين أموالكم بل لنستوثق من أنفسنا أننا قد حَذِقنا دروسنا واستظهرناها ، فاعف عنى واغتفر لى هذه الزلة ، واعلم أن فى صدرى سراً هائلاً

جداً ينفعك نفعاً عظيماً أن أُفضى به اليك ، وهو خير لك منى ألف مرة ، فضحك كرستيان طويلا وقال أى سر تريد : قال إنَّ صديقك الذى كان جالساً معك منذ هنيهة وقد نسيتُ اسمه الآن هو فى الساعة الأخيرة من ساعات حياته إن لم تسرع إلى نجدته ، قال أتريد لينيير ؟ قال نعم ، فدهش كرستيان وقال لم أفهم ما تريد ، قال إنه كان قد هجا منذ أيام عظيماً من عظماء هذا البلد بقصيدة مقذِعةٍ [1] فحقدها عليه حقداً شديداً ورأى أن ينتقم لنفسه منه فأعدّ له مائة رجل يكمنون له الليلة فى جنح الظلام عند باب « نيل » فى طريقه إلى منزله ليقتلوه ، وأنا أحد أولئك الرجال ، فاخرج الآن واطلبه فى الحانات التى يجلس فيها وهى المضغط الذهبى والتفاحة الخشبية والحزام الممزق والمشاعل والأقماع الثلاثة واترك له بطاقة فى كل واحدة منها لتنذره بهذا الخطر الداهم ، قال ومن هو ذلك العظيم

---

(١) الاقذاع : الشتم المؤلم

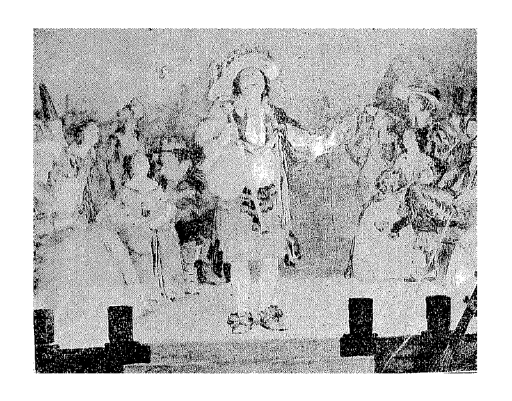
الذى دبر له هذه المكيدة ؟ قال ذلك سرّ المهنة لا أستطيع أن أبوح به ، فضحك كرستيان وقال لا حاجة بى اليك فقد عرفته ، ثم خلى سبيله فذهب لشأنه ، والتفت هو إلى مقصورة روكسان فرآها ملتفتة إليه لا تكاد ترفع نظرها عنه فألقى عليها نظرة حزينة وقال فى نفسه : وا أسفاه لا بد لى أن أتركها الآن ، ثم ألقى على الفيكونت نظرةً ملتهبة وقال : وأن أتركه أيضاً ، لأنى أريد إنقاذ لينيير ، ثم ترك الملعب وانصرف ليفتش عن صديقه فى تلك الحانات الخمس.

« البطل »

بدأ الموسيقيون يوقعون على نغماتهم الرقيقة الشجية وسكنت الجماهير تنتظر رفع الستار فهمس لبريه فى أذن راجنو : تُرى هل يظهر مونفلورى على المسرح الآن ؟ قال نعم ما من ذلك بد ، لأنه صاحب الدور الأول فى الرواية ، ولأنه قد علم أن سيرانو لا يحضر بعد الآن ،

وأظن أنى قد خسرت الرهان ، قال فليكن ، فقد كنت أتوقع من حضوره شراً عظيما

وهنا دق الجرس ثلاث دقات ثم ارتفع الستار فظهر



مونفلورى يمثل على المرسح فى ملابس راع

مونفلورى على المرسح لابساً ملابس راع وعلى رأسه قبعة محلاة بالورود مائلة إلى أذنه وفى يده أرغول طويل ينفخ فيه ، فصفق له الجمهور تصفيقاً كثيراً فشكرهم

بإيماءة رأسه ، ثم أنشأ يمثل دور فيدين ويتغنى بهذه القطعة «هنيئاً للذين يبتعدون عن قصور الملوك جهدهم ، بل يعتزلون العالم بأسره ويفرون منه إلى مكان ناءٍ فى منقطع العمران لا يرون فيه غير وجه الطبيعة الجميل . . . » وهنا رن صوت عظيم من جوانب القاعة يقول : « ألم أحرم عليك التمثيل شهراً كاملا يا مونفلورى » فدهش الجمهور وجمد مونفلورى فى مكانه والتفت الناس يمنة ويسرة يفتشون عن صاحب الصوت أين مكانه ، ووقف النساء فى المقاصير ينظرن ماذا جرى ، وهمس راجنو فى أذن لبريه : قد ربحتُ الرهان ياصديقى فها هو سيرانو قدحضر ، فقال لبريه ليته لم يحضر وليتك خسرت كل شىء ، وما هى إلا لحظة حتى ظهر سيرانو يتخطى الرقاب ويدفع المقاعد بين يديه دفعاً ويزمجر زمجرة الرعد حتى وصل الى كرسى أمام المسرح فاعتلاه وهز عصاه الطويلة فى وجه الممثل وقال له : اترك المسرح حالا يا أحقر الممثلين ، وإلا فأنت أعلم بما

يكون ، فسخط جمهور من الناس سخطاً شديداً وضجوا من كل ناحية : مثل يامونفلورى ، مثل ولا تخف ، فتشجع مونفلورى وعاد إلى التغنى بقطعته « هنيئاً للذين يبتعدون عن قصور الملوك جهدهم ، بل يعتزلون العالم بأسره . . . » فقاطعه سيرانو وصاح وهو يزأر زئير الليث : كأنك تأبى أيها الغبى الأحمق إلا أن أجعل ظهرك مزرعة لعصاى هذه فاترك المسرح حالا فقد أوشكت أن أغضب ، فاحتدم الجمهور غيظاً وأخذوا يصيحون : صه أيها المجنون ، مثل يا مونفلورى ، إنه فضول غريب ، إنها سماجةٌ نادرة ، فعاد إلى الممثل هدوؤه وسكونه ، وعاد إلى التغنى بقطعته « هنيئاً للذين . . . » فما نطق بأول حرف منها حتى وثب سيرانو من كرسيه الذى كان واقفاً عليه إلى أقرب كرسى إلى المسرح وهز عصاه فى وجهه وصاح : لا تمثل أيها الدب الهائل ولا تنطق بحرف واحد ، فان فعلت ضربتك بعصاى هذه على وجهك ضربة لا تعرف من بعدها أين مكان

أنفك منك ، قد أمرتك وليس فى العالم قوة تستطيع أن تعترض أمرى ، فطاش عقل مونفلورى وتلجلج لسانه والتفت إلى الأشراف الجالسين على المرسح من حوله وقال: النجدة ياسادتى ، فنظر أحدهم إلى سيرانو نظرة عظمة وكبرياء وقال له كفى هذياناً أيها الفضولى الثرثار، فقد أزعجتنا بضوضائك وكدرت صفونا، والتفت آخر إلى الممثل وقال له : مثل يا رجل ولا تحفل بشىء فأنا أحميك ، وقال آخر لقد تجاوز الحد هذا الوقح حتى كاد يفرغ صبرنا ، فاتّجه إليهم سيرانو وأنشأ يخاطبهم بهدوء وسكون ويقول : يجب على حضرات السادة الاشراف أن يلزموا أماكنهم ويحافظوا على حيدتهم ، فانى أشعر أن عصاى تتلهّف شوقاً إلى التهام شرائطهم وأوسمتهم ، فانتفض الاشراف غيظاً وتناهضوا للقيام وهاج الجمهور هياجاً شديداً وأحاط جمع عظيم منهم بكرسى سيرانو وأخذوا يصيحون فى وجهه ويولولون ويقلدون أصوات الحيوان كالديك والهر

والكلب والحمار ، فاستدار نحوهم سيرانو وألقى عليهم نظرة هائلة مخيفة فتراجعوا قليلا إلا أنهم ظلوا مستمرين فى هياجهم وضوضائهم وأخذوا يغنون بصوت واحد أنشودة هزلية يقولون فيها : « برغمك يا سيرانو ستمثل رواية كلوريز ، برغمك يا سيرانو سيمثل منفلورى » يكررونها مراراً ، فاستدار إليهم ثانية وزمجر فى وجوههم وصرخ فيهم صرخة هائلة وقال : ألا تستطيعون أيها السفلة الأوغاد أن تتركوا سيفى هادئاً فى غمده ساعة واحدة ، لا أحب أن أسمع منكم هذه الأنشودة مرة أخرى وإلا حطمتكم جميعاً ، فقال له أحدهم : إنك لست بشمشون الجبار الذى ضرب جمعاً عظيما من الناس بفك كلب فقتلهم ، فالتفت اليه وقال له : أستطيع أن أكون مثله لو أنك أعرتنى فكك ياهذا ، ثم التفت إلى مونفلورى فرآه لا يزال واقفاً فى مكانه فقال يا للعجب إنه لم ينفذ أمرى حتى الآن ، إنه يأبى إلا أن أجعل هذا المسرح مائدة أُشرّح عليها لحمه

تشريحاً ، فعاد مونفلورى إلى استنجاده واستصراخه وظل يقول : النجدة النجدة ، الغوث الغوث ، فازداد غضب الجمهور وهياجهم وأحاطوا بكرسيّ سيرانو من كل ناحية وأخذوا يهددونه وينذرونه بالويل والثبور ، وعادوا إلى الترنم بأنشودتهم الأولى وتقليد أصوات الحيوان ، فاستدار إليهم فجأةً ، ثم وثب من كرسيه إلى الأرض وتقدم نحوهم بعصاه فتقهقروا بين يديه حتى اتسعت الدائرة من حوله اتساعا عظيما فصاح فيهم : إنى آمركم جميعاً أن تسكتوا ، لا ينطق أحد منكم بحرف واحد بعد الآن ، إنى أعرف صور وجوهكم جميعها فليس فى استطاعة واحد منكم أن يُفلت من يدى ، من ذا الذى يريد أن يكون أول ناطق ليكون أول قتيل ؟ ثم مرّ بهم يتصفح وجوههم واحداً فواحداً ويقول : من ذا الذى يريد ؟ آأنت أيها الفتى ؟ أم أنت أيها الكهل ؟ أم أنت أيها الشيخ الهرم ؟ من منكم

يحب أن يكون اسمه أول اسم فى جريدة الأموات ؟ لم يجبنى أحد بحرف واحد ، ماسكوتكم ؟ أجبنتم ؟ مالكم تفرون من وجهى ! قلدوا أصوات الحيوان ، غنوا الأنشودة الباردة . أرى صمتاً عميقاً وسكوناً سائداً ، لا حركة ولا إشارة ، أظنهم قد ماتوا من شدة الخوف ، الآن أستطيع أن أستمر فى عملى ، ثم اتجه إلى المسرح وأنشأ يقول بصوت خشن أجش ، أيها الأشراف ، أيها الغوغاء ، أيها الرجال ، أيتها النساء ، لا أريد أن أرى على جسم المسرح هذا الدمل القذر الخبيث ، فان لم ينفجر من نفسه فجرته بهذا المبضع القاتل ، ولا أحب أن يعترض أحد منكم إرادتى أو أخذتُ البرىء بذنب المجرم والجار بذنب الجار ، ثم وضع يده على مقبض سيفه وقد استحالت صورته إلى صورة وحش هائل قد كشر عن أنيابه للفتك بكل من يدنو منه ، فسكن الجمهور سكوناً عميقاً لا نأمة فيه ولا حركة ، فقال مونفلورى بصوت خافت متقطع : إنك باهانتك إياى ياسيدى

قد أهنت الإلهة « تالى » فقالى لا شأن لك بتلك الإلهة أيها الأحمق المأفون ، لأنها إلهة التمثيل لا إلهة السخافات ، ولو أنها شاهدتْ موقفكَ هـذا وأنت تمثل بهذا الجسم الضخم الغليظ وهذه الحركات الباردة الثقيلة لتناولتْ منى عصايَ هذه وضربتك بها على أحقر عضو فى جسمك ، وها أنذا أُصفق ثلاث مرات ، وعند التصفيقة الثالثة لابد أن تتلاشى من المسرح يارأس الثور ، أسمعت ؟ فحاول مونفلورى أن يتكلم فصفق سيرانو التصفيقة الأولى فطار قلب الممثل فرقاً ورعباً ، وظل يقلب نظره فى الجماهير فلم يجد بينهم معيناً ولا ناصراً ، فأنشأ يقول بصوت مرتعد : سادتى . . . سادتى . . . أيرضيكم أن أهان فى حضرتكم وأن يهان الفنُّ على مرأى منكم ومسمع ؟ فصفق سيرانو التصفيقة الثانية ، فاشتد اهتمام الجماهير وتطالّت أعناقهم ، وتحولوا من الهياج والغضب إلى الاهتمام بمعرفة النتيجة ، وأخذ بعضهم يهمس فى أذن بعض بأمثال هذه

الكلمات : سيبقى ، سيخرج ، سيجبن ، سيقاوم ، لا يستطيع البقاء ، لا يليق به الفرار ، فحاول مونفلورى أن يقول شيئاً آخر ولكنه سمع التصفيقة الثالثة فاختفى من المسرح كأنما قد غاص فى مهوًى عميق

فهتف الجمهور لسيرانو هتافاً عظيماً إلا بضعة أفراد قلائل ، لا بل أخذ الكثير منهم يسب الممثل ويشتمه ويسخر منه ، وجلس سيرانو على كرسيه جلسة الفائز المنتصر ، فتقدم نحوه فتى من المتفرجين وقال له : أتأذن لى يا سيدى أن أسألك ماهو السبب فى بغضك مونفلورى ؟ فصمت سيرانو لحظة ثم ألقى عليه نظرة باسمة هادئة وقال له : عندى لذلك سببان ، أولهما قبح تمثيله ورداءة حركاته ، وأنه يغنى الشعر العذب الرقيق بصوت مأخوذ مختنق فيفسده على صاحبه وينغصه على الناس ، أما السبب الثانى فهو سرّى الخاص الذى لا يمكننى أن أبوح به لأحد ، فتقدم نحوه فتى آخر وقال له : ولكنك حرمتنا على كل حال مشاهدة رواية « كلوريز »

وما كنا نؤثر ذلك ولا نرضاه ، قال أظن انى لم أحرمك شيئاً نفيساً أيها الفتى ، فان نظم « بارو » كثير كلاهما بارد غث لا يساوى شيئاً ، ولذلك قد كفيتكم وكفيت نفسى مؤونة سماع روايته السخيفة غير آسف عليها ، فصاحت فتاة فى المقاصير : من ذا الذى يعيب شاعرنا بارو ؟ أيستطيع أحد أن يجرؤ على ذلك ؟ وتكلمت فتيات أخريات بمثل كلامها ، فرفع سيرانو نظره الى المقاصير وأنشأ يخاطبهن ويقول : لكُنّ يا سيداتى أن تكنّ جميلات رائعات كما تشأن ، ولكُنّ أن تختلبن الألباب وتستلبن العقول بحسنكن ودلالكن ، ولكُنّ أن تبتسمن الابتسامات اللامعة البديعة التى تضىء بنورها ظلمات هذه الحياة ، ولكُنّ أن تبعثن السعادة والغبطة والسرور والبهجة فى نفوس الناس جميعاً فيحيوا بفضلكن فى هذا العالم حياة المسرة والهناء ، ولكن أن توحين روح الشعر الى الشعراء وتمليْنها عليهم بسحركن وفتنتكن فيستطيعوا أن يطيروا بأجنحتهم

فى أجواء السموات العلا ويشرقوا منها على الدنيا ومن فيها شموساً وأقماراً . لكُنَّ كل هذا ، ولكِنْ ليس لكن أن تجلسن فى محكمة الشعر لتحكمن فى قضيه الشعراء

وكان « بلْروز » صاحبُ الخان واقفاً على مقربة منه فقال له : وما رأيك ياسيدى فى المال الذى خسرته الليلة بسببك ؟ قال هذه هى الكلمة الوحيدة المعقولة التى سمعتها الليلة فى هذا المكان ، ثم ضرب يده فى جيبه وأخرج منه كيساً مملوءاً فضة ورمى به إليه ، فتهلَّل بلْروز فرحاً وابتهاجاً وقال له : بمثل هذا الثمن آذن لك ياسيدى بالحضور كل ليلة وبتعطيل ماتشاء من الروايات ، ثم التفت إلى المتفرجين وقال لهم : قد انتهى التمثيل ياسادتى فهيّا جميعاً إلى الباب لتستردوا نقودكم

﴿ الأنفيات ﴾

وهنا تقدم رجل زرئُ الهيئة قذر المنظر تلوح على وجهه سمات المهانة والضعة ممزوجة بالوقاحة والسماجة وقال له بصوت خشن أجش : لا يقف موقفك هذا ياسيدى ولا يجرُؤ على مثل ماجرُؤتَ عليه إلا أحد رجلين ، إما عظيمٌ ، أوصنيعة رجل عظيم ، فهل لك أن تخبرنى من هو مولاك الذى أنت صنيعته ؟ فعجب سيرانو لامره وظلّ يردد نظره فيه ساعة ثم قال له : ماأنا بصنيعة أحد أيها الرجل ، قال أليس لك سيد يحميك ويرعاك ؟ قال لا ، قال ألا تلجأ فى ساعات شدتك وحرجك إلى نبيل من نبلاء هذا البلد أو أمير من أمرائه يسبل عليك ستر حمايته ، قال قلتُ لك « لا » مرتين ، فهل ترى حتما لازما أن أقولها لك مائة مرة لتفهمها ؟ ثم وضع يده على مقبض سيفه وقال ليس لى حامٍ ولا سيدٌ غير هذا ، فقال إذن

لاتطلع عليك شمس الغد حتى تكون قد شددت رحلك
وتزودت زادك وغادرت باريس إلى بلدٍ ناءٍ لارجعة لك
منه أبد الدهر ، قال لماذا ؟ قال لان مونفلورى الذى أهنته
الليلة صنيعة رجل عظيم هو الدوق « دى كندال » وذراع
هذا الرجل طويلة جداً تتناول أبعد الاشياء ولو كانت
فى قرن الشمس ، قال ولكنها ليست أطول من ذراعى
حين أصلها بسيفى ، قال إنك لاتستطيع أن تزعم فى نفسك
انك . . فقاطعه سيرانو وصاح : أستطيع أن أزعم كل
شىء أيها الفضولى الثرثار ، فأغرب من وجهى واطلب
لنفسك طريق الخلاص منى ، فظل الرجل جامداً مكانه يحدق
فيه تحديقاً شديداً لا يَطرف ولا يتحرك ، فانفجر سيرانو
غيظاً وانقض عليه وأخذ بتلابيبه وقال له اخرج من
هنا حالا أو حدثنى مالى أراك تنظر إلى أنفى هذه النظرة
المريبة ؟ فصعق الرجل فى مكانه وظل يرتعد بين يديه وكان
يعلم كما يعلم الناس جميعاً ان سيرانو لايغضب لشىء من الاشياء

غضبَه لأنفه ولا ينتقم لشيء انتقامه له وقال أنا ياسيدى !
قال نعم أنت فما الذى تراه غريباً فيه ؟ قال إنك واهم ياسيدى
فانى واقسم لك ما فكرت قط فى شيء مما تقول ، قال :
أتراه رخواً متهدلا كخرطوم الفيل ؟ قال لا ياسـيدى ،
قال أو محدودباً كمنقار البومة ؟ قال لاياسيدى ، قال أو
يخيل اليك أن أرنبته دملٌ كبير يزعجك منظره ؟ قال
أبداً ياسيدى ما فكرت فى ذلك قط ، قال أو يتراءى لك
أن الذباب يمشى متزلقاً فوق تضاريسه ؟ قال لا ياسيدى
لم يخطر ببالى شيء من ذلك وأقسم لك ، قال أتراه
أعجوبة من أعاجيب الدهر أو فلتة من فلتات الطبيعة ؟
قال لاياسيدى لاهـذا ولا ذاك ، قال أترى لونه مضراً
بالنظر أو وضعه خارجا عن الحد أو شكله مخالفاً للآداب
العامة ؟ قال آه يا إلهى ! إنى لم أسمح لنفسى بالنظر إليه
مطلقاً ، قال ولم لاتسمح لنفسك بالنظر إليه ، أتشمئز
منه ؟ قال أبداً ياسيدى وأقسم لك ، قال أهو فى نظرك

كبير جداً إلى هذا الحد ؟ قال لا بل صغير جداً لا أكاد أشعر به ، قال أتهزأ بي أيها الرجل ؟ قال عفواً ياسيدى فانى لاأدرى ما أقول ، قال وهل تظن أيها الغبي الاحمق أن الانف الصغير مفخرة من المفاخر التى يعتز بهاصاحبها ؟ نعم إن أنفي كبير جداً لا يكبره أنف في هذا البلد ، وذلك ما أفخر به كل الفخر ، لان الانف الكبير عنوان الكرم والشرف والشجاعة والشمم ، وأنا ذلك الذى اجتمعت له هذه الصفات جميعها ، أما الوجه الكروى الاملس المجرد من هذا العنوان الشريف كوجهك هذا فلا يستحق غير اللطم ، ولطمه على وجهه لطمة هائلة ، ثم وكزه برجله ففر الرجل هاربا من بين يديه وهو يصيح : النجدة النجدة ! فعاد سيرانو إلى مكانه وجلس على كرسيه مفتخراً معتزًّا وظل يقول ، هذا إنذار منى لجميع الفضوليين الثرثارين الذين يحاولون أن يهزءوا بهذا الموضع الناتئ في وجهى أن لا يفعلوا ، فان حدثتهم نفوسهم بشىء من ذلك سواء

أكانوا من الغوغاء أم من النبلاء فليعلموا أننى لاأسمح لهم بالفرار من يدى كما سمحت لهذا الجبان الرعديد قبل أن أغرس ذُباب سيفى فى سويداء قلوبهم

فانتفض الأشراف غيظاً وثاروا من أماكنهم، وقال الكونت دى جيش : يخيل إلى ان الرجل قد بدأ يضايقنا، ثم انحدر من المسرح تتبعه حاشيته حتى دنا من سيرانو والتفت إلى أصحابه وقال لهم : ألا يوجد بينكم من يصلح لمقارعة هذا الرجل ! فقال الكونت فالفير أناصاحبه ياسيدى فانتظر قليلاً فانى سأفوق إليه سهما لاقبل له بالنجاة منه، ثم تقدم نحو سيرانو وهو جالس على كرسيه جلسة العظمة والكبرياء وظل يردد النظر فى وجهه طويلاً ثم قال له : إن أنفك أيها الرجل قبيح جداً ، فرفع سيرانو نظره إليه بهدوء وسكون ثم قهقه قهقهة طويلة وقال ثم ماذا ؟ قال لاشىء سوى أن أقول لك مرة أخرى : إن أنفك أعجوبة من أعاجيب الزمان؛ فنهض سيرانو عن كرسيه متناقلاً وتقدم نحوه خطوة

وألقى عليه نظرة من تلك النظرات الهائلة التى اعتاد أن يصرع بها خصومه حين يلقيها عليهم وقال له ثم ماذا ؟ فاضطرب الفيكونت وشعر بدبيب الخوف فى قلبه وقال لاشىء ، قال أهذا هو السهم القاتل الذى أردت أن ترمينى به ؟ لقد كنت أظن انك أذكى من ذلك ، فازداد اضطراب الفيكونت وقال وماذا تريد ؟ قال أريد أن أقول لك إن مجال القول فى الآناف ذو سعةٍ ، ولو كان عندك ذرة واحدة من الفطنة والذكاء أو ان لك بعض العلم بأساليب الخطاب ومناهجه لاستطعت أن تقول لى فى هذا الموضوع شيئاً كثيراً ، كأن تقول لى مثلا بلهجة « المتنطعين » : لو كان لى أيها الرجل أنفٌ مثل أنفك هذا لأرحت نفسى والعالم منه بضربة واحدة من حدسيفى ، وبلهجة « المتلطفين » حبذا لو صنعت ياسيدى لأنفك هذا كأساً خاصة به فانى أراه يشرب معك من كأسك التى تشرب منها ، وبأسلوب « الواصفين » : ماأرى أنفك إلاّ صخرة عاتية ، أو قِمة عالية ، أو هضبة مشرفة ، أو رَوْشناً مُطلا ،

أو رأساً ناتئاً ، أو لساناً ممتداً ، وبنغمة « الفضوليين »: ماهذا الشيء الناتئ في وجهك ياسيدى ؟ أمحّارة مستطيلة ، أم دواة للكتابة ، أم صندوق للأمواس ، أم عُلبة للمقاريض؟ وبلهجة « الماجنين » : أبلغ بك غرامك بالطيور ياسيدى أن تبنى لها في وجهك برجاً خاصاً بها لتقع عليه كلما قطعت شوطاً من أشواطها ؟ وبأسلوب « المداهنين » هنيئاً لك ياسيدى هذا القصر الفخم الذى بنيته لنفسك على هذه الربوة البديعة ، وباللهجة الشعرية : أأنفك القيثارةُ التى توقع عليها إلهة الشعر أنغامها الشجية ؟ وبروح السذاجة : في أى ساعة تُفتح أبواب هـذا الهيكل ياسيدى الحارس ؟ وبالبساطة الريفية : ما هذا ياسيدى ؟ أأنف ضخم ؟ أم لفتة كبيرة ؟ أم شمامة صغيرة ؟ وباللهجة العسكرية : صوّب هذا المدفع نحو فرقة الفرسان أيها الجندى ، وباللغة المالية : أتريد أن تضع أنفك هذا في « اليانصيب » ؟ إنه يكون بلا شك النمرة الكبرى ، وباللغة التمثيلية : أهذا هو الأنف الذى أفسد تخطيطَ

وجه صاحبه فساداً عظيما ؟ ياله من مجرم أثيم ، ومعتد زنيم

ويمكنك أن تقول لى « متعجرفاً » ألا تخاف أيها الرجل وأنت تنفث دخانَ لُفافتك من هذه المدخنة الضخمة أن يصيح الناس حين يرونك الحريقَ الحريق ، و« متأدباً » لقد أخلّ هذا النتوء البارز فى وجهك ياسيدى بتوازن جسمك فاحترس من السقوط ، و « متأنقاً » : ألا يجمل بك ياسيدى أن تضع لأنفك هذا مظلّة خاصة به حتى لا يتغير لونه من تأثير حرارة الشمس ، و« متحذلقاً » : إن الحيوان الضخم الذى سماه الفيلسوف أرستوفان « تِيتَلْخَرْ تيفيلوجَملوس » [1] هو الحيوان الوحيد الذى يمكنه أن يحمل فى وجهه كميةً من اللحم توازن الكمية التى تحملها فى وجهك ، و « مازحاً » : ما أجمله مِشْجباً لتعليق القلانس والطيالس ، و « مغالياً » : ليس فى استطاعة أى ريح مهما اشتد هبوبها أن تجلب لأنفك الزكام غير ريح

---

(١) حيوان خيالى ضخم والكلمة منحوتة من تيتل ، خرتيت ، فيل ، جمل ، لكبر حجم هذه الأنواع من الحيوان

السَموم ، و « متهكماً » : ماأجمله اعلاناً لو وضع على واجهة حانوت من حوانيت الروائح العطرية ، و « متفجعاً » : ما البحر الأحمر إلا الدم الذى فصد من أنفك

ذلك ما كان يجب أن تقوله لى لو كانت فى رأسك ذرة واحدة من الفطنة والذكاء ، على أنك لو استطعت لحال بينك وبين ذلك الخوف والرعب ، لأنك تعلم انى إن سمحت لنفسى بالسخرية من نفسى أحياناً فانى لاأسمح لأحد بالسخرية منى مطلقاً ، فلقد جمعتَ فى نفسك بين الغباوة والجهل والجبن والخور ، حتى لأحسب أنك لاتحسن هجاء كلمة فى اللغة غير كلمة الحماقة ولا تحمل فى رأسك معنى غير معناها، فجنّ الكونت دى جيش غيظاً وقال للفيكونت : من رأى أن نترك هذا المجنون وشأنه فاننا ممتحنون الليلة برجل لابد أن يكون قد أَفلت الساعة من يد حارس المارستان ، فقال الفيكونت : إن الذى يغيظنى ويؤلمنى أن تصدر أمثال هذه الكلمات المملوءة كبراً وعظمة من حقير مفلوك لايملك

من متاع الدنيا شيئاً حتى قفازاً فى يده ، ولا يحمل على ثوبه أى علامة من علامات الشرف ، فارتعش سيرانو غيظاً ولكنه تجلد واستمسك وأنشأ يقول بصوت هادئ رزين

نعم أعترف لك ياسيدى بأننى رجل فقير مفلوك لاأملك من متاع الدنيا شيئاً وأننى لاأحمل على صدرى أى هنة من تلك الهنات التى تسمونها شارات الشرف ولكن ائذن لى أن أقول لك كلمة واحدة ثم أنت وشأنك بعد ذلك

إنى لاأحفل ياسيدى بالصور والرسوم والازياء والالوان ، ولا يعنينى جمالُ الصورة وحسنُها ولا برقشة الثياب ونمنمتها ، وحسبى من الجمال أنى رجل شريف مستقيم ، لاأكذب ولا أتلون ، ولا أداهن ولا أتملق ، وأن نفسى نقيةٌ بيضاء غيرملوثة بأدران الرذائل والمفاسد ، فلئن فاتنى الوجه الجميل والثوب المفوّف والوسام اللامع والجوّهر الساطع فلم يفتنى شرف المبدأ ، ولا عزة النفس ، ولا إباء الضيم ، ولا نقاء الضمير

إن الجبهة العالية ياسيدى لاتحتاج إلى تاج يزينها ، وان الصدر المملوء بالشرف والفضيلة لايحتاج إلى وسام يتلألأ فوقه ، فليفخر الفاخرون بما شاءوا من فضتهم وذهبهم ، وألقابهم ومناصبهم ، أما أنا فحسبي من الفخر أني أستطيع أن أمشي بين الناس برأس عال ، وجبهة مرتفعة ، ونفس مطمئنة ، وثوب نقي أبيض ، لم تعلق به ذرة من غبار العار ، ولم تلوثه شائبة من شوائب السفالة والدناءة ، لا أهاب شيئاً ، ولا أغضى لشيء ، ولا أخجل من شيء

نعم إنني لاأملك قفازاً فى يدى كما تقول ، ولكن أتدرى ما السبب فى ذلك ؟ السبب فيه أنى قطّعت جميع قفازاتى على وجوه السفهاء والفضوليين الذين يعترضون طريقى مثلك عقابا لهم على وقاحتهم وفضولهم ، ولم يكن باقياً لى منها حتى ليلة أمس إلا زوج عتيق جداً احتجت إليه فى موقف كموقفى هـذا معك فرميت به وجه أحد السفهاء فلصق بخده فتركته وانصرفت

فجُنّ الفيكونت غيظاً وأخذ يهذى ويقول : صعلوكٌ، بائسٌ، وقحٌ، حقيرٌ، سافلٌ، فانحنى سيرانو بين يديه رافعاً قبعته عن رأسه وقال له : تشرفت بمعرفة اسمك ياسيدى ، أما أنا فاسمى سيرانو سافينيان هركيل دى برچراك الجاسكونى ، فصاح الفيكونت : صه أيها النذل الساقط ، فجمد سيرانو لحظة ثم انحنى على نفسه وأخذ يتلوّى ويصيح كأنما أصيب بألم شديد فى بعض أعضائه ، فظن الفيكونت أن قد عرض له عارض مميت ، فحنا عليه وقال له ماذا أصابك ؟ فلم يجب ، وظل يصيح ويتأوه ، فقال له ما شكاتك أيها المسكين ؟ قال خَدَرٌ شديد يؤلمنى جداً ، قال فى قدمك ؟ قال لا ، قال فى فخذك ؟ قال لا ، قال إذن فى ذراعك ، قال ليته كان كذلك ، قال قل لى فى أى مكان هو ؟ قال فى سيفى ، فدهش الفيكونت وقال ماذا تريد ؟ قال لقد طال لُبثه فى غمده زمناً طويلا فأصابه هذا التنميل الشديد ولا علاج له غير الامتشاق

« المبارزة الشعرية »

ففطن الفيكونت لما أراد وعلم أنها المبارزة مامن ذلك بدّ فتشجع وقال : فليكن ما تريد ، قال أتعلم أنى سأضربك ضربة غريبة لم ير الراؤون مثلها ؟ قال خيالُ شاعرٍ كذاب ، قال : إنّ الشاعر لايكذب ولكنه يقول مالا يفهمه الأغبياء فيظنونه كاذباً ، وفى استطاعتى أن أرتجل فى أثناء القتال الذى يدور بينى وبينك موشحا لاأقول فيه شيئا إلافعلته ، وسيكون مركباً من خمس قطع يبتدئ أولها بابتداء المبارزة وينتهى آخرها بانتهائها ، أى بانتهاء حياتك يافيكونت ، فصاح الفيكونت : كذبت وانك لأعجز من ذلك ، قال لم أكذب فى حياتى قط ، وهاهو ذا عنوانُ موشحى الجديد وأخذ يلقى العنوان مادًّا به صوته كأنما يمثل على مسرح ويقول « موشحُ القتال الذى دار بين السيدسيرانو دى برجراك وبين صعلوك من الصعاليك المتنبلين اسمه

الفيكونت ڤالڤير فى حانة بورجونيا » ثم جرد سيفه وبدأ يقاتل ويلقى موشحه ويوقع ضرباته على نغماته ويقول

*
* *

إننى أرمى بهدوء قبعتى ، وأخلع عن منكبىّ ردائى ، ثم أجرد من غمده سيفى ، ثم أتقدم نحوك رشيقاً كسيلادون وشجاعاً كاسكارابوس ، ولابد أنى فى المقطع الاخير اصيب

*
* *

كان جديرا بك أن تضن بنفسك على الموت ، إن الموت لابد آت إليك ، لاأدرى أين أضع ذُباب سيفى من جسمك ، أفى جنبك تحت ثديك ؟ أم فى قلبك تحت وسامك ؟ وعلى كل حال ففى المقطع الأخير أصيب

*
* *

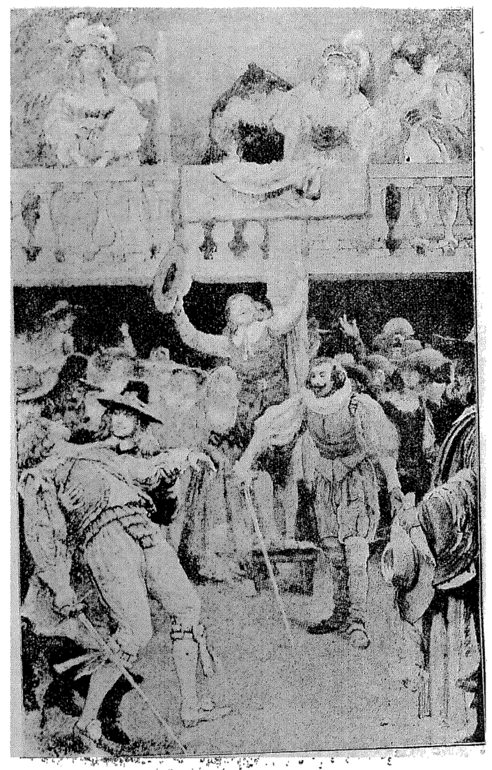
ترسك يرن تحت ضربات سيفى ، ذُباب سيفى يلتهب التهاباً ، قلبك يخفق من الرعب والخوف ، فرائصك ترتعد وتضطرب ، فلا بد أنى فى المقطع الاخير أصيب

ها أنت ذا قد بدأت تتقهقر ، لانى قد أفسدت عليك الضربة الوحيدة التى تعرفها ، أوسعت لك المجال فاغتررت وهجمت ، فلم تلبث ان فشلت وخذلت ، ويل لك من المستقبل المظلم ، فانى فى المقطع الأخير اصيب

*
* *

إسأل اللهَ رحمته وإحسانه ، فهاهو ذا الموت يرفرف فوق رأسك ، قد سددتُ عليك جميع الابواب ولم تبق لك حيلة فى دفع القضاء ، قد وعدت ولابد أن أفىَ بوعدى أنى فى الكلمة الاخيرة من المقطع الأخير اصيب

وهنا ضربه ضربة هائلة اخترقت صدره فسقط يترنح من وقع الضربة وضجت القاعة بالتصفيق والتهليل وأحاط القوم بسيرانو يباركونه ويمسحونه ، وأخذت النساء تنثر عليه الورود والازهار ، وكانت روكسان أكثرهن اهتماماً بالمبارزة وأشدهن سروراً بنتيجتها ، وظل الجماهير يصيحون بأصوات مختلفة : ما أشجعه ، ما أشعره ، إنه بطل عظيم



سیرانو یبارز الفیکونت فالفیر فیقتله

حادث بديع ، منظر جميل ، شاعر وبطل معاً ، لا يقول إلا ما يفعل ، قد أصابه فى الكلمة الأخيرة من المقطع الأخير كما قال : وتقدم نحوه السيد دارتنيان رئيس حراس الملك ومدّ إليه يده وقال له ائذن لى ياسيدى أن أشكرك وأصافحك وأقول لك إنك أفضل مبارز رأيته فى حياتى ، فلم يزد سيرانو على أن ألقى عليه نظرة هادئة ساكنة ومدّ يده إليه فصافحه بسكون ، ثم أخذ الناس ينصرفون من القاعة تباعاً ، وكان الممثل مونفلورى لا يزال واقفاً فى الطريق العام فظلوا يسبونه ويشتمونه كلما مروا به ويعيرونه بالجبن والفرار ، حتى إذا لم يبق فى الحانة أحد قال لبريه لسيرانو : هل لك فى أن نتخلف هنا قليلا أيها الصديق لأنى أريد أن أتحدث إليك فى بعض الشؤون ؟ فقال سيرانو لصاحب الحانة أتأذن لنا أن نبقى هنا هنيهة أنا وصديقى لبريه فقال نعم كما تشاء ياسيدى ، وسأخرج أنا وجماعة الممثلين لنتناول طعام العشاء ونتنزه قليلا ثم نعود بعد ساعة لتهيئة الرواية المقبلة

وصاح بالخدم : أغلقوا الابواب وأبقوا الانوار كما هى حتى نعود ، ثم انصرف هو وسائر الممثلين

« سريرة سيرانو »

قال لبريه لسيرانو : وأنت ألا تريد أن تتعشى أيضا؟ قال لا ، قال لماذا ؟ قال لأنى لا أملك نقوداً ، فقهقه لبريه ضاحكا ، فدُهش سيرانو والتفت إليه وقال له : ممّ تضحك ؟ قال تذكرت ذلك الموقف الجميل وأنت تخرج كيسك من جيبك وترمى به بكل قواك إلى بلروز وتقول له : خذ هذا أيها الرجل فهو لك ، قال ألا ترى انها كانت حركة بديعة ، قال نعم ، ولكنها لاتغنى عن العشاء شيئاً ، ولا أدرى ماذا تصنع بعد اليوم وأنت لاتزال فى الاسبوع الأول من الشهر ، ولا أحسب أن أباك يرسل إليك النفقة الشهرية مرة أخرى ، وكانت فتاة المقصف واقفة على مقربة منهما تسمع حديثهما دون أن ينتبها إليها فتحركت

حركة مسموعة فالتفت إليها سيرانو فمشت نحوه ووضعت يدها على كتفه وألقت عليه نظرة عطف وحنو لو أنها ألقتها على وجه غير وجهه لظنها الناس لجمالها ورقتها نظرة حب وغرام وقالت له : أنت ضيفي الليلة ياسيدى ، وهاهو ذا الطعام بين يديك فاذن من المائدة وتناول منها ما تشاء ، فقال شكراً لك ياصديقتى ، وبالرغم من أن عظمتى الجاسكونية لاتسمح لى أن أمد يدى لتناول أى شئ من أى انسان فانى ألبى دعوتك إبقاء على صداقتك وودك ، ثم تقدم نحو المائدة وتناول ثلاث حبات من العنب وقرصاً صغيراً وكأساً من الماء وقال هذا يكفينى ، قالت له خذ شيئاً آخر ، وقال لا حاجة بى الى شىء بعد ذلك إلا إلى قبلة من يدك الجميلة فاسمحى لى بها ، وتناول يدها فقبلها ووجهها يتلهب حياء وخجلا ، ثم وضع الطعام بين يديه وهو يتمتم بصوت ضعيف ويقول « لقمة صغيرة لا تملأ معدة

طفل، وثلاث حبات من العنب لاتملأ الفم، آه ما أشد جوعي » ثم التفت إلى ابريه وقال له : ماذا كنت تريد أن تقول لي يا ابريه ؟ تكلم فانى مصغ اليك ، قال كنت أريد أن أقول لك إن هؤلاء الطائشين المزورين الذين لاحديث لهم ليلهم ونهارهم إلا حديث الطعن والضرب والمغالبة والمصارعة سيفسدون عليك عقلك ، ويهدمون نظام حياتك ، ولو أنك جريت معهم فى هذا المضمار طويلا لكانت عاقبتك أوخم العواقب وأردأها ، سل العقلاء أصحاب العقول الراجحة والآراء المستحصدة ماذا كان وقع حادث الليلة فى نفوسهم وخاصةً فى نفس رجل عاقل كيس كنيافة الكاردينال ؟ فقال له وكان قد انتهى من طعامه : أ كان الكاردينال هنا ؟ قال نعم ، ولابد أن يكون رأيه فيك سيئاً جداً ، قال لا بل بالعكس ، لأنه شاعر ، والشاعر يعجبه دائماً أن يرى بعينيه منظر سقوط رواية ينظمها شاعر آخر ، قال ولكنك قد اتخذت

تلك الليلة أعداء كثيرين لا أدرى ماذا يكون شأنك معهم غداً ، قال كم تظنهم على وجه التقريب ؟ قال أربعين غير النساء ، قال : اذكر لى بعضهم مثلا ، قال : مونفلورى ، دى جيش ، دى جيجى ، فالفيره بارو مؤلف الرواية ، الممثلون ، أعضاء المجمع العامى . . قال كفى كفى ، قد فهمت ، إنها نتيجة جميلة جداً ، كنت أظن أن أعدائى أصغر شأناً من ذلك ، فعجب لبريه لأمره وقال له : أعترف لك ياسيرانو اننى قد عييت بأمرك عياء شديداً وأصبحت لا أدرى الى أين تصل بك هذه الحالة الغريبة وتلك الأساليب الشاذة ولا أفهم ماهي حقيقة رأيك فى الحياة ولا ماهي خطتك التى انتهجتها لنفسك فيها ؟ فأطرق سيرانو لحظة ثم رفع رأسه وقال له اسمع يالبريه

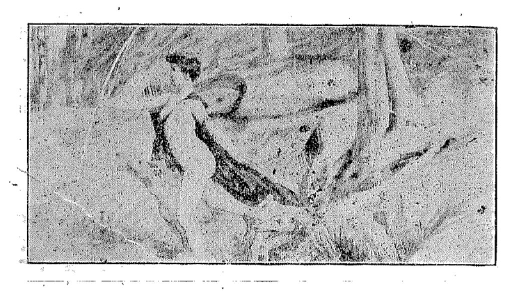
إن الخطط فى الحياة كثيرة جداً ومتشعبة تشعباً يحار فيه العقل ، ولقد ضللت فى مسالكها برهة من الزمان لا أعرف ماذا آخذ منها وماذا أدع ، حتى اهتديت أخيراً

إلى أبسطها وأسهلها ، قال وما هو ؟ قال هو أن أكون موضع الاعجاب فى كل شىء ومن كل انسان ، قال فليكن ماتريد ، ولكن على شرط أن تكون أفعالك أشبه بأفعال العقلاء منها بأفعال المجانين ، قال لا أستطيع أن أعرف الحد الفاصل بين العقل والجنون ، قال هل لك أن تخبرنى لمَ تضمر فى نفسك هذا البغض الشديد لمونفلورى وما أذكر ان الرجل أساء إليك فى حياته قط ؟ قال أبغضه لأنه وهو ذلك العتلّ البطين الذى لاتستطع يده أن تصل إلى سرته يظن نفسه رشيقاً جميلا يستطيع أن يخلُب قلوب النساء ويستهوىَ ألبابهن بخفته ورشاقته ، فاذا وقف فى المسرح للتمثيل ألقى عليهن فى مقاصيرهن نظرات كنظرات الضفادع بصورة تعافها الأنفس وتندَى لها الوجوه ، ولقد أضمرتُ له فى نفسى تلك المَوْجدة منذ الليلة التى رأيته يجترئ فيهـا على أن يوجه اليها نظراته الخنفسائية البشعة ، فلقد خيل إلىّ فى تلك الساعة أن دودة

قذرة سوداء قد دبت من مكانها الى وردة نضرة ناعمة فلصقت بها، فأزعجني هذا المنظر المؤلم إزعاجاً شديداً ولم أر بداً من معاقبته على جهله وغباوته فحكمت عليه بالانقطاع عن التمثيل شهراً كاملا ، فقال لبريه : ومن هى تلك التى تريد ؟ يخيل إلى أنك عاشق ياسيرانو ، فابتسم ابتسامة المتعض المتألم ثم تنفس تنفسةً طويلة كادت تتساقط لها جوانب نفسه وقال : نعم يالبريه ، إننى أحب حباً قاتلا لابد أن يسوقنى الى القبر ، قال : وهل يمكننى أن أعرف من هى تلك التى تحبها ؟ فانك لم تحدثنى عنها قبل اليوم ، قال أى فائدة لى من ذكرها وهى لاتحبنى ، قال وكيف عرفت ذلك ، هل فاتحتها فى شىء ؟ قال وكيف يمكننى أن أفاتحها وأنا أعلم أن هذا الأنف البشع القبيح الذى أحمله يتقدمنى حيثما ذهبت وأنّى سلكت ، فلا يسمح لى بالطمع فى قلب امرأة قبيحة شوهاء فضلا عن جميلة حسناء ، قال ألا يمكننى أن أعرف من هى ؟ قال اذا عرفت أن سيرانو

لا يمكن أن يحب الا أجمل امرأة فى العالم أمكنك أن تعرف من هى ، فصمت لبزيه هنيهة وهو يفكر حتى عجز فقال : لم أستطع أن أفهم شيئاً فهل لك أن تصفها لى ؟ قال أما هذه فنعم ، هى الخطر العظيم الذى يحيط بالمرء من جميع نواحيه فلا يعرف له سبيلا الى الخلاص منه هى المغناطيس الجذاب الذى يستهوى قلب الناظر إليه وعقله وجميع حواسه ومشاعره ، هى الوردة النضرة الناعمة التى تكمن حية الحب السامة بين أوراقها ، من رأى ابتساماتها رأى الكمال الانسانى كله ، ومن رأى نظراتها رأى الدعة واللطف والرقة والعذوبة وجميع معانى الحياة الطيبة اللذيذة ، فى كل حركة من حركاتها ، واشارة من اشاراتها ، ولفتة من لفتاتها ، شمس تضىء الكون وتنير ظلماته ، ليس فى استطاعة « الزُّهَرة » ربة الجمال وهى جالسة فوق علياء عرشها العظيم أن تضارعها فى بهائها وجلالها ، ولا فى استطاعة « ديانا » إلهة الحب حين تسير بخفة ورشاقة وسط

الرياض الناضرة أن تحاكيها فى مِشيتها وهى سائرة على قدميها الصغيرتين فى مماشى بستانها ، فقال ابريه : حسبك ياسيرانو فانك تحب ابنة عمك روكسان ، ولكن لا أدرى



ديانا الهة الحب التى لا تضارع روكسان فى جمال مشيتها

لم لا تفضى اليها بذات نفسك مادمت تحبها ومادمت تمُتُّ اليها بصلة القربى التى بينك وبينها ، قال ذلك ما أعجز عنه ياصديقى ، فاننى رجل بائس مسكين قضى الله علىَّ أن أعيش فى هذا العالم بلا أمل ولا رجاء ، تأمل فى وجهى قليلا وانظر هل يستطيع صاحبُ مثل هذا الوجه البشع الدميم أن يحيا

فى العالم حياة الحب والغرام ؟ أو أن يكون له أمل فى اختلاب الأفئدة واجتذاب القلوب ؟ لقد تمر بى فى بعض أيامى ساعات أشعر فيها بحاجة قلبى إلى تلك الحياة الحلوة اللذيذة التى يحياها الناس جميعاً حياةِ الحب والغرام فأدخل احدى الحدائق العامة وأمشى بين رياضها وأزهارها ، وأتنسم روائحها وأنفاسها ، فأنسى نفسى ويخيل إلىّ انى أسبح فى جو رائق صاف من العواطف والوجدانات فاذا رأيتُ فى ضوء أشعة القمر الفضية امرأة جميلة تمشى وحدها خيل الى أنى أستطيع أن أكون رفيقها الآخذ بذراعها ، وإذا رأيت فتًى وفتاة سائرين على مهل يتهامسان ويتناجيان وتتموج أنوار الحب بينهما خيل الى أن بجانبى رفيقة حسناء ترفرف على وعليها هذه الأجنحة البيضاء التى ترفرف عليهما ، ثم استسلم لهذه التصورات والافكار واستغرق فيها ساعة طويلة حتى إذا وقع نظرى فجأة على خيال وجهى فى حائط الحديقة فى ضوء القمر عدتُ

إلى صوابي وأفقت من غيبوبتي ورجعت أدراجي إلى منزلي وبي من الحزن ما الله به عليم ، ثم نكس رأسه ملياً وصمت صمتاً عميقاً كأنما يعالج في نفسه ألماً ممضاً فحنا عليه لبريه وقال له : رحمة بنفسك ياصديقي ، فرفع رأسه وقال : نعم إن آلامي عظيمة جداً لا يحتملها بشر ، فليت الله إذ خلقني على هذه الصورة الدميمة البشعة لم يخلق لي قلباً خفاقاً ، أو ليته إذ خلق لي هذا القلب الخفاق خلق له أجنحة يستطيع أن يطير بها في جو الحب كما تطير القلوب الخوافق ، أما الآن فانني أشعر أني وحيد في هذه الدنيا لا سند لي فيها ولا عضد ، ولا أنيس ولا عشير ، ولا زوجة ولا ولد ، ثم عاد إلى إطراقه مرة أخرى وأخذ يبكي ويذرف دموعاً غزاراً في صمت وسكون ، فانزعج لبريه وأخذ بيده وقال له : أتبكي ياسيرانو ؟ فانتفض ورفع رأسه وقال لا يالبريه ، إن البكاء قبيح بمثلي ، ولا يوجد في العالم منظر أقبح ولا

أسمج من منظر الدمعة الجميلة وهى سائلة على مثل هذا الانف الضخم الطويل لا شيء فى العالم أبدع ولا أرق ولا أجمل من الدموع ، وإني أضن بها أن أُذيلها وأهينها وأ كدر صفوها وأشوه جمالها ، فتأثر ابريه لمنظره تأثراً شديداً وكاد يبكى لبكائه ولكنه تجلد واستمسك وقال له لاتحزن ياصديقى ولا تستسلم لهذه الأوهام فما الحب فى الدنيا إلا حظوظ وجدود ، وقد يأتيك عفواً ماتظن أنه أبعد الأشياء منالا منك ، قال لا ، أنت مخطئ ياابريه ، فانه لايجوز لى أن أطمع فى حب « كليوباتره » إلا إذا كنت « قيصر » ولا فى حب « بيرنيس » إلا إذا كنتُ « تيتوس »[1] قال إن الله وهبك من العقل والذكاء والصفات الكريمة النادرة

---

(١) بيرنيس أميرة اسرائيلية من أسرة هيرود حكام جوديه بفلسطين رآها تيتوس الامبراطور الرومانى أثناء فتوحاته هناك فأحبها وأحبته فأتى بها إلى روما وأراد أن يتزوجها فأبى الشعب عليه ذلك إباء شديداً، فاضطر أن يعيدها بالرغم منه ومنها

ما يقوم لك مقام الجمال ، ألم تر تلك الفتاة بائعة الحلوى وهى تنظر إليك نظرات الحب والشغف على أثر تلك المبارزة الغريبة التى انتصرت فيها على الفيكونت الليلة ؟ كذلك كان شأن روكسان ، فقد شاهدتها وهى تتتبع حركاتك أثناء المبارزة باهتمام عظيم وقلقها عليك ظاهر فى اضطراب أعضائها واكفهرار وجهها ، حتى إذا انتصرت على خصمك كانت هى أعظم الناس سروراً بانتصارك ، فانتعش سيرانو وهدأت نفسه قليلا وقال : أصحيح ما تقول يالبريه ؟ قال نعم ولا بد أن تكون تلك الحادثة قد تركت فى قلبها أثراً عظيما فانتهز هذه الفرصة وفاتحها فى شأن حبك ، قال أخاف أن تسخر منى وهو الامر الذى أخشاه أكثر من كل شىء فى العالم

وهنا ظهرت وصيفة روكسان داخلة من الباب الكبير ولم تزل سائرة حتى وقفت أمام سيرانو فدهش لرؤيتها دهشة عظمى وخفق قلبه خفقاً متداركا وقال آه

يا إلهي : إنها وصيفتها ! وظل يرتعد ويضطرب فانحنت الوصيفة بين يديه محيية وقالت له : إن سيدتي روكسان تسأل ابن عمها البطل الشجاع سيرانو دي برچراك متى يمكنها أن تراه غداً على انفراد لتحادثه في بعض الشؤون ؟ وأين يكون مكان الاجتماع ؟ فازداد اضطرابه وارتعاده وقال : تراني أنا ؟ قالت نعم في المكان الذي تريده وفي الساعة التي تراها، قال آه يا الهي ، كيف يمكنني أن أصدق ذلك ! قالت انها ستذهب غـدا عند تفتح زهرات الصباح لسماع خطبة الوعظ في كنيسة « سان روك » ففي أي مكان تحب أن تقابلها بعد خروجها من الكنيسة ؟ فارتج عليه وظل يهمهم ويتمتم وانتشر عليه رأيه فلم يعرف ماذا يقول ،فقالت له مالي أراك مضطربا هكذا ؟ اسرع بالجواب فانها تنتظرني ، فقال بصوت خافت متقطع ، انى انتظرها في الساعة السابعة من صباح الغد في مطعم راجنو ، قالت وأين مكان هـذا المطعم ؟ قال في رأس شارع سان أُتريه ، قالت سأبلغها ذلك

وانحنت ثانية بين يديه وانصرفت، فظل شاخصاً ببصره إلى السماء كالذاهل المشدوه وهو يردد بينه وبين نفسه : آه ياإلهى ! كيف يمكننى أن أصدق ذلك فانها أرسلت إلىَّ وصيفتها تسألنى أن أقابلها على انفراد فليت شعرى ماذا تريد أن تقول لى ؟ فقال له لبريه تريد أن تقول لك إنها تحبك مافى ذلك ريب ، ولقد تنبأتُ لك بذلك من قبل فلم تصدقنى ، قال كيفما كان الأمر فحسبى منها انى خطرت ببالها وانها تعلم أن فى العالم إنسانا اسمه سيرانو ، قال ماحسبك إلا راضياً عن نفسك الآن ، ولا بد أن تكون قد هدأتْ تلك الثورة التى كانت قائمة فى نفسك ، قال لا ، ماهدأتْ ولا فترتْ ، بل أصبحتُ ثائراً جداً ، واشعر ان قوتى قد ازدادت اضعافاً مضاعفة ، فلو لقيت الآن جيشاً كامل العدة والعدد لقهرته وحدى ، ويخيل إلى أن بين جنبيّ عشرة قلوب وأن فى منطقتى عشرة سيوف أستطيع أن أقاتل بها جميعها فى آن واحد ، ولا يكفينى أن أحارب

الاقزام والضاوين والجبناء كذلك المسخ الذى حاربته الليلة بل لابد لى من جبابرة وعمالقة أخر بقتالهم والفلج عليهم

﴿ باب نيل ﴾

وكان يتكلم بصوت عال رنان ويصرخ صرخات هائلة مزعجة تدوى بها أرجاء القاعة كأنما خيل اليه أنه فى ميدان حرب وأنه يقاتل أولئك العمالقة والجبابرة الذين ذكرهم

وكان الممثلون قد عادوا من نزهتهم وأخذوا يهيئون على المسرح الرواية المقبلة فازعجهم صوت سيرانوا وهو يصرخ فصاح به أحدهم : ألا تزال باقياً هنا حتى الآن ياسيرانو ؟ لقد أزعجتنا بضوضائك وصخبك فاهدأ قليلا لانستطيع أن نأخذ فى عملنا ، فابتسم سيرانو وقال عفواً ياسادتى فسأترك لكم المكان مسروراً مغتبطاً ، وهم بالخروج . فما راعه الا جماعة من الجنود والضباط قد دخلوا الحانة يحيطون برجل يترنح سكراً فتأمله فاذا هو لينيير ، فهرع اليه مذعوراً وقال ما بك يا صديقى ؟

قال بلهجة متثاقلة خذ هذه الورقة واقرأها فانها تنذرنى بأن مائة رجل يكمنون لى الليلة فى طريقى إلى منزلى عند «باب نيل» ليقتلونى بسبب تلك القصيدة التى تعلمها ، فائذن لى بالذهاب إلى منزلك لأنام فيه الليلة ، فاطرق سيرانو هنيهة وهو يهمهم قائلا : مائة رجل على رجل واحد ؟ ما أجبنهم وأسفل نفوسهم ، ثم رفع رأسه وألقى على لينيير نظرة عالية مترفّعة وقال له بهدوء وسكون : لينيير ! إنك ستنام الليلة فى بيتك ، فلم يفهم غرضه وقال له وهو يترنح ويتمطق : ولكنك تعلم ياسيدى أننى رجل ضعيف مسكين لا أقوى على مقاتلة هرّ فمن لى بلقاء مائة رجل وحدى ؟ قال إننى أنا الذى سألقاهم وأنا الذى سأقاتلهم ، فخذ المصباح من يد البواب وسر أمامى ، وأقسم لك أنك ستنام الليلة فى بيتك ، وأننى سأمهد لك فراشك بيدى ، لقد كنت أتمنى منذ هنيهة أن أقاتل جيشاً كامل العدة والعدد ، وهاهو ذا الجيش الذى كنت أتمناه قد وافانى وحده ، إننى فى هذه الليلة بل فى هذه الساعة

على الأخص لا يجمل بي أن أقاتل أقل من هذا العدد ، فتقدم نحوه لبريه ووضع يده على كتفه وأسر في أذنه : ألا يستطيع هذا الرجل أن ينام الليلة في غير بيته ؟ وهل ترى من اللازم الحتم أن تخاطر بنفسك دفاعا عن مثل هذا الابله المأفون ، وكان الممثلون قد نزلوا من المسرح وأقبلوا يشاهدون الحادثة فوضع سيرانو يده على كتف لبريه وقال له وهو يبتسم ابتساماً هادئاً لطيفاً : ان هذا السكير الذى لا يفيق بل الزق الذى لا ينفد هو أرق الناس قلباً وأجملهم حساً وأشرفهم شعوراً ، رأيته مرة وقد خرج من الكنيسة يوم الأحد فرأى المرأة التى يحبها تتناول بيدها اللطيفة قليلا من الماء المقدس فظل يرقبها حتى انصرفت فهجم على الحوض الذى وضعت يدها فيه وما على وجه الارض شىء أبغض إليه من الماء القراح فما زال يكرع منه حتى أتى عليه ، فصاحت إحدى الممثلات : ما أجمل هذه الحادثة وما أرق هذا الشعور : فالتفت اليها سيرانو وقال لها : أليس كذلك أيتها الفتاة ؟ قالت وارحمتاه

لهذا الرجل المسكين كيف يسمح مائة رجل لانفسهم أن يتفقوا عليه ! الا تعلم ماهو السبب فى ذلك ياسيدى؟ فلم يجبها سيرانو والتفت إلى جماعة الجند الذين دخلوا مع لينيير وقال لهم: ها أنذا ذاهب إلى المعركة الليلية فان شئتم أن تكونوا معى فأنتم وشأنكم ، غير أن لى عليكم شرطاً واحداً فقط، هو أنكم مهما رأيتم من الخطر المحدق بى فلا يتقدم أحد منكم لمساعدتى ، وليكن مكانكم منى مكان مراسلى الصحف ومندوبيها فى المعارك ، يشاهدونها ولا يقربونها ، فقالت الممثلة : هل تأذن لى ياسيدى أن أذهب معكم حيث تذهبون ؟ قال نعم آذن لك ولكل من أراد الذهاب منكم ، فصاح الممثلون والموسيقيون جميعاً : كلنا نذهب معك ، فابتهج سيرانو وتهلل وجهه وقال . ياله من موكب شائق بديع ، ثم جرد سيفه من غمده وضرب به الهواء وصاح صيحة القائد فى جنده : ليتقدم الضباط ثم الجند ثم الممثلون ثم الممثلات

ثم الموسيقيون وهم يعزفون بألحانهم الحماسية ، وليأخذ كل منكم فى يده شمعة أو مصباحاً، أما أنا فانى قائدكم العام وهاهى الريشة التى ناولتنى اياها يدُ المجد والفخار ترفرف فوق قبعتى ، فأخذوا يصطفون كما أمرهم وهم يمجنون ويضحكون كأنهم ذاهبون إلى مرقص ، وهنا التفت سيرانو إلى الممثلة التى أعجبتها قصة لينيير وقال لها : قد كنت سألتنى أيتها الفتاة منذ هنيهة : لم يتفق مائة رجل على رجل واحد مسكين ؟ فأقول لك جواباً على ذلك . انهم مافعلوا ذلك من أجله بل من أجلى ، لانهم يعلمون أنى صديقه الذى لايخذله ، ثم أمر البواب أن يفتح الباب الكبير على مصراعيه ففعل فتجلى أمامه منظر باريس العام فى ضوء القمر الساطع فوقف هنيهة يتأمل هذا المنظر البديع ويقول آه لقد طلع البدر وتلألأت أشعته فاختفت باريس المظلمة وحلت محلها باريس المنيرة ، هاهى النجوم اللامعة تسطع فى سمائها ، وهاهى أشعة القمر تسيل على

منحدرات سطوحها ، وهاهو نهر السين يرتجف تحت أبخرته البيضاء ارتجاف المرآة السحرية

إن الطبيعة تهيئ لنا ميدانا جميلا للقتال الرهيب فهيا بنا جميعاً إلى « باب نيل »

ثم مشى فمشى الجميع وراءه ينقلون خطواتهم على نغم الموسيق



الفصل الثانى

« المتشاعرون »

فتح راجنو طاهى الشعراء والممثلين مطعمه مبكراً كعادته والطيور لاتزال جاثمة فى أوكارها فجلس بين يدى منضدته ينظم على ضوء المصباح قطعة شعرية فى وصف « اللوزينج » [1] فكان يُكبُّ على أوراقه مرة ليقيد ماحضره من الأبيات ويرفع عينيه إلى السماء أخرى ليستمد من إلهة الشعر روحها ويستلهمها وحيها ، ولم يزل على ذلك ساعة حتى بدأت الشمس ترسل أشعتها الأولى من خلال النوافذ والكوى ودوت فى المطبخ جلبةُ العمال وضوضاؤهم وصلصلة الآنية والقدور فألقى قلمه واعتدل فى جلسته وتأوه آهةً طويلة ثم قال مخاطباً إلهة الشعر : وَداعاً أيتها

(١) نوع من الحلوى يؤدم بدهن اللوز

الالهة القوية القادرة ، قد انقضى الليل وانقضى سكونه وهدوؤه وجاء النهار بجلبته وضوضائه فدعيني الآن واذهبي لشأنك غير مَقْلِيّة ولا مُجْتَواة وموعدنا الليلة القابلة ، ثم مشى الى المطبخ فرأى فى مدخله إناءً من النحاس الأصفر قد ألقت الشمس عليه أشعتها الصفراء فاشتد وميضه ولألاؤه فوقف أمامه لحظة يتأمله ويقول : هاهى الشمس قد استطاعت أن تصنع مالا يصنعه الكيمائىّ الماهر ، فقد حوّلت النحاس الأصفر بشعاع واحد من أشعتها إلى عسجد وهّاج ، ثم قال ماأجمل هذا المعنى وأبدعه ، لا بد لى من تقييده حتى لا يفلت من يدى إذا احتجت إليه ، وأخرج دفتره من جيبه فقيده ، ثم وقف بأحد الغلمان وهو يشق بمدية فى يده رغيفاً إلى شقّين فقال له : لقد أخطأتَ القسمة أيها الغلام فالمصرعان غير متوازنين ، ورأى آخر يشوى فى نصل واحد ديكاً كبيراً وعصفوراً صغيراً فقال له : إنها طريقة الشاعر « مَالرْبْ » وهى لاتعجبنى ، فاما أن يكون البيت تامًّا

كله أو مجزوءاً كله ، ومر بطبّاخ يطبخ مرقاً فى قدر فتناول الملعقة وأدارها فيه ثم قال له : ماأرق هذا الحساء ! انه كالشعر المهلهل وأنا لايعجبنى إلا الجزل المتين ، ووقف أحد العمال بين يديه وسأله كم قيراطاً تحب أن يكون ارتفاع قبة الفالوذج اليوم ؟ قال ثلاثة تفاعيل ، وتقدم بين يديه آخرُ حاملا على يده صينية مغطاة بنسيج رقيق وقال له : لقد اخترعت اليوم هذا الشكل ياسيدى فلعله يعجبك ، ثم رفع النسيج فاذا قيثارةٌ مصنوعة من الحلوى مغشاة بدقيق السكر الأبيض فتهلّل وجهه فرحاً وصاح : فكرة شعرية جميلة لم يسبقك إليها أحد ، وقد أعفيتك اليوم من العمل مكافأة لك على حسن تصورك وسمو خيالك فاذهب لشأنك وخذ هذه القطعة الفضية واشرب بها نَخْب الفنون الجميلة

« دواوين الشعراء »

ولم يزل يطوف بالعمال ويخاطبهم بهذا الاسلوب المضحك الغريب ، وهم يتغامزون عليه ويتضاحكون من ورائه حتى خرج فمشى إلى قاعة الطعام فرأى زوجته « ليز » تصفف على المائدة أنواع الحلوى والفطائر والقدائد والرشارش والرقائق وقد اتخذت أوعيتها وأكياسها من صحائف الكتب الأدبية ودواوين الشعراء التى كانت تبتاعها من الوراقين لهذا الغرض ، فألقى على الاكياس نظرة حزينة مكتئبة وقال : أهكذا تصنعين بدواوين أصدقائى الشعراء المجيدين ! لقد كنت أتمنى أن أرى وجه الموت قبل أن أرى تلك الاعلاق النفيسة والجواهر المنتقاة أوعية للفطائر والحلوى فى حوانيت الطهاة والحلويين ، فوارحمتاه للأدب ووا أسفا عليه وعلى عهده الزاهر النضير ، فألقت

عليه نظرة ازدراء واحتقار وقالت له : إننا ما أردنا اهانة دواوين أصدقائك ولا الزراية بها ، ولكننا علمنا أنها لم تخلق إلا للعثة والأرَضة وأن شعاع الشمس لن يصل إلى مكامنها أبد الدهر ، فأردنا أن نحتال على الناس فى أمرها فنشرناها من قبورها وقدمناها إليهم لفائف للفطائر والحلوى علهم يلمحونها عرضاً فيقرؤونها ، فليشكر لنا أصدقاؤك منتنا عليهم ويدنا عندهم ، فاحتدم راجنو غيظا وقال لها : أيتها النملة الضعيفة لا تهيجى الثور العظيم فيصرعك بحافره صرعة لا قيامة لك من بعدها ، فقالت لعنة الله عليك وعلى جميع ثيرانك من عهد هومير [١] إلى عهدك ، وتركته وانصرفت

وما هى إلا هنيهة حتى دخل المطعم غلام صغير يطلب قرصاً من الحلوى فتناول راجنو أحد الأكياس وتأمله قبل أن يعطيه إياه فوقع نظره على هذه الكلمة « ولما فارق عولس بينيلوب » فأعاده إلى مكانه ، وقال شعر بديع

(١) هومير صاحب الالياذة شاعر يونانى قديم

لاأستطيع أن أسمح به ، وتناول كيساً آخر فقرأ عليه هذا العنوان « إلى أَپولُّون» فقال : ولا هذا ، ووضعه فى مكانه، وتناول كيساً ثالثاً فقرأ عليه « الى فيليس » فقال ولا هـذا أيضاً ، وأراد أن يعيده إلى مكانه فالتفتتْ إليه زوجته نخافها وأعطاه الغلامَ فأخذه وانصرف

ولم يلبث ان تغفّل زوجتَه وعداً وراءَ الغلام حتى أدركه فى الطريق فضرع اليه أن يرد له الكيس فارغاً فأبى الغلام إلا إذا أخذ فى مقابله قرصاً آخر أوأخذالقرص بلاثمن ، فرد إليـه راجنو الثمن وعاد بالصحيفة فرحاً مغتبطاً يمسح عنها الدهن الذى غمرها ويضمها إلى صدره ويترنم بابياتها

« الموعد »

وانه لكذلك إذ فتح الباب فجأة ودخل سيرانو وهو مصفر الوجه شاحب اللون على أثر تلك المعركة الليلية

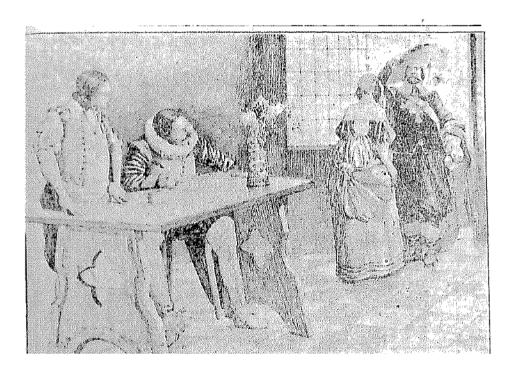
التى دارت بينه وبين أعداء لينيير ، فسأل راجنوكم الساعة الآن ؟ قال السادسة ياسيدى ، وقدم له كرسياً فجلس عليه ، ثم وقف بين يديه متأدباً متخشعاً وقال له : أهنئك ياسيدى بانتصارك العظيم الذى انتصرته ليلة أمس ، فلقد كانت تلك المعركة أجمل معركة حضرتها فى حياتى ، وسيمر بى زمن طويل قبل أن أنساها وأنسى حسنها وجمالها ، فالتفت إليه سيرانو وقال أى معركة تريد ؟ قال معركة « بورجونيا » قال لعلك تريد المبارزة ؟ قال نعم أريد تلك المبارزة الغريبة التى ألّفتَ فيها بين نغمات سيفك ونغمات شعرك تأليفاً بديعاً كأحسن مايصنع الموسيقار الماهر وارتجلتَ فيها ذلك الموشح الجميل الذى لم يسبق إليه شاعر من قبلك كأن إلهة الشعر كانت مرفرفة فوق رأسك تمدك بروحها وقوتها ، فقالت ليز وهى تشير الى زوجها : نعم ياسيدى إنه مازال يلهج بتلك الحادثة مذ رآها حتى الساعة لايفارق خيالها يقظته ولا منامه حتى ليخيل إلى أنه قد أصابه مس من

الشيطان ، فقال راجنو نعم انها لم تفارق خيالى قط ، وما حسدتُ أحداً فى حياتى على موقف من المواقف حسدى إياك على موقفك هذا ، ثم مد يده إلى المائدة وتناول مدية طويلة وأخذ يلوّح بها فى الهواء مقبلا مدبراً متقاصراً متطاولا كأنما يمثل تلك المبارزة ويترنم فى أثناء تمثيله بهـذا الشطر « وفى المقطع الاخير أصيب ، وفى المقطع الاخير أصيب » ثم يقول ما أجمل هذه النغمة ! وما أبلغ هذا الشعر ! وما أمتن تلك القافية ! وسيرانو ينظر إليه مدهوشاً مستغربا حتى فرغ من تمثيله ، فقال له كم الساعة الآن ياراجنو ؟ قال ست وعشرون دقيقة ياسيدى ، فقال فى نفسه لم يبق على السابعة إلا القليل ، ثم وقف وأخذ يتمشى فى أرجاء القاعة ذهاباً وجيئة فمرّ بليز وهى واقفة بجانب المائدة فلمحت فى يده جرحا دامياً فقالت له ماذا أصابك ياسيدى ، وما هذا الجرح الذى فى يدك ؟ قال خدش بسيط لاأهمية له ، فقالت يخيل إلى أنك كنت فى معركة ، قال لا ، قالت

أخاف أن تكون كاذبا ، قال هل رأيت أنى بضطرب
تلك هى العلامة الوحيدة للكذب فى مذهبى ، ثم التفت
إليها وإلى راجنو وقال لهما : إنى أنتظر بعض الناس هنا
وأحب أن أكون معه على انفراد فاتركا لى القاعة الآن ،
فلم يبق على حضوره إلا القليل ، قال راجنو ولكن ماذا
أصنع بشعرائى ياسيدى وهم على وشك الحضور الآن ، قال
لا بأس أن يحضروا على شرط أن تأذنهم بالانصراف أو
بالتحول الى غرفة أخرى عند ما أشير إليك ، ثم سأله كم
الساعة الآن ، قال ست وثلاثون دقيقة ، قال أعطنى قلماً
وقرطاساً فانى أريد أن أكتب شيئاً ، فجاءه بما أراد فجلس
على منضدة راجنو وأمسك بالقلم وأنشأ يقول بينه وبين نفسه :
ليس فى استطاعتى أن أفاتحها فى شىء مما أحب أن أفاتحها
فيه ، فخير لى أن أكتب لها كتاباً أقدمه إليها بنفسى عند
حضورها ثم أتركها وانصرف لشأنى لتقرأه وحدها ،
وأطرق برأسه هنيهة ثم تنفس نفساً طويلا وقال آه ، لقد

كنت أظن أنى شجاع جرىء لاأهاب الاقدام على أى خطر من الاخطار مهما كان شأنه ، فاذَا أنا جبان عاجز لاحول لى فيما يعرض لى من الخطوب ولا حيلة ، ويخيل الىّ أن الموت أهون على من أن أقف أمامها وجهاً لوجه وأفضى اليها بشيء مما يجيش به صدرى ثم أكبّ على المنضدة وحاول أن يكتب شيئاً فازدحمت الافكار فى رأسه وانتشرت عليه خيالاته وتصوراته فلم يستطع أن يكتب حرفاً واحداً ، فألقى القلم من يده وقال قبّح الله التكلف والتعمُّل لولا أنها تلميذة « المدرسة القديمة » وأنها من فريق المتأنقين المتشدّقين المفتتنين بالصور والأساليب لمّا وجد قلمى فى طريقه مايعترضه دون الوصول إلى الغاية التى يريدها ، فالكتاب مسطور فى صدرى بأكمله وليس بينى وبينه إن أردتُه الا أن أضع قلبى بجانبى وأستمليه مايشعر به فيمليه علىّ ببساطة ووضوح ، ثم تناول القلم مرة أخرى وشرع فى الكتابة فاذا صوتٌ غليظ

أجشّ يقعقع ناحية الباب « صباح الخير يا ليز » فرفع سيرانو رأسه فاذا ضابط ضخم الجثة هائل الخلقة ذو شاربين كثيفين مستطيلين فسأل راجنو من الرجل ؟ فقال إنه



سيرانو جالس على منضدة راجنو وهو يلتفت إلى الرجل الهائل عند دخوله

ضابط من ضباط الجيش الفرنسي يسمى نفسه « الرجل الهائل » وهو كما يزعم بطل من الابطال المغاوير الذين لم يسمح الدهر بمثلهم فى جيش من جيوش العالم ، وهو صديق

زوجتى ليز ، ولا يأتى هنا إلا لزيارتها ، فالقى سيرانو على الضابط نظرة شديدة ثم عاد إلى شأنه واستمر يكتب كتابه ويهمهم بينه وبين نفسه من حين إلى حين بامثال هذه الكلمات « أحبك حباً يعجز القلم عن بيانه ، لان القلم مادة من مواد العالم الأرضى ، والحب روح من أرواح الملأ الأعلى » « لا يرى الناسُ من عينيك الجميلتين سوى صفائهما ورونقهما ، أما أنا فاني أستشف من ورائهما نفسك الجميلة العذبة المملوءة رقة وشعوراً ، فاذا قال الناس ما أجمل عينيها وأحلاهما قلتُ ما أجمل نفسها المترقرقة فى عينيها ، وما أصفى أديمها » « إننى أعيش فى هذا العالم عيش اليائس القانط ، واليأس يقتل الفضائل فى النفوس ويميتها ، فاحيينى بالامل واخلق منى إنساناً جديداً تتخذى عندى بل عند العالم أجمع يداً لا أنساها لك أبد الدهر ، وفى اعتقادى أن ليس بينى وبين أن أكون إنساناً نافعاً فى المجتمع بل نعمةً على الدنيا باجمعها إلا أن تسبلى على ستر حمايتك ورعايتك »

وظل مستغرقاً فى تصوراته وأفكاره التى كان يرسمها على قرطاسه كما يرسم المصور منظراً بديعاً من مناظر الطبيعة على لوحه كما يراه لايزخرف ولا يوشى ولا يبتدع ولا يبتكر فلم ينتبه إلى جماعة الشعراء حين دخلوا الحانوت هاتفين مهللين وهم فى ملابسهم الزرية الغبراء ونعالهم البالية وقبعاتهم الممزقة فقالت « ليز » لزوجها وأشارت إليهم هاهم صعاليكك وقاذوراتك ياراجنو ، فلم يعبأ بها وقام لاستقبالهم والترحيب بهم فعانقوه وحيوه ودعوه بالزميل والرصيف والصديق وبكل مايحب من الالقاب والنعوت وهو فرح مغتبط فوقف زعيمهم وسط القاعة وأخذ يتشمم بأنفه ويقول : ماأذكى رائحة بلاطك ياملك الطهاة والشوائين ، فانحنى راجنو بين يديه شاكراً وقال له ماأسعد الساعة التى أراكم فيها أيها الاصدقاء الاوفياء ، ثم أشار لهم إلى

المائدة فوقفوا حولها وضربوا بأعينهم في أنحائها وظلوا يأكلون ويقصفون ويمزحون ويمجنون فيقول أحدهم وهو يشير إلى قطعة من الحلوى ذات رأس مسنم : ان هذه القطعة لم تحسن وضع قلنسوتها على رأسها فلا بد من معاقبتها، فيقول له الآخر وبم تعاقبها ؟ فيقول بهشم رأسها ، ثم يتناولها فيهشمها كلها رأساً وجسداً ، وينظر آخر إلى قطعة أخرى محشوة بالقشدة ويضغطها فتبرز قشدتها البيضاء فيقول ما أجملها ! كأنها ثغر ضاحك ، فلا بد لي من تقبيله ، ثم يدنيها من فمه ليقبلها فيأكلها ، ويقول آخر وهو ينظر إلى قيثارة الحلوى التي صنعها ذلك العامل في الصباح وأجازه راجنو عليها : كانت القيثارة قبل اليوم غذاء الارواح ، أما اليوم فهي غذاء الاجسام ، ثم ينقض عليها فيأكلها . وراجنو واقف أمامهم يبتسم ويتهلل ويقول في نفسه : ما أجمل هذه المعاني وأبدعها ! يأبى الشاعر إلا أن يكون

شاعراً فى كل موقف وفى كل مقام ، ثم قال : هل تأذنون لى أيها السادة أن أنشد بين أيديكم قصيدتى الجديدة التى نظمتها فى وصف « اللوزينج » وسميتها باسمه فصاحوا جميعاً : نعم نعم ، ولا بد أن تكون قصيدة جميلة جداً لان عنوانها جميل جداً ، فاغترّه مدحهم وثناؤهم فرفع عقيرته وأخذ ينشد قصيدته ويرجّع فى انشادها ترجيعاً مضحكا وهم لاهون عنه بشأنهم لا يعبأون به ولا يلتفتون إليه إلا فى الفينة بعد الفينة ، فقال له « الرجل الهائل » ألا تراهم يا راجنو وهم يلتهمون حلواك وأنت لاهٍ عنهم بألحانك وأغانيك ! فمشى نحوه وانحنى عليه وألقى فى أذنه هذه الكلمات : إنى أراهم أيها الغبى الابله ولكننى أغض الطرف عنهم رحمةً بهم واشفاقاً عليهم ، فهم قوم بؤساء معدِمون قلّما يرون وجه الطعام الشهىّ إلا فى حانوتى ، وأظنك لا تجهل أن ضيوفى أولى بالتجلة والاكرام من ضيوف زوجتى ، وكانا على مقربة من مكان سيرانو فانتبه لكلماته الاخيرة فرفع رأسه وقال

له ادْنُ منى يا راجنو ، فدنا منه فقال له : إنك تعجبنى جداً أيها الرجل ، فالشعراء فى هذا العالم كالشجرة الوارفة فى المهمه القفر ، يفيء إلى ظلها الغادون والرائحون وهى وحدها التى تحتمل حرّ الهاجرة ولظاها ، فرحمة الله ورضوانه على من يحسن إليهم ، ويتصدق عليهم ، ثم عاد إلى شأنه الذى هو فيه وظلّ الشعراء يأكلون ويقصفون ويبتاعون ما شاؤا من فطائر راجنو وحلواه بطرفهم الأدبية ومُلَحهم النادرة حتى فُتح الباب ودخل عليهم أحد زملائهم وكان قد تخلّف عنهم قليلا فهلّلوا حين رأوه وصاحوا بصوت واحد : لقد تأخرت أيها الصديق ، قال قد حال بينى وبين اللحاق بكم ازدحامُ الناس ازدحاماً شديداً عند باب « نيل » قالوا وهل حدث شىء هناك ؟ قال نعم كان ازدحامهم على ثمانية قتلى وجدوهم هناك مضرّجين بدمائهم ، ولا يعلم أحد كيف قتلوا ولا من جنى عليهم هذه الجناية الفظيعة ، فانتبه سيرانو للحديث واعتدل فى جلسته وقال فى نفسه ياللعجب ! كنت أظنهم

سبعة فقط ، إذن قد ربحنا واحداً آخر ، فقال راجنو للمتكلم : وما ظنّ الناس بهذه الحادثة ؟ قال يقول بعضهم : إن رجلا واحداً هو الذى قام بمفرده بمقاتلة هؤلاء اللصوص وكانوا مائة أو يزيدون فانتصر عليهم جميعاً وفرّق شملهم وقتل منهم هـذا العدد الكثير ، ولقد رأينا العِصِيّ والخناجر والمُدى التى كانت مع أفراد تلك العصابة مبعثرة ههنا وههنا وظل الناس يلتقطون القبعات التى طارت عن رءوس المنهزمين من باب نيل إلى النهر ، فمشى راجنو إلى سيرانو وقال له أسامع أنت هذا الحديث ياسيدى ؟ قال نعم ، قال فما ظنك ببطل هذه الواقعة ؟ فرفع رأسه إليه وقال لاأعرفه، فهرعت ليز إلى صديقها « الرجل الهائل » تسأله : وأنت ياسيدى ؟ فابتسم وفتل شاربيه وغمز بعينيه وقال أظننى أعرفه

وكان سيرانو قد أتم كتابه وأراد أن يوقع عليه ثم توقف وقال لالزوم للتوقيع لأنى سأقدمه اليها بنفسى، ثم طواه ووضعه فى صدره ونهض قائما على قدميه وهتف براجنو فأسرع

اليه فسأله : كم الساعة الآن ؟ قال ست وخمسون دقيقة ، فقال فى نفسه لم يبق إلا عشر دقائق ، وأخـذ يتمشى فى القاعة ذهاباً وجيئةً ، وكانت ليزوصديقها الضابط جالسين على انفراد فى أحد أركان القاعة فخيل لسيرانو انه رأى بينهما شيئا مريبا فدنا منهما ووضع يده على كتف المرأة وقال لها : يخيل إلى أيتها السيدة أن هذا البطل الجالس بجانبك يدير خطة للهجوم على حصنك ، فانتفضت وتظاهرت بالغضب وقالت له ماذا تقول ياسيدى ؟ إن نظرة واحدة منى تكفى لهزيمة من يحاول ذلك ، قال ولكنى أرى عينيك ذابلتين متضعضعتين تلوح عليهما علائم الانكسار ، فاضطربت وحاولت أن تقول شيئا فخانها صوتها فصمتت ، فقال لهـا أيتها الفتاة إن راجنو يعجبنى جداً ، لذلك لاأسمح لاحد أن يعبث بشرفه أمامى ، ثم التفت إلى الضابط فنظر إليه نظرة شزراء وقال : ولقد سمع من كانت له أذنان ، أليس كذلك أيها « الرجل الهائل » ؛ ثم تركهما

واستمر فى سبيله ، فهمست « ليز » فى أذن صديقها تقول له : إنك تدهشنى جدا ياصديقى ، ولا أعلم سببا لسكوتك وصمتك ، حتى ليخيل إلىّ انك تخافه وتخشاه ، قل له كلمة تؤلمه وتكسر من شِرّته أو استخرْ من أنفه على الاقل ، فانه موضع الضعف منه ، فنظر اليها ذاهلا مشدوها وقد سرت فى جسمه رعدة شديدة وقال أنفُه ؟ لا ، لا ، مالنا وللسخرية بمصائب الناس وأرزائهم ، ثم تسلل من مكانه وخرج من القاعة فتبعتْه ، وكانت الساعة قد أشرفت على السابعة فصاح سيرانو : قد جاء الميعاد ياراجنو فهتف راجنو بشعرائه : هيا بنا أيها الاصدقاء إلى الحجرة الثانية فتباطأوا وتلكأوا فظل يدفعهم بيديه وهم يتخطفون الحلوى ويتناهبونها حتى أدخلهم الحجرة وأغلق بابها عليهم ، ووقف سيرانو على مقربة من باب المطعم ينتظر قدوم روكسان ويقول فى نفسه لا أعطيها الكتاب إلا إذا رأيت فى وجهها بارقة أمل

« اللقاء »

وهنا سمع حفيف ثوب مقبل فخفق قلبه خفقاناشديداً ثم فتح الباب ودخلت روكسان ووراءها وصيفتها وهى تخطر فى مشيتها تلك الخطرة البديعة التى عُرفت بها وافتتن بها الناس من أجلها وقد أسبلت قناعها على وجهها فحيته فحياها تحية محتشمة تترجح بين الادب والكبرياء وأشار لها الى كرسى كان قد أعده لها فجلست عليه ثم تركها وذهب الى الوصيفة وكانت واقفة على عتبة الباب تقلب نظراتها فى صنوف الأطعمة المنتشرة على المائدة فقال لها بلهجة المازح المداعب : أشرهةٌ أنت أيتها الفتاة ؟ قالت نعم ياسيدى الى الموت ، فمشى الى المائدة وتناول كيسين من أكياس الحلوى وقال لها هاكِ قصيدتين بديعتين للشاعر العظيم (بِنْسِرَادْ) فخذيهما ، فلم تفهم مايريد ، وقالت وماذا أصنع بهما ، قال قد اتخذتْهما « ليز » كما اتخذتْ غيرهما من



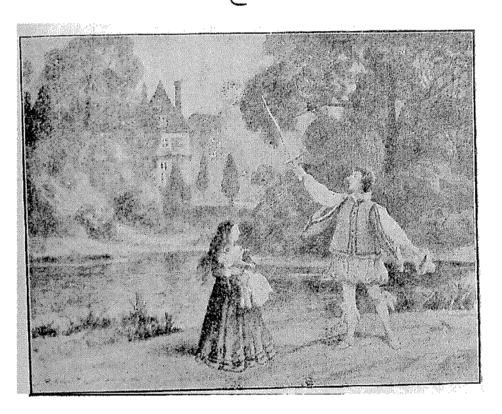
روكسان داخلة مطعم راجنو لمقابلة سيرانو وهى ترفع برقعها عند دخولها
وسيرانو يعطى وصيفتها أكياساً من الحلوى ليبعدها

قصائد الشعراء المجيدين أكياساً للحلوى وأوعية للفطائر فخذيهما واجلسى خارج الباب فانك ستجدين فيهما من ألوان الحلوى ما تشتهين ، ولا تعودى إلا بعد أن تشبعى ، فتلألأ وجهها فرحاً وسروراً وتناولت الكيسين وعادت أدراجها ، ورجع سيرانو الى روكسان فوقف بين يديها حاسر الرأس وقال لها : لقد أسديت إلىّ ياسيدتى بزيارتك هذه نعمة لا أنساها لك مدى الدهر ، وإنى أفتخر بهذه الثقة التى أوليتنيها وأنتظر بكل شوق سماع ما تريدين أن تفضى به إلىّ ، فحسرت قناعها عن وجهها فأضاء ضوء القمر الساطع فى الدُّجُنّةِ الحالكة وقالت له : شكراً لك يا ابن عمى ، إنك قد أحسنت إلىّ ليلة أمس إحساناً عظيماً بقتلك ذلك الفتى الوقح الجرىء الذى حاول أن يعبث بك ويستهين بكرامتك فغضبتَ لنفسك غضبة الأبىّ الأنوف ولم ترمْ مكانك حتى غسلت بدمه أثر الاهانة

الى لحقت بك ، أتعرف هـذا الفتى ياسـيرانو ؟ قال لاياسيدتى ، قالت أبارزته دون أن تعرف اسمه ؟ قال نعم ، قالت إنه الفيكونت « ڤالڤير » الذى أراد أحد المغرمين بى من عظماء هذا البلد وهو الكونت دى جيش أن يزوجنى منه على الرغم منى زواجاً لا أعرف كيف أسميه ؟ قال زواجاً اسمياً ! فاطرقت برأسها حياءً وخجلا وقالت نعم ، فقال لها ما أفظع ما تقولين ، لقد أصبحتُ الآن راضياعن نفسى كل الرضا فى تلك الخطة التى انتهجتها معـه والتى انتهت بانتهاء حياته بعد ما علمتُ أننى انما كنت أقاتل فى سبيلك لا فى سبيل نفسى ، وأذود عن عينيك الجميلتين لا عن أنفى ؟ فاستضحكت وأشارت له الى كرسى بجانبها فجلس عليه صامتاً ساكناً ينتظر ما تقول ، وسادالسكون بينهما هنيهة ، ثم أقبلت عليه وقالت له : كنت أريد أن أقول لك كلمة أخرى ياسيرانو فهل تسمح لى بها ؟ قال نعم أسمح لك بكل شىء فقولى ما تشائين ، قالت أتذكر تلك

الايام الماضية التى قضيناها معاً ونحن صغيران فى «برچراك» فى تلك المروج الخضراء على ضفاف البحيرة ؟ فانتعشت نفسه وخفق قلبه خفقانا شديداً وقال : نعم يا ابنة عمى أيامَ كنت تأتين هناك مع أبويك لقضاء فصل الصيف فى كل عام ، قالت إنى أذكر تلك الأوقاف الجميلة كأنها حاضرةٌ بين يدىّ وأذكر تلك الاعواد الشائكة التى كنت تقتطعها بيديك من أشجار الغاب وتتخذ منها أسيافاً صغيرة تلعب بها فى الهواء كأنك تبارز أشباحاً خفية تتراءى لك ، قال نعم أذكر ذلك ولا أنساه وأذكر أنك كنت تجمعين أعواد الذُّرة من الحقل ثم تجلسين على ضفة البحيرة لِتَتَّخذِى من خيوطها شعوراً ذهبيةً لعرائسك الجميلة ، قالت نعم ما كان أجمل تلك الأيام ، وما كان أسعد ساعاتها ، وما كان أحلى مذاق العيش فيها ، لقد كان يخيل إلىّ فى ذلك الوقت اننى صاحبة السلطان المطلق عليك وانك تحبنى حبّاً شديداً وتهتم بشأنى اهتماماً عظيما بل تأتمر بأمرى فى كل ما أشير

به عليك وتنزل عند جميع رغباتى وآمالى ، وأظن انى كنت جميلة فى ذلك الحين ، أليس كذلك ؟ فازداد خفقان قلبه وخيل إليه أنه يرى بين شفتيها ظل تلك الكلمة العذبة التى يتلهف شوقاً إلى سماعها من فمها ، فرفع رأسه ونظر إليها نظرة



سيرانو يبارز فى طفولته أشباحاً فى الهواء

باسمة عذبة وقال نعم ياسيدتى كما أنتِ الآن ، قالت وكنتَ كثير الشغف بتسلق الاشجار الشائكة والمخاطرةِ بنفسك

فى ذلك مخاطرة عظمى فكنتَ إذا أصابك جُرح فى يدك هرعتُ إليك وعطفت عليك عطف الأم الرؤوم على ولدها وأخذت يدك بين يدىّ هكذا ، ومدت يدها إلى يده فجذبتها إليها فوقع نظرها على ذلك الجرح الدامى الذى أصابه فى معركة الليل فدهشت وقالت : ما هذا ياسيرانو ؟ ثم ابتسمت وقالت : ألا تزال تتساق الاشجار حتى الآن ؟ فضحك وقال نعم ، لا أزال أحب اللعب حتى الآن ، ولقد لعبتُ ليلة أمس لعبةً شيطانية عند باب نيل سفكتُ فيها من دم أعدائى فوق ماسفكوا من دمى أضعافاً مضاعفة ، ثم حاول أن يستردّ يده فامسكتْ بها وقالت له لا ، بل لا بد أن تدعها لى الآن حتى أرى الجرح وأسبره كما كنت أفعل فى عهد طفولتى وأعالجه بالطريقة التى كنت أعالج بها جروحك من قبل ، ثم أخرجت منديلها من صدرها وغمست طرفه فى قدح من الماء وظلت تمسح به الجرح برفق وتُؤَدة وتقول له : هكذا كنت أعالج



روكسان تأخذ يد سيرانو بين يديها لتعالج جرحه

جروحك التى كانت تصيبك من تسلق الاشجار الشائكة
فى عهد طفولتك الأولى ، وهو يرتعد بين يديها ويضطرب
من تأثير ملامسة جسمها لجسمه ويقول . نعم ياروكسان إنها
رحمة لاتكون إلا فى قلوب الامهات ، قالت له : قل لى كم
كان عدد أعدائك الذى قاتلتهم فى تلك المعركة ؟ قال مائة أو
يزيدون ، قالت مائة ! ياللشجاعة النادرة ، قال وربما كنت
لاتعلمين أنها المرة الثانية التى قاتلتُ فيها من أجلك فى ليلة
واحدة ، قالت من أجلى ؟ لم أفهم ما تريد ، قال نعم لأنى
إنما كنت أدافع عن ذلك الشاعر المسكين الذى انتصر لك
وذادَ عنك ومثل بخصمك أقبح تمثيل فى قصيدته التى هجاه بها
فحقدها عليه ودس له هؤلاء الرعاع ليقتلوه فى جنح الظلام ،
قالت ما أعظم شكرى لك يا ابن عمى وما أكبر شأن تلك
النعمة التى أسديتها إلىّ ، حدثنى حديث الواقعة من مبدئها
إلى منتهاها فلا بد أن تكون واقعة غريبة جداً لم يسطر
التاريخ مثلها ، قال سأحدثك عنها فيما بعد ، أما الآن فحدثينى

أنت عن ذلك الأمر الذى جئتنى من أجله والذى لم تجرؤ على أن تفاتحينى فيه حتى الآن ، قالت وهى لاتزال آخذة بيده تمسحها وتستغشها [1] ، أما وقد ألقينا نظرة على ماضينا الجميل وجددنا عهد تلك الذكرى القديمة وعلمنا أن الصلة التى بيننا صلة وثيقة محكمة لاتنال منها يد الدهر ولا تأخذ منها عاديات الايام فاسمح لى أن أفضى إليك بسرى وأن أقول لك بصراحة إننى عاشقة ياسيرانو ، فتلألأ وجهه وانتعشت نفسه ومشت رعدة خفيفة فى أجزاء جسمه وكاد منظره ينم عما فى نفسه لولا تجلده واستمساكه وقال لها : ومن هو هذا الانسان السعيد الذى يتمتع بنعمة حبك ؟ قالت انه لايعلم شيئاً مما أصغره له فى قلبى حتى الآن ولم أفض إليه بسريرة نفسى حتى الساعة ، وسيكون سروره عظيما جداً حينما يعلم أن الفتاة التى يحبها ويموت وجداً بها تضمر له بين جوانحها من الوجد فوق ما يضمر

(١) استغث الطبيب الجرح نفى غثيثته وصديده بمنديل ونحوه

لها ، فازداد سروره وانتعاشه وقال : ألا تستطيعين أن
تقولى لى من هو ياروكسان ؟ قالت سأصفه لك لتكون
أول ناطق باسمه ، هو شابٌ خجولٌ شديد الحياء يحبنى
حباً يملك عليه كل حواسه ومشاعره ولكنه يكتم سره
فى صدره ، قال وكيف وقفتِ على سريرة نفسه ؟ قالت
عرفتها من ارتجاف شفتيه واكفهرار وجهه وتدله نظراته
كلما رآنى ، قال ثم ماذا ؟ قالت وهو ذكىٌ نبيه تلوح على وجهه
علائم التفوق والنبوغ ، فأطرق برأسه حياءً وحاول أن
يجتذب يده من يدها وكانت قد انتهت من تضميدها
فقالت له دعها لى الآن فهى لا تزال ملتهبة بالحمى ، فتركها
لها وهو يقول فى نفسه : ما أسعدنى وأعظم هنائى ، واستمرت
فى حديثها تقول ، وهو فوق ذلك شجاع مقدام شريف
النفس عالى الهمة يأبى الضيم ويأنف الذل ولا يبيت على
ضيم يراد به ، قال هيهِ ؟ قالت وهو جندىٌ فى فصيلة شبان

الحرس ، أى فى فصيلتك ياسيرانو ، فهمهم بين شفتيه : لم يبق فى الامر ريب ، قالت أما صورته فهى أجمل صورة خلقها الله فى العالم ... فصعق عند سماع هذه الكلمة التى ذهبت بجميع آماله وأحلامه وتأوّه آهة شديدة كادت تخرج فيها نفسه فعجبت لأمره وقالت له : ماذا أصابك ياسيرانو ؟ فتراجع إلى نفسه سريعاً واستجمع من قواه فى تلك اللحظة ما يعجز أشجع الرجال وأصبرهم عن استجماعه فيها وقال : لاشىء ، لقد أحسست بوخز فى يدى من تأثير الحمى وقد ذهب الآن كل شىء ، وصمت لحظة ثم قال نعم قد ذهب كل شىء فتحدثى فانى مصغ إليك ، قالت لقد أحببتُ هذا الفتى حبّا ملك على عواطفى واستغرق مشاعرى ولا عهد لى به إلا منذ أيام قلائل كنت أراه فيها يختلف إلى قاعة التمثيل فيجلس منفرداً وحده فأنظر اليه من بعيد ، وقد جئتك الآن أتحدث إليك فى شأنه ، فأطرق هنيهة ثم رفع رأسه إليها وقال لها بصوت ساكن هادئ : ألم تتحدثى اليه قبل اليوم ؟ قالت لم تتخاطب إلا

بالعيون ، قال وكيف عرفت جميع هذه الصفات التى ذكرتها فيه وما حادثتِه ولا جلست إليه ؟ قالت سمعتها منذ أيام تحت أشجار الزيزفون فى الميدان الملكى فى مجتمع العجائز الفضوليات لا أحرمنا الله ثرثرتهن وفضولهن ، قال وهل هو من فرقة الشبان ؟ قالت نعم شبان الحرس ، قال أعترف لك ياسيدتى انى قد عجزت عن معرفة اسمه فقولى لى من هو : قالت هو « البارون كرستيان دى نوفْييتْ » قال لا أذكر أنى سمعت بهذا الاسم قبل اليوم ، قالت انه لم يدخل الفرقة إلا فى هذا الصباح تحت قيادة « كربون دى كاستل جالو » فصمت هنيهة ثم نظر إليها نظرة عطفٍ وحنوٍّ وقال لها : ولكن يخيل إلى ياروكسان إنك تخاطرين بقلبك فى هـذا الحب مخاطرة عظمى لا تدرين ماعاقبتها وأنك تلقين بنفسك فى هوة لا تعرفين السبيل إلى الخلاص منها ، وكانت الوصيفة قد فرغت من طعامها فى هـذه اللحظة فدفعت البابَ وأطلتْ برأسها وقالت قد أكلت كل شىء ياسيدى فماذا أصنع ؟

فالتفت إليها وقال حسبك ذلك فاقرئى ما على الاكياس من الأشعار، ولا تعودى إلا إذا دعوتك، فانصرفت وعاد هو إلى اتمام حديثه فقال: أنت يا ابنة عمى فتاة رقيقة الشعور ذكية الفؤاد لا يعجبك إلا التفوق والنبوغ ولا تأنس نفسك إلا بالذكاء الخارق والفطنة النادرة، فماذا يكون شأنك غداً لو أن ذلك الفتى الذى أحببته واصطفيته لنفسك كان بليداً أو عييًّا أو ضعيف الذهن أو خامل الفكر؟ قالت لا يمكن أن يكون كذلك، قال لماذا؟ قالت لأن منظر شَعره الذى يشبه فى صفرته ولمعانه منظر شَعر أبطال «أورفيه» يدل على نبوغه وذكائه، قال ربما كان جميل الشعر بديع الصورة ولكنه بليد الذهن ضَيق العطن، قالت لا أظن ذلك، بل يخيل إلىّ وإن لم أجلس إليه ولم أسمع حديثه أنه أرقّ الناس حديثاً وأعذبهم سمراً، وأفصحهم لساناً، وأغزرهم بياناً، فقال فى نفسه: نعم كل الالفاظ جميلة مادام الفم الذى ينطق بها جميلا، ثم قال لها: ولكن ماذا تصنعين لو

تبين لك أنه جاهل أحمق ؟ قالت إذن أموت همًّا وكمداً ، قال هذا الذى أخاف عليك منه ، وصمت هنيهة وهو يردد بينه وبين نفسه : وارحمتاه لها إنها على شفا الهاوية ، ثم قال لها : وفى أى شأن من شؤونه تريدين أن تتحدثى إلى ؟ قالت قد علمتُ بالأمس أمراً أحزننى جداً وأقلق مضجعى فلم أطعم الغمض ساعة واحدة ، قال وما هو ؟ قالت علمت أن جنود فصيلتكم جميعهم من الجاسكونيين الجفاة ، وأنهم لا يحبون أن يدخل فصيلتهم غريب عنهم ، فاذا دخل ناوؤوه وشاكسوه حتى يحرجوه ، وربما تعللوا عليه العللَ فبارزوه وقتلوه ، ففطن لغرضها وقال نعم إنهم يفعلون ذلك ولهم الحق فيما يفعلون ، وخاصة إذا كان هذا الواغل عليهم أحدَ أولئك الأغبياء الجهلاء الذين ينتظمون فى سلك الفرقة من طريق الشفاعات والوصايات لا من طريق الكفاءة والاستحقاق ، قالت ذلك ما جئتك من أجله ، فقد أعجبنى موقفك الشريف الذى وقفتَه ليلة أمس أمام ذلك

الفتى الوقح البذىء الذى حاول أن يهزأ بك وينال من كرامتك وامتلأ قلبي ثقة بما كنت لا أزال أعرفه لك طول حياتك من الشجاعة والحمية وعلو الهمة واباء الضيم فأتيت إليك أسألك أن تتولّى كرستيان بحمايتك ، فصمت سيرانو لحظة ذهبت نفسه فيها كل مذهب وتمثلت له روكسان فى صورتين مختلفتين قد وقفت إحداهما بجانب الأخرى ، صورة امرأة عاشقة مستهترة تريد أن تسخره فى غرض من أغراضها الغرامية وتطلب إليه أن يضع يده فى تلك اليد التى قتلته وأتلفت عليه نفسه وأن يكون صديقاً لذلك الفتى الذى حرمه سعادته وهناءه وقطع عليه سبيل حياته ووقف عقبة بينه وبين آماله وأمانيه ، وصورة امرأة مسكينة ضعيفة من أقربائه وذوى رحمه قد نزلت بها نكبة من النكبات العظام ففزعت اليه فيها تسأله أن يعينها عليها ثقة منها بفضله وكرمه ، وهمته ومروءته ، وهى لاتعلم من شؤون قلبه شيئاً ، ولا تدرى ان هذا الذى تفزع إليه فيه

إنما هى نفسه التى بين جنبيه وحياته التى لا يملك فى يده حياة غيرها ، ثم مالبث أن رأى الصورة الأولى تتضاءل فى نظره وتتصاغر حتى تلاشت واضمحلت ، وظلت الثانية ثابتة فى مكانها بارزة واضحة تنظر اليه نظرة الضراعة والاسترحام وتبسط إليه يد الرجاء والأمل ، فالتفت إليها وقد هبت من بين أردانه رائحة الكرم وقال لها بصوت قوىّ رنان لا تتخلله رنة الحزن ولا تمازجه نغمة اليأس « كوني مطمئنة ياروكسان فانى سأتولى حمايته » وما علم أنه قد نطق فى نطقه بهذه الكلمة بحكم الموت على نفسه فقالت له شكراً لك يا ابن عمى فسأعتمد على وعدك ما حييت قال اعتمدى ماشئت ، قالت وكن صديقه الوفى الذى يأخذ بيده فى جميع شدائده ومخاطره ، قال بل أصدقَ أصدقائه ، قالت وحُل بينه وبين التعرض لأخطار المبارزات والمشاجرات ، قال إنه لن يبارز قط ، قالت أتقسم لى ؟ قال لا ، لأنى ما تعودت الكذب ، فتلألأ وجهها فرحاً وسروراً وقالت

الآن يمكننى أن أنصرف آمنة مطمئنة شاكرة لك فضلك الذى لاأنساه قط ، ثم تناولت برقعها فألقته على وجهها وهى تقول إنك لم تتمم لى حديث الواقعة التى جُرحتَ فيهـا فحدثنى عنها قليلا ، ياللعجب ! مائة رجل كانوا ضدك ؟ إنك كفء لكل عظيمة ياابن العم ، لاتنس أن تقول له أن يكتب الىّ اليوم كتاباً ، حدثنى حديث الواقعة ياصديقى ، مائة رجل ؟ ياللشجاعة النادرة ؟ إن كرستيان لايعلم أنى أحبه حتى الساعة ، فكن أول من يحمل هذه البشرى ، قل لى كيف استطعتَ أن تلقى وحدك هذا العدد الكثير ، أو قل لى ذلك فيما بعد ، لأنى تأخرت كثيراً ، ولابدلى من الذهاب الآن ، ثم نهضت ومدت إليه يدها فقبلها ، فقالت له إلى اللقاء ياابن العم ، إنى أنتظر من كرستيان كتاباً اليوم ، ثم انصرفت ، فوقف على عتبة الباب يشيعها بنظراته حتى غابت عن عينيه ، ثم عاد يترنح هماوحزنا حتى وصل إلى كرسيه فتهافت عليه وهو يقول : إنها تعجب لشجاعتى فى تلك

المعركة وأنا فى هذه الساعة أشجع منى فى كل موقف وقفته فى حياتى

وكان راجنو قد أحس بخروج روكسان فأطل من باب الحجرة فرأى سيرانو جالساً جلسته تلك فصاح به أيمكننا الرجوع الآن ياسيدى ؟ قال نعم ، فأشار إلى أصدقائه الشعراء فدخلوا جميعاً ودخل فى تلك الساعة نفسها من باب المطعم « كاربون دى كاستل جالو » قائد فرقة الحرس وهو يهدر بصوت كالرعد : قد عرفنا كل شىء ياسيرانو ، وإني أهنئك من صميم قلبى بذلك النجاح العظيم الذى أحرزته ليلة أمس على أعدائك المائة ، فنهض سيرانو متضعضعاً وانحنى بين يدى قائده وقال شكراً لك ياسيدى ، فقال مالى أراك شاحباً مصفراً وما هذه الغبرة السوداء المنتشرة على وجهك ؟ يخيل إلى أنك قد لقيت فى تلك المعركة عناء عظيماً ، قال نعم ياسيدى ، قال إن ورائى

ثلاثين جنديا من أبناء فرقتك قد اجتمعوا فى تلك الحانة المقابلة لهذا المطعم وهم يريدون تهنئتك والاحتفال بانتصارك فاذهب إليهم وقابلهم ، ثم قال لا ، بل لابد أن يأتواهم إليك بأنفسهم ليهنئوك تكرمة لك وإعظاماً لشأنك ، ثم وقف على عتبة باب المطعم وصاح بأعلا صوته : أيها الاصدقاء ! إن البطل لا يستطيع الحضور إليكم لأنه تعب قليلا فاحضروا أنتم إليه ، وما هى إلا هنيهة حتى أقبل الجنود الثلاثون يزلزلون الأرض بخفق نعالهم وصلصلة أسلحتهم ويطمطمون بلغتهم الجاسكونية : ساند يوس ـ ميل ديوس ـ كاب ديوس ـ مورديوس ـ بوكاب ديوس ، ثم دخلوا ففزع راجنو عند رؤيتهم لما هاله من طول قاماتهم وضخامة أجسامهم وقال لهم أكلكم أيها السادة جاسكونيون ؟ فأجابوا جميعاً بصوت واحد : نعم كلنا ، ثم اندفعوا نحو سيرانو يقبلونه ويعانقونه ويهزون يده ويهتفون : ليحي البطل ، لتحى جاسكونيا ، ليحى الجيش ، وهو يتململ فى نفسه ويتبرم ، ولكنه كان

يبتسم فى وجوههم ويستقبل تهانئهم له بالشكر والارتياح، وكان خبر تلك المعركة قد انتشر فى أنحاء باريس جميعها فوفد جمهور عظيم من الناس إلى المطعم يتقدمهم «لبريه» صديق سيرانو وهم يصيحون : ليحى البطل لتحى فرنسا ، ثم دخلوا جميعاً يركضون ويتدافعون ويحطمون كل شىء بين أيديهم وراجنو واقف مكانه يتأمل هذا المنظر الغريب بسرور وارتياح ويقول واطرباه هاهو ذا الفنُّ يتوَّج اليوم فى مطعمى ، حتّى بلغوا مكان سيرانو فداروا به يهنئونه ويقبلونه وكلهم يناديه : أيها الاخ ، أيها الصديق ، أيها الزميل ، فيقول فى نفسه : واعجباً لكم أيها الناس ! لم يكن لى بالأمس بينكم صديق واحد واليوم كلكم أصدقائى ، ووقفت فى تلك الساعة مركبة فخمة أمام باب المطعم ونزل منها ثلاثة من الأشراف فدخلوا الحانوت وظلوا يدفعون الناس أمامهم دفعاً حتى دنوا من سيرانو فوضع أحدهم يده فى يده وشد عليها بقوة وقال له: آه لو كنت تدرى ياصديقى مقدار سرورى بك وبنجاحك ،

فالتفت اليه سيرانو غاضباً وقال له : ماأنا بصديقك ياسيدى ، لانى ماعرفتك قبل اليوم ، وقال له الآخر : إن بعض السيدات ينتظرنك فى مركبتهن أمام الباب ليهنئنك بانتصارك فلو تفضلت بمرافقتى اليهن لاقدمك اليهن ! فقال له : وكيف تسمح لنفسك ياسيدى أن تقدمنى الى غيرك قبل أن تقدم نفسك الى ، وقدم اليه الثالث كأساً من الخمر وقال له اشرب معى ياسيدى نَخْبَ بأسك وشجاعتك ، فالتفت إليه وقال له يخيل إلى سيدى أنك أشجع منى ، لانك قدمت إلى شيئاً قبل أن تعلم مارأيى فيه ، ثم دفع الكاس عنه بقوة فهراقها ، وجاءه أحد مراسلى الصحف وقد أمسك بيمينه قلماً و بيسراه قرطاساً وقال له : قص على حديث واقعتك أيها الفارس البطل لانشره فى جريدتى ، فنظر اليه شزراً وقال له : إننى لم أقاتل من أجلك ياسيدى ولا من أجل جريدتك بل من أجل صديقى لينيير ، فتململ لبريه من خشونته وجفائه وكان جالساً على مقربة منه فجذبه من ثوبه وقال له همساً : ما الذى أصابك

ياسيرانو ! وما هذه الخشونة التى تستقبل بها أصدقاءك الذين يهنئونك ويمجدونك ؟ فقال له : لا تصدق كل ماتراه يالبريه فليس لى فى العالم صديق سواك

وإنهم لكذلك إذ ساد السكون وانقطعت الضوضاء وانفرج الجمهور صفين متقابلين خاشعين مستكينين وإذا الكونت دى جيش القائد الفرنسى العظيم قد أقبل يجرر أذياله ويسدد أنفه الى كبد السماء عظمة وخيلاء ووراءه كثير من الأشراف ورجال الجيش حتى توسط القاعة فوقف ونادى أين سيرانو ؟ فالتفت سيرانو فرآه فدهش وقال فى نفسه : لعله جاء أيضاً لتهنئتى ، ولئن فعل لتكونن أعجوبة الاعاجيب ، ثم أجابه وهو واقف مكانه لا يتحرك ولا يحتفل : هاأنذا ياسيدى ، قال أقدم اليك تهنئتى الخاصة وأبلغك أن جناب القائد العام المارشال « دى جاسيون » قد أمرنى أن أبلغك تهنئته لك وثناءه عليك واعجابه بك واغتباطه بعملك العظيم الذى قمت به ليلة أمس وأضفت به إلى سجل الشجاعة الفرنسية صفحة من أشرف

الصفحات وأمجدها ، ولقد كان فى شك من صحة الخبر لولا أن أقسم له بعض الضباط الذين صحبوك ليلة أمس الى « باب نيل » أنهـم شاهدوا الحادثة بأعينهم ، فرفع سيرانو نظره إلى الكونت بهدوء وسكون وقال له لاشك أن للمارشال قدماً راسخة فى الفنون الحربية وأساليبها ومثله من يقدر أقدار الرجال فبلغه شكرى ، فدهش الناس لجوابه الخشن الجافى وطاش عقل لبريه حتى كاد يتفجر غيظاً وحنقاً إلا أنه تماسك وتجلد وهمس فى أذنه: إن هذا لا يليق بك مطلقاً ، قل له كلمة أجمل من هذه رداً على تحيته واستقبل الصنيعة بمثلها ، فصمت سيرانو هنيهة ثم قال له بصوت خافت: دعنى يالبريه فاننى لا أطيق أن أشكر رجلا جاء لتهنئتى بانتصارى عليه ، فقال له يخيل الى أنك متألم ياصديقى ، فانتفض سيرانو وقال أنا ! لا ، أتظن أنى أتألم أمام أحد مهما برح بى الهم وأمضنى أو أسمح لعدو من أعدائى أن يشمت بى ويرى بعينيه منظر بؤسى وشقائى ؟ انتظر قليلا فسوف ترى ، وكان الكونت

قد جلس على كرسيه المعد له جلسة العظمة والكبرياء فالتفت الى سيرانو وقال له بنغمة الساخر الهازئ : ان تاريخك يامسيو سيرانو حافل بالحوادث والوقائع ، ويخيل الى انى رأيتك فى فرقة هؤلاء الجاسكونيين الشياطين ، أليس كذلك ؟ فصاح الجاسكونيين جميعاً : نعم هو فى فرقتنا ولنا بذلك الفخر العظيم ، فالتفت الكونت اليهم وقلب نظره فى وجوههم وهم وقوف بجانب قائدهم «كاربون دى كاستل جالو» وقال : أكل هؤلاء الذين تلوح عليهم مخائل العظمة الكاذبة جاسكونيون ؟ فهتف كربون بسيرانو وقال له : تفضل أيها البطل الباسل بتقديم فرقى بالنيابة عنى الى حضرة القائد العظيم ، فمشى سيرانو نحو الكونت خطوتين وأخذ يقدم اليه الفرقة بموشح بديع ارتجله فى الحال وضمنه الثناء عليهم والتنويه بفضلهم والاشادة بذكرهم حتى أتمه ، فأعجب الكونت ببداهته وحضور ذهنه ، وقال فى نفسه ان اصطناع شاعر مجيد كهذا الشاعر مفخرة عظمى لمن يصطنعه ، وليس من

الرأى أن يُفلت مثله من أيدينا ، ثم استدناه منه وقال له : أتحب أن تكون لى ياسيرانو ؟ فانتفض وقال لا ياسيدى ولا لأىّ إنسان ، قال ان خالى الكردينال دى ريشلييه كثير الاعجاب بك وبأدبك ويحب أن يراك فان شئت قدمتك اليه ! ولقد قيل لى إنك نظمت منذ عامين رواية تمثيلية جميلة لم توفق الى تمثيلها حتى اليوم ، فلو أنك ذهبت بها اليه ورفعتها له لعرف لك فضلك فيها وأحسن جزاءك عليها كما أحسن من قبلك الى غيرك من الكتاب والشعراء (١) فهمس لبريه فى أذن سيرانو : لقد آن لروايتك « أجريبين » أن تمثل فليهنئك ذلك ، فلم يلتفت اليه سيرانو وقال للكونت بنغمة الساخر المتهكم : أحق ماتقول ياسيدى ؟ قال نعم والرجل كما تعلم أديب بارع راسخ القَدم فى النقد الأدبى ، وسينظر فى روايتك هـذه نظر

(١) مما يذكر من مآثر الكردينال ريشليه أنه منشىء المجمع العلمى الفرنسى « الاكاديميه » وأنه كان أكبر عون فى عصره للأدب والأدباء

الناقد البصير وربما أجرى فيها قلم تهذيبه وتنقيحه فجاءت
آية الآيات فى حسنها وجمالها ، فاكفهر وجه سيرانو
وتفصّد جبينُه عرقاً وقال للكونت : ذلك مستحيل
ياسيدى ، وإن دمى ليجمَد فى عروقى عند ما أتخيل أن
إنساناً فى العالم يحدث نفسه بتغيير حرف واحد من
قصيدة من قصائدى ، وما أنا فى حاجة إلى الاستعانة على
أدبى بأحد من الناس كائناً من كان ، قال ولكنك تعلم أنه
اذا أعجبه بيت من الشعر دفع ثمنه غالياً ، قال نعم أعلم ذلك
ولكنه لايستطيع أن يبذل فيه ثمناً مثل الذى بذلته ،
لأننى انما أسكب فيه دم قلبى حارًّا ، ودم القلب أغلا
قيمة من الفضة والذهب ، قال : إنك أبيُّ النفس ياسيرانو ،
قال نعم وقد كان جديراً بك أن تفهم ذلك من قبل

وهنا دخل رجل يحمل على يديه قبعات كثيرة قذرة
كان قد وجدها فى ميدان المعركة عند باب « نيل » من

آثار الفارين والمنهزمين فألقاها بين يدى سيرانو، وقال له هاهى أسلاب المعركة التى تركتها احتقاراً لها وازدراء بها قد حملتها اليك لا لأنها تستحق عنايتك والتفاتك بل لأنها دليل قاطع على جبن أعدائك ونذالتهم ، فضحك الجمهور طويلا وظلوا يهتفون : قبعات الهاربين ! قبعات الهاربين! وقال سيرانو وهو ينظر خلسة الى وجه الكونت : ليت شعرى من هو ذلك الجبان النذل الذى جرد مثل هذا الجيش السافل ليحارب به شاعراً مسكيناً ! ما أحسبه الآن الا خزيان نادماً يتمنى أن لو انفجرت الأرض تحت قدميه فهوى فى أعماقها أبد الآبدين، فصاح الجمهور من كل ناحية : لاشك فى ذلك، فارتعد الكونت غيظاً واربدّ وجهه وصاح بصوت أجش كهزيم الرعد ماذا تقولون : أنا الذى جرد هذا الجيش السافل كما تقولون لاننى أردت تأديب ذلك الرجل الوقح البذىء، ولا يتولّى تأديب سافل دنىء مثله إلا سفلةٌ أدنياء ، فقهقه

سيرانو ضاحكا وأخذ يجمع القبعات بحد سيفه ثم دفعها تحت قدمى الكونت وقال له : إذن يمكننى ياسيدى أن أكلفك برد هذه القبعات إلى أصدقائك



سيرانو يجمع قبعات اللصوص بسيفه ويدفعها تحت قدمى الكونت

فثار الكونت من مكانه غاضباً ونظر إلى سيرانو نظرة ملتهبة ينبعث الشرر من جوانبها وقال له هل قرأتَ

أيها الرجل « دون كيشوت »[1] قال نعم قرأته وأنا حاسر الرأس اعجاباً بذلك البطل الشريف ، قال أتذكر من قصصه قصة الطواحين الهوائية ؟ فانحنى سيرانو وقال نعم « فى الباب الثالث عشر » قال ما رأيك فيمن يحاول مهاجمة تلك الطواحين أو اعتراض سبيلها ؛ ففطن سيرانو لما أراد وقال ما كنت أظن أن أعدائى طواحين هوائية تذهب مع كل ريح ، قال انها تمد أذرعها الطويلة لتتناول بها من يجسر على مقاومتها وتقذف به فى الهوة العميقة ، قال : أو الكوكب العالى ، فصاح الكونت : مركبتى وخدمى ! فابتدر الاشراف تنفيذَ أمره وظلوا يتراكضون ويتدافعون كأنهم بعض الخدم ، وما هى إلا لحظات حتى حضرت المركبة فخرج الكونت وخرج

(١) رجل خيالى جعله الكاتب الاسبانى الشهير « مجول سرفانتس » بطلا لقصته الخيالية المضحكة المسماة بهذا الاسم التى ألفها سنة ١٦٠٥ وكان معاصراً للشاعر الانكليزى « شكسبير » وباب الطواحين الهوائية أحد أبواب تلك القصة

بخروجه جميع الاشراف والنبلاء ، من حضر منهم معه ومن حضر قبل ذلك ، لايحيون سيرانو ولايدنون منه ولا يرفعون أنظارهم اليه مصانعة للكونت ومداهنة فمشى وراءهم سيرانو يشيعهم إلى الباب وهو يقول لهم : ماذا دهاكم ياأصدقائى ؟ مالكم تعرضون عنى وتفرون منى ؟ مالكم لاتودعون البطل الذى جئتم الساعة لتهنئته وتكريمه ؟ وما زال يشيعهم بامثال هذه الكلمات حتى ركبوا جميعاً مركباتهم وانصرفوا

فعاد إلى مكانه الأول وهتف بلبريه فلباه فاستدناه منه واحتضنه إلى صدره وقال له : ألم أقل لك أيها الصديق إنه ليس لى فى العالم صديق سواك !

« نَفْس الشاعر »

نكّس لبريه رأسه ملياً ثم نظر إلى سيرانو نظرة حزينة مكتئبة وقال له : قل لى أيها الصديق ماذا أعددت لنفسك من الوسائل غداً للخلاص من هذه الهوة العميقة

التى قذفت بنفسك فيها ؟ واسمح لى أن أقول لك إنك قد جننت جنونا لاأدرى كيف يتركونك بعده خارج المارستان ، أليس كل ما تستطيع الذود به عن نفسك فى سلوك هذه الخطة العسراء أن تقول لى كما تقول كل يوم إنك تحب أن تعيش حراً مستقلا فى حياتك لايسيطر عليك أى مسيطر من القيود والتقاليد ؟ فليكن لك ماتريد ، ولكن هل تستطيع أن تنكر أنك مغال متطرف ؟ إننى لاأطلب إليك شيئاً سوى أن تعترف لى بذلك ، فابتسم سيرانو وقال له : إن كان هذا هو كل مايرضيك فانى أعترف لك به فتهلل لبريه فرحاً وقال له آه لقد اعترفتَ أيها الصديق فلزمتك الحجة التى لاقبل لك بدفعها ، قال إننى لاأنكر يالبريه أنى رجل مغال متطرف كما تقول ولكن فى سبيل المبدأ والفكرة ، والتطرف قبيح فى كل شىء إلا فى هذا السبيل ، قال ولكنك فى حاجة إلى شىء من حسن السياسة وسعة الصدر ولين الجانب لتستطيع أن تصل الى

المجد الذى تحبه وتتعشقه ، فاستوى سيرانو فى مكانه جالساً وقد ظللت جبينه سحابةٌ سوداء من الهم واستحالت صورته إلى صورة مريعة مخيفة وقال ماذا تريد منى يا لبريه ! وماهى الخطة التى تحب أن ترسمها لى لأنفذ من طريقها إلى المجد الذى تتحدث عنه وتزعم إننى أتعشقه وأصبو اليه !

أتريد أن أعتمد فى حياتى على غيرى وأن أضع زمام نفسى فى يد عظيم من العظماء أو نبيل من النبلاء يصطنعنى ويجتبينى ويكفينى مؤونة عيشى ويحمل عنى هموم الحياة وأثقالها فيكون مَثلى مثَلَ شجرة « اللبلاب » لاعمل لها فى حياتها سوى أن تلتف بأحد الجذوع تلعق قشرته وتمتص مادة حياته بدلا من أن تعتمد فى حياتها على نفسها؟ ذلك مالا يكون

أتريد أن أحمل نفسى على عاتقى كما يحمل الدلال سلعته وأدور بها فى الاسواق منادياً عليها : من منكم أيها الأغنياء والاثرياء والوزراء والعظماء وأصحاب الجاه والسلطان

يبتاع نفساً بذمتها وضميرها وعواطفها ومشاعرها بلقمة عيش وجرعة ماء ؟

أتريد أن أنصب نفسى سخرية فى الاندية الخاصة والمجتمعات العامة ، ألعب كما يلعب القرد ، وأنطق كما تنطق الببغاء ، وأتلون كما تتلون الحرباء ، رجاء أن أجد التفاتة من عينى أمير ، أو أرى ابتسامة على شفتى وزير ؟

أتريد أن تستحيل قامتى الى قوس من كثرة الانحناء ، وأن تتهدل أجفانى من كثرة الاطراق والاغضاء ، وأن تجتمع فوق ركبتىّ طبقة سميكة من كثرة السجود والجثىّ بين أيدى العظماء ؟

أتريد أن يكون لى لسانان ، لسان كاذب أمدح به ذلك الذى اصطنعنى واجتبانى ، ولسان أعدد به عيوبه وسيئاته ، وأن يكون لى وجهان ، وجه راض عنه لانه يذود عنى ويحمينى ، ووجه ساخط عليه لانه يستعبدنى ويسترقنى ؟

أتريد أن أقضى حياتى كلها واقفاً وسط دائرة واحدة أثب فيها وأطفر وأتطال بعنقى ليتوهم الناس انى طويل وما

أنا بطويل ؟ أو أن أتخذ لى بوقاً ضخماً أنفخ فيه ليتوهم السامعون إني جهورى الصوت وما أنا الا نافخٌ فى بوق ؟

أتريد أن أُسير سفينة شعرى فى العالم بأذرع العظماء والكبراء بدلا من المجاذيف التى أنحتها بفأسى ، وشعور « الدوقات » الفانيات بدلا من الاشرعة التى أنسجها بيدى ، وبتنهدات الاميرات العاشقات بدلا من الرياح الجارية التى يسخرها الله لى ؟

أتريد أن أجعل حياتى الأدبية تحت رحمة المقرظين والناقدين ، والراضين والساخطين ، فان شاؤا رفعونى إلى علياء السماء ، وان شاءوا هوَوا بى الى أعماق الجحيم ؟

ذلك مالا يكون ، والموت أهون على من ذلك

أريد أن أعيش حراً مستقلا لاأخشى أحداً ولا أهاب شيئاً ، لايعنينى تهديد الجرائد التجارية الساقطة ، ولا يفرحنى أن تنشر الصحف الكبيرة اسمى بالاحرف

الضخمة فى أكبر أنهارها، ولا أبالى أتداول الناسُ قصائدى وتدارسوها ورنّت نغماتها فى ارجاء المسارح ، أم بقيتْ فى كِسر خزانتى اقرأها بنفسى لنفسى وأتغنى بها فى ساعات وحشتى وخلوتى

أريد أن أعيش حراً مطلقاً ، أضحك كما أشاء ، وأبكى كما أريد ، وأحتفظ بنظرى سليما ، وصوتى رنانا ، وخطواتى منتظمة ، ورأسى مرتفعاً ، وقولى صريحاً ، أنظم الشعر فى الساعة التى أختارها ، وفى الشأن الذى أريده ، فان أعجبنى ماورد علىّ منه فذاك ، وإلا تركته غير آسف عليه وأخذت فى نظم غيره ، بدلا من أن أتوسل إلى الطابعين أن ينشروه ، والأدباء أن يقرظوه ، والممثلين أن يمثلوه ، والعظماء أن ينوهوا به ويرفعوا من شأنه

أحب أن لاأنظم من الشعر إلا ما يجود به خاطرى ، وأن لاأنظم إلا بالطريقة التى أريدها أنا لا التى يريدها الناس لى ، وأن لاأمتع نظرى إلا بمنظر الازهار التى أغرسها

بيدى فى حديقتى ، فان قدر الله لى منزلة فى الحياة فلن أكون مديناً بها لاحد غيرى ، ولن يكون فخرها عائداً إلا على وحدى ، ولا أسمح لأحد من الناس كائناً من كان أن يرفعنى ، بل لابد لى من أن أرفع نفسى بنفسى

أريد أن أعيش حراً طليقاً أناضل من أشاء ، وأجادل من أشاء ، وأنتقد من أشاء ، وأن أقول كلمتى الخير والشر للأخيار والاشرار فى وجوههم ، لامتملقاً أولئك ، ولا خاشياً هؤلاء

إن العبد المقيد بقيود الأحسان والنعم لايمكن أن يكون حراً طليقاً ، فليعفنى الناس من أياديهم وصنائعهم لانى لاأحب أن أكون عبداً لهم ، ولا أسيراً فى أيديهم

وآخر ماأقول لك إنى أفضل أن أعيش ممقوتاً مرذولا عند الناس على أن أعيش ذليلا مستعبَداً لهم ، ولا أحب أن أرتفع ارتفاع الزيزفون والسرو إذا كانت اليد التى ترفعنى غيرَ يدى ، وحسبى من الرفعة والشرف أن أنال

منهما نصيبي الذى قسم لى قدر ماتسمح به قوتى ومواهبى لا أزيد على ذلك شيئاً

فقال له ابريه عش بنفسك وحيداً كما شئت ، ولكن لاتكن عدواً للجميع

قال ربما أكون مغالياً فى ذلك ، ولكن مادعانى الى المغالاة فى المعاداة إلا مغالاتكم معشر المتكلفين والمتعملين فى المصادقة والموالاة ، وتصنعكم فى اجتذاب الخلان والأصدقاء ، وما بَغض الى التوادّ والتحابّ إلا بغضى لتلك الابتسامات الباردة الثقيلة التى تنفرج عنها شفاهكم كلما قابلتم صديقاً أو عدواً ، شريفاً أو ضيعاً ، كريماً أو لئيما ، حتى أصبحت لاأحب شيئاً فى العالم حبى لبغض الناس إياى ، ولا أكره شيئاً كرهى لحبهم لى وتوددهم إلى

هذا هو عيبى الوحيد الذى لا أعرف لنفسى عيباً سواه ، ولكنه عيب يعجبنى جداً ويلذ لى كثيراً ، وإنك لا تستطيع أن تدرك مقدار ما أجد من اللذة والغبطة

فى نفسى عند ماأسير فى طريق فأراه مملوءاً بنظرات البغض ملتهباً بنيران الحقد وأرى نفسى محاطاً بنطاق محكم من قلوب الساخطين والناقمين

أما الشتائم التى أسمعها واللعنات التى تصوَّب إلىّ فهى أشبه الأشياء عندى بذلك البرد المتساقط الذى يتناثر من الجو على ردائى ثم ينزلق عنه إلى الأرض فأدوسه بقدمى

ان الصداقة الباردة المتفككة التى يسعى وراءها الناس أشبه شىء « بالياقة » الايطالية اللينةالتى تتهدّلُ حول العنق فيتهدّلُ العنق معها ، فهى وان كانت لينة مريحة الا أنها رِخوة مهلهلة ليست لها مُسكةٌ ولا قِوام

أما العداوة فهى الدرع الفولاذية الصلبة التى تدور بالجسم فتحفظ كيانه وقوته وتمنعه عن أن يضعف أو أن يخور ، وكل عدو جديد هو حلقة جديدة فى تلك الدرع القوية المتينة

فقال لبريه : إننى لم أرك فى حياتى راضياً عن البغض مثل اليوم ، وإن نفسى تحدثنى أن كارثةً من الكوارث العظمى قد نزلت بك فأثارت هـذه الخواطر فى نفسك ، فاضطرب سيرانو وخفت صوته وهدأت تلك الزوبعة التى كانت ثائرة فى نفسه وقال : ماذا تقول يالبريه ؟ قال أظن أنك قد عرفت منها عند ماقابلتها أنها لاتحبك ، فأنت ناقم على الحب راض عن البغض ، فنكس رأسه وصمت صمتاً طويلا لايقول فيه شيئاً ففهم لبريه كل شىء

« المعركة النفسية »

وفى هذه اللحظة دخل المطعم البارون كرستيان يختال فى حلته الجميلة ورونقه الشائق البديع ورأى أبناء فرقته مجتمعين فتقدم لتحيتهم فلم يعبأوا به وحاول أن يداخلهم ويتحبب إليهم كما هو شأن أبناء الفرقة الواحدة عنـد مايجتمعون فى مكان واحد فانقبضوا عنه وتسللوا من جواره فلم ير بداً من أن ينتبذ مكاناً قصيـاً ويجلس

فيه وحده ، فلم يقنعهم ذلك منه حتى أرادوا إزعاجه وإقلاقه وكان من شأنهم كما حَدَّثَتْ روكسان عنهم أنهم لايحبون أن يدخل فرقهم غريبٌ عنهم عصبيةً لانفسهم واحتفاظاً بجامعتهم ، والجنوبيون فى فرنسا ينظرون دائماً الى الشماليين بعين البغض والازدراء ويسمون ترفهم ونعومتهم ضعفاً وجبناً ، فمشى أحدهم إلى سيرانو وقال له وهو يغمز كرستيان بعينه : قد كنت وعدتنا ياسيدى منذ هنيهة أن تقص علينا حديث الواقعة التى انتصرت فيها ليلة أمس على أعدائك الشماليين الجبناء فحدثنا ذلك الحديث الآن ليكون درساً تهذيبياً لهذا الفتى الشمالى المتأنث ، وأشار إلى كرستيان ، فانتفض كرستيان غضبا والتفت إلى المتكلم وقال له ماذا تقول ! وكان سيرانو مشتغلا بمحادثة صديقه لبريه وكان يفضى إليه بشأنه مع روكسان فلم يشعر بشىء مما حوله ، فتركه الفتى ومشى إلى كرستيان فوقف أمامه وقال له : عندى نصيحة لك أيها السيد أحب أن أقدمها إليك لتنتفع

بها فى مستقبل حياتك معنا ، فألقى عليه كرستيان نظرة ازدراء واحتقار وأشاح بوجهه عنه ، فقال له الفتى : أترى هذا الرجل ذا الانف الكبير والسحنة المخيفة الجالس هناك ؟ إن ههنا كلمةً لايجوز لاحد النطق بها أمامه مطلقا كما لايجوز النطق بكلمة الحبل فى بيت المشنوق ، وأحب أن لايفوتك العلمُ بها ضنًّا بحياتك ، فعجب كرستيان لامره ورفع رأسه إليه وقال : أى كلمة تريد ؛ قال انظر إلى وجهى تفهم معناها فانى لاأستطيع النطق بها ؟ ثم وضع أصبعه على أنفه وهو يتلفّت ويتحذّر فقال له أتريد كلمة الانْ . . . فقاطعه الفتى وقال صهٍ إياك أن تتممها فيسمعها فيكون فيها هلاكك ، فلم يرفع كرستيان طرفه اليه أنفةً وكبرياءً فتقدم نحوه فتًى آخر وقال له : ولابد لك أن تعلم أيضا أن أحداً من الناس لايحدث نفسه بمناوأة هذا الرجل أو مخاشنته إلا اذا كان من رأيه أن يلاقى حتفه قبل نهاية أجله ، ثم وقف به آخر وقال له احذر الحذر كله من أن تنطق على مسمع منه

بهذه الكلمة أو مايشبهها لاتصريحاً ولا تاميحاولا كتابةولا تعريضاً فقد قتل فى الاسبوع الماضى رجلا أخنفَ لانه ظنه يتخانف هزءًا به وسخرية ، وقتل آخر منذ يومين لانه أخرج منديله من جيبه وأدناه من أنفه

وهكذا ظلوا يتقدمون نحوه واحداً بعد آخر ينذرونه ويتوعدونه ويهمسون فى أذنه بكلمات مختلفة ويشيرون بين يديه باشارات غريبة تهويلا عليه وإرهاباً له وهو صامتٌ ساكنٌ لايرفع طرفه إليهم حتى بَرِمَ بهم فنهض من مكانه بهدوء وسكون ومشى إلى كاربون دى كاستل قائد الفرقة وهو جالس على كرسيه فوقف بين يديه وقال له ماذا يصنع الانسان ياسيدى القائد إذا رمتْ به يد المقادير بين جماعة من الجنوبيين الوقحاء لايزالون يشاكسونه ويناوئونه ويستثيرون غيظه وحفيظته بسفاهتهم ووقاحتهم ؟ فاجابه القائد ببساطة غير محتفل به ولا مكترث : يبرهن لهم على أنه وان كان شماليا فهو شجاع مثلهم ، فانحنى كرستيان بين

يديه وقال سأفعل ما أشرتَ به ياسيدى ، وعاد إلى مكانه الاول

وكان سيرانو قد فرغ من حديثه مع لبريه واعتدل في جلسته فهرع إليه الجنود من كل ناحية وأحاطوا به وقالوا الحديثَ ياسيرانو ، فاتجه إليهم وأنشأ يقص عليهم قصته ويقول

تقدمتُ نحوهم وحدى منفرداً وكان القمر يلمع في قبة السماء لمعان القطعة الفضية في رمال الصحراء ، ثم لم يلبث أن غشيته سحابة دكناء فصار الظلام حالكا مدلهما لايستطيع المرء أن يرى فيه أبعد من ... فقاطعه كرستيان وقال « أنفه » فدهش القوم واصفر وجه سيرانو وتهالك في نفسه ثم صرخ بصوت كهزيم الرعد قائلا : من هذا الرجل ؟ وهمَّ بالهجوم عليه ليفتك به فقال له أحد الجنود : هو رجل شمالى دخل فرقتنا صباح هذا اليوم ، فجمَدَ سيرانو في مكانه ذاهلا ومر بخاطره كلمح البصر حديثُ روكسان فقال صباحَ هذا اليوم ! وما اسمه ؟ قال يزعم أن اسمه البارون كرستيان دى نوفيليت ، فتضعضع سيرانو وتخاذل وشعر أن

نفسه تتسرب من بين جنبيه وقال: آه، إنه هو، ثم استحالت صورته إلى صورة مرعبة مخيفة وظلت أطرافه ترتجف ارتجافاً شديداً فتهافت على كرسيٍّ بجانبه وصمت صمتاً عميقاً لا حس فيه ولا حركة، ثم أخذ يعود إلى نفسه شيئاً فشيئاً حتى هدأ فألقى نظره على الجنود المحيطين به وقال لهم: ماذا كنت أقول لكم؟ آه لقد تذكرت، كنت أقول إن الظلام في تلك الساعة كان حالكا جداً حتى أن المرء لا يستطيع أن ينظر إلى أبعد مما تحت قدميه... وتوقف عن إتمام كلامه لأنه تذكر مقاطعة كرستيان إياه عند وصوله إلى هذه الكلمة فوثب من مكانه وثبة النِّمر الضائع وهجم عليه هجمةً ما كان عند الحاضرين ريبٌ في أنها تحمل في طياتها الموتَ الاحمر وهو يطمطم بلهجته الجاسكونية: مورديوس، ميل ديوس، ولكنه لم يبلغ مكانَه حتى جمد أمامه جمود التمثال فوق قاعدته، وظل يزفر زفيراً متتابعاً ثم تراجع بهدوء وسكون إلى مكانه الاول والقوم يتْبعونه بأنظارهم ويعجبون لامره ويقولون في أنفسهم

ماله يقدم ثم يحجم ! وما الذى يبدو له فيتراجع بعد اندفاعه !
وما هى إلا هنيهة حتى هدأ وسكن وعاد إلى حديثه يقول :
وكنت أعلم أنى مُقْدِم على خطر من أعظم الاخطار وأننى
إنما أحارب فى الحقيقة رجلا عظيم الجاه والسلطان لو شاء
أن يسحقنى بقدمه كما يسحق السائر النملةَ الدارجة فى طريقه
لفعل ، بل لو شاء أن يضعنى بين . . . فقاطعه كرستيان
وقال « منخريه » فاهتزّ سيرانو فى كرسيه يمنة ويسرة
وغلا دمه فى رأسه غليان الماء فى مرجله ولكنه لم
يتوقف بل استمرَّ فى حديثه يقول . . . . بين شدقيه
لما حال بينه وبين ذلك حائلٌ لأنه صهر الكاردينال ،
والكاردينال هو كل شىء فى فرنسا ، ومرت بى ساعة
ضعف كنت أقول فيها لنفسى « وهنا نظر إلى كرستيان
كأنه يخاطبه » إنك قد عرضت نفسك أيها الرجل المسكين
بتهورك وجنونك للهلاك الذى لا بد لك منه ، ووضعتَ
أصبعك بين الشجرة ولحائها ، وليس بكثير على رجل

قاس مستبد كهذا الرجل أن يُرغم ... فقاطعه كرستيان وقال « أنفك » فتصامم سيرانو وكأنه لم يسمع شيئاً وقال . . . ارادتك على مايريد ، ولكننى تجلدت واستمسكت ولم أعبأ بهذه الاعتبارات جميعها وقلت فى نفسى : سرْ أيها الجاسكونىُّ الحرُّ وامض فى سبيلك قُدُماً لا تحفلْ بشىء مما يعترض طريقك وقم بواجبك الذى حملت عبئه وعاهدت نفسك عليه كما يفعل الحر الشريف ، وبينا أنا أفكر فى ذلك إذ لمحتُ شقياً من أولئك الاشقياء يهيئ لى فى هذا الظلام الحالك المدلهم ضربة قوية فما هو إلا أن لمحتها حتى رغتُ منها بأسرع من ضربة السيف فأفسدتها عليه ولكننى لم ألبث أن وجدت نفسى فى الحال وجها لوجه . .. فقاطعه كرستيان وقال « أو أنفاً لانف » فزأر سيرانو زئيراً مخيفاً ووضع يده على مقبض سيفه وصاح « يالصواعق السماء ورجومها » فذعر القوم وأيقنوا بالشر وأتلعوا إليه أعناقهم لينظروا ماذا يفعل ، فلم يفعل شيئاً ، بل استمر

فى حديثه يقول : وجدت نفسى أمام مائة من الغوغاء الساقطين تنمّ ثيابهم البالية وأزياؤهم القبيحة عن حقارتهم وسفالتهم وتتصاعد من أردانهم القذرة روائح كريهة تملأ ... فقاطعه كرستيان وقال « الانف » فانفجرت شفتاه عن مثل ماتنفرج عنه شفتا الليث ولكنه لم يلتفت إليه واستمر يقول .. . تملأ الجو وتزهق النفس فلم أتردد لحظة واحدة فى الهجوم عليهم ففتكت باثنين منهم ثم أتبعتهما بثالث وإذا بأحدهم يصوّب الىّ سهما .. . فقاطعه كرستيان وقال « أنفيا » فلم يستطع على ذلك صبراً وهب من مكانه هبوب العاصفة وصرخ صرخة عظمى : أخرجوا من هنا جميعكم ودعونى مع هذا الرجل وحدى

ففروا من وجهه جميعاً يستبقون الباب ويترا كضون ويهمس كل منهم فى أذن صاحبه : إنها وثبة الاسد مافى ذلك ريب ، وراجنو يقلب كفيه حزنا وأسفاً ويقول : وا أسفا عليك أيها الفتى المسكين ، ماأحسبها إلا لمحة

الطرف حتى أراك قطعاً متناثرة على مائدتى

فلما خلا المكان بسيرانو وصاحبه ظلا يتناظران ساعة في صمت وسكون لا يفوهان بحرف واحد وكرستيان ينتظر وقوع الكارثة ويتأهب لها تأهب الجرىء المقدام ، ثم مالبث أن رأى سيرانو يتقدم نحوه رويداً رويداً حتى وقف أمامه ووضع يده على عاتقه فارتعد كرستيان ارتعاداً خفيفاً ، وبينا هو ينتظر عاصفة من الشر تهب عليه إذ سمعه يناديه بنغمة لطيفة هادئة ويقول له : سيدى كرستيان ! فرفع طرفه إليه فرآه باسما متطلقاً، فعجب لأمره وقال له ماذا تريد ياسيدى ؟ قال أريد أن أعانقك وأقبلك أيها الصديق فتعال إلى ، فظل كرستيان ينظر إليه نظراً حائراً متضعضعاً لا يفهم من أمره شيئا ، فقال له سيرانو : تعال إلى وقبلنى فانى أخوها ، وقد بعثتنى برسالة إليك فاستمعها ، فازدادت حيرة كرستيان ولم يفهم مايريد وقال له أخو من ياسيدى ؟ قال أخو الفتاة

التى تحبها ، قال أى فتاة تريد ؟ قال : روكسان ، قال أأنت أخوها ؟ وظل يقلب نظره فى وجهه كأنه يفتش عن وجه الشبه بين الأخوين فلا يجده ففطن سيرانو لغرضه وقال أخوها تقريبا ، أى ابن عمها ، فتلألأ وجه كرستيان سروراً وقال وهل حدثتك عنى ؟ قال نعم ، قال وهل أخبرتك أنها تحبنى ؟ قال ربما ، فازداد سروره واغتباطه وقال له : ما أجمل هذه البشرى التى جئتنى بها ياسيدى وما أعظم شكرى لك ، فابتسم سيرانو وقال : ما أغرب عواطف النفوس وما أسرع تقلباتها ، فقال اعف عنى ياسيدى فقد أسأت عليك ، قال وما رأيك فى تلك الانفيات التى رميتنى بها منذ هنيهة ؟ قال إنى أستردها جميعها وأجثو تحت قدميك معتذراً عنها معتمداً على كرمك وإحسانك ، قال الآن أستطيع أن أقول لك أنها اعترفت لى بأنها تحبك حبا شديداً وشريفا وتضمر لك فى قلبها من الوجد مثل ماتضمر لها ، وقد كلفتنى أن أقول لك انها تنتظر منك اليوم كتابا ، قال وا أسفاه يا سيدى ذلك ما لا أستطيعه ، قال ولم ؟ قال لانى رجل عاطل من

جميع المواهب والمزايا لاأملك حلية من حُلى الدنيا غير حلية الصمت ، فان عطلت منها هلكت وافتضحت ، قال عجباً لك ألا تستطيع أن تكتب كتاباً ؟ قال لا ، لانى عيّ بليد ، قال إنك مغال جداً وحسبك من الذكاء أنك تعرف مقدار نفسك ، على أن أسلوبك فى مقاطعتى ومغايظتى يدل على أنك لم تُحرم فضيلة الشجاعة والذكاء ، قال استطيع أحياناً أن أكون شجاعاً إذا كان الحديث بينى وبين رجل ، أما المرأة فانى أضعف الناس مُنّة بين يديها ، قال ولكنك جميل ، والجمال قوة يستمد منها اللسان فصاحته وبيانه ، قال لا أنكر أن لنظراتى تأثيراً خاصاً على النساء وأنى مامررت بهن إلا استثرت بجمالى إعجابهن ودهشتهن ولكننى أذوب حياء وخجلا إذا جلست إليهن أو جمع الحديثُ بينى وبينهن ، وربما استطعت فى بعض الاحيان أن أتحدث إليهن فى بعض الشؤون العامة التى

لا يتحامى فيها أحدٌ أحداً حتى إذا وصلنا إلى حديث الحب كان الموتُ الأحمر أهون على من أن أنطق بحرف واحد فيه ، قال إني لأعجب لأمرك جداً يا كرستيان ، ويخيل إليّ أنى لو كان لى مثل حظك فى الجمال لأحسنت الكلام فى الحب ، قال ويخيل لى أنا أيضاً أنى لو كان لى مثل حظك فى الفصاحة لاستطعت الكلام فيه ، قال ليتنى أستطيع إذا جلست إلى النساء أن أستثير بجمالى إعجابهن ودهشتهن ، قال وليتنى أستطيع إذا جلست إليهن أن أسترعى ببيانى أسماعهن

وصمت كرستيان لحظة ثم قال : ولقد حدثونى عنها أنها فتاة ذكية متفوقة تتعشق فى الرجال الذكاءَ والفطنة قبل أن تتعشق فيهم الحسن والجمال ، فماذا يكون شأني معها إذا كتبت إليها كتاباً فقرأته فلم تر بين سطوره إلا عِيًّا وركاكة وضعفاً واضطراباً ، فقال وهو يصعِّد نظره فى وجهه ويصوِّبه ويعجب بجماله ووضاءته

يخيل الى يا كرستيان أنك لو أعرتني جمالك أولو أنى أعرتك لسانى لتألف منا انسان تام المواهب والمزايا ، قال نعم مافى ذلك ريب ، قال ألا تتمنى أن تكون ذلك الانسان ، قال نعم أتمنى أن أكونه ولكن كيف السبيل الى ذلك ، قال ان فى استطاعتى أن أنفخ فيك روح الفصاحة وأنفث فى صدرك سحرها فاذا أنت أجمل الناس وأذكاهم معاً ، قال لا أستطيع أن أتصور ذلك الا اذا زعمت انك من الساحرين ، قال ما فى الامر سحر ولا مَخرقة ، حدثنى عن نفسك اولا ، هل تعجز عن حفظ ما يُلقى اليها من الجمل والكلمات وان لم تفهم معناه ؟ قال لا ، فان ذاكرتى قوية جداً ، ولكنها كذا كرة الببغاء تَنقل ولا تعقل مما تنقل شيئا ، وأظن انى قد فهمت غرضك الآن ، وانى لأعجب أشد العجب من اهتمامك بهذا الامر الاهتمام الشديد ومن الحاحك فى تلمس الوسائل للوصول اليه هذا الالحاح كله كأنه شأن من شؤونك الخاصة التى تعنيك ،

قال سأفضى اليك بسر المسألة فاستمع لما اقول

ان روكسان ابنة عمى وصديقتى ورفيقة صباى وطفولتى وليس لها فى العالم من صديق ولا معين سواى ، ويهمنى جداً أن اراها سعيدة فى حياتها هانئة فى عيشها لا يكدر عليها مكدر من عوادى الدهر ونكبات الايام ، ولا اكتمك انى أخاف عليها الخوفَ كله ان تَحل بها فى هذا الحب الذى اختارته لنفسها نكبةٌ من النكبات العظام ، أو فاجعة من الفواجع الجسام ، تقضى عليها وعلى آمالها ، وما احسبك تتمنى لها الا ما أتمناه أو تضمر لها فى نفسك الا العطف الذى أضمره لها خصوصاً وان الصلة التى بينكما ستتحول طبعاً الى عشرة زوجية طويلة لا يقطع حبلها الا الموت ، لذلك اردتُ أن نتعاقد يداً واحدة على اسعادها وترفيه عيشها وحماية ذلك الحب فى قلبها وحراسته من أن تغشاه غاشية من وساوس اليأس أو خيبة الأمل ، أنت بحسنك وجمالك ، وأنا بفصاحتى وبيانى ، تسمع صوتى ولكن من فمك ، وتحس بروحى ولكن فى جسمك ، وتشرب

عواطفى ولكن من كأسك ، وتطرب لنغماتى ولكن من قيثارتك ، أى أننى أتقمَّص فى جسمك وأتسرب بين حنايا ضلوعك وأكمن فى قرارة نفسك فنستحيل نحن الاثنين الى شخص واحدٍ أو تصبحُ أنت كل شىء وأصبح أنا لاشىء ، وما دامت سعادتها فى الحياة تتوقف على أن ترى بجانبها إنساناً يجمع فى نفسه بين موهبتى الفصاحة والجمال فليتألف منى ومنك ذلك الانسان الذى تريده وتتمناه ، ولا تقل إننا نخدعها بذلك أو نغتشُّها فانالانريد بما نفعل إلا سعادتها وهناءها

هذا هو الغرض الذى أرمى اليه ولا أرمى لغرض سواه ، فارتجف كرستيان وقال إنك تخيفنى جداً ياسيرانو ، ويخيل إلىَّ أن عقلى يحاول الفرار منى دهشة وعجباً ، فانك تقترح على أمراً ماسمعت بمثله فى حياتى ، قال إنك مغال يا كرستيان والمسئلة بسيطة جداً ، ألم تقل لى منذ هنيهة إنك تخاف إن جالستَها أو تحدثتَ إليها أن تملَّك وتجتويك فتموت عواطف الحب فى قلبها ! فما الذى يريبك منى وأنا

لاأريد الا ماتريد ولا أرمى الا الى بقاء عاطفة الحب حية في قلبها نامية، فتتمتع أنت بعطف الفتاة التى تحبها ،وأتمتع أنا بسعادة الصديقة التى أجلها وأحترمها وأحرص على راحتها وهدوئها ، قال وهل تشعر فى نفسك أنك سعيد بذلك ؟ فانتفض سيرانو انتفاضة خفيفة لم يشعر بها كرستيان وقال بصوت خافت : سعيد ! وصمت لحظة ثم قال بصوت متهدج مرتعش . نعم سأكون سعيداً يا كرستيان لأننى شاعر ، والشاعر ممثل بفطرته ، يلذ له دائماً أن يلبس ثوباً غير ثوبه ، ويتراءى فى صورة غير صورته ، فيمثل دور المجنون وهو عاقل، ودور الشجاع وهو جبان، ودور السعيد وهو شقى ، ودور العاشق الولهان ومافى قلبه ذرة واحدة من الحب والغرام ، فاسمح لى أن أمثل دور العاشق الولهان فهو الدور الذى يلذ لى تمثيله أكثر من غيره ، وكن أنت المسرح الذى أمثله عليه وأخطر فى أرجائه جيئة وذهوباً

كن اللسان وأنا الفكر ، كن الجسم وأنا الروح ، كن الجمال وأنا العقل ، كن الزهرة وأنا العطر ، كن العين وأنا

النور المنبعث منها ، كن القلب وأنا حبته الكامنة فيه ،
فلا تكتبْ إليها إلا ما أمليه عليك ، ولا تحدثها إلا بما
ألقنك إياه ، وليكن ذلك سراً بيني وبينك لا تعرفه روكسان
ولا يعرفه أحد من الناس

فهدأ كرستيان وسُرِّي عنه واستقر في نفسه أن الرجل
صادق فيما يقول ، ولكنه لو استطاع أن يفهم الحقيقة كما
يفهمها بقية الناس لادرك أن سيرانو عاشق مثله لتلك الفتاة
التي يحبها وانه لما أخفق في حبه وساء حظه فيه وعجز عن
أن يُفضي الى حبيبته بذات نفسه وسريرة قلبه وجها لوجه أراد
أن يتخذ منه بوقاً يهتف في جوفه بأناته وزفراته لتصل إلى
آذانها فتسمعها من حيث لا تراه ولا تشعر بمكانه لا يرجو
من وراء ذلك غرضاً ولا غاية سوى أن يرفِّه عن نفسه بعض
همومها وآلامها بالمناجاة والشكوى كما يرفه المريض عن
نفسه آلامه وأوجاعه بترديد الانات ، وتصعيد الزفرات

فقال له كرستيان ولكن ما العمل في الكتاب الذى

قلت لى إنها تريد أن أرسله اليها اليوم ؟ فمد سيرانو يده إلى صدره وأخرج تلك الرسالة التى كان يريد أن يقدمها اليها فى الصباح فلم يفعل وأعطاه إياها وقال له ابعث اليها بهذه الرسالة فهى تامة لا ينقصها غير التوقيع ، فدهش كرستيان وعاودته وساوسه وهواجسه وقال له : وهل كتبتها من أجلى ؟ وما الذى دعاك إلى ذلك ؟ قال لم أكتبها من أجلك ولا من أجل أحد من الناس ولكننا معشر الشعراء لا تخلو جيوبنا غالباً من أمثال هذه الرسائل الغرامية الخيالية فاننا وإن كنا محرومين سعادة الحب وهناءه ولكننا نتخيل أحيانا صوراً وهمية لا وجود لها فى الخارج نخاطبها ونناجيها كما يناجى المحب محبوبه لنستطيع إمداد الفن الذى نشتغل به بحقائق الحياة وصورها ، ولقد أودعتُ هذه الرسالة جميع ما يمكن لمحب مفتتن أن يضمره فى نفسه من لواعج الحب وخوالج الغرام ، ولقد كانت أنّاتى وزفراتى قبل اليوم طائرة

هائمة فى أجواز الفضاء لاتجد لها مستقراً ولا مهبطاً ، أما الآن فقد وجدت على يدك المستقر الذى تتطلبه وتسعى إليه ، وتستقرأ روكسان هذه الرسالةَ بعدساعة وسترى أنها الصورة الحقيقية لعواطفك وشعورك لاينقصها شىء حتى روح الاخلاص وجوهره ، قال ألا نحتاج لتغيير شىء فيها؟ قال لا ، قال أخاف أن ترتاب بها ، قال كن على ثقة من أنها ستعتقد حين تقرأُها أنها ما كتبت إلا لها وانها هى التى أوحت بها إلى نفس كاتبها

فتناول كرستيان الرسالة طائراً بها فرِحاً وترامى على عنق سيرانو يقبله ويلثمه ويضمه الى صدره ويقول آه ياصديقى الكريم ، ماأعظم شكرى لك واغتباطى بصحبتك ، وظل على ذلك هنيهة وكان القوم وقوفاً أمام باب المطعم ينتظرون إذن سيرانو لهم بالرجوع وهم يسمعون ضوضاء الحديث بينه وبين صاحبه فيتوهمون أنه الجدالُ العنيف والخصام الشديد

حتى شعروا بذلك السكون الذى ساد بينهما فريعوا وخيل إليهم أنه سكون الموت فدفع راجنو البابَ قليلا وأطل من فجوته فرأى هذا المنظر فذعر وخيل إليه الرعبُ الذى لحقه أنه يرى منظر الموت وان كرستيان صريع بين يدى سيرانو فظل يرتجف ارتجافاً شديداً فهمس القوم فى أذنه ماذا ترى ؟ قال دعونى فانى لاأجرُؤ على النظر وأكاد أموت خوفاً ورعباً ، فدفعوا الباب جميعاً ودخلوا ففهموا الحقيقة التى ما كانوا يتصورونها ولا يقدّرونهـا فى أنفسهم ، ورأوا أن ذلك الصراع الذى كانوا يتوهمونه بين خصمين متباغضين انما هو عناق طويل بين صديقين مخلصين ، فدهشوا دهشة عظمى وظل بعضهم يهمس فى أذن بعض : إنه يعانقه ويلتزمه كأنه أصدق أصدقائه ، وقال « كاربون دى كاستل » أحمد الله تعالى فان شيطاننا قد اهتدى ، وصاح آخر عجباً لك ياسيرانو ! لقد أصبحت مسيحياً تقياً إذا ضربك أحـد على أحـد منخريك أدرتَ

له الآخر ، فلم يغضب سيرانو هذه المرة ولم يكترث بل ابتسم
له وتَطلَّق ، وكان بين الداخلين « الرجل الهائل » صديق « ليز »
فأطمعهُ هذا الموقف فى حلم سيرانو وقال فى نفسه : لقد فقد
الرجل حميّته وانطفأت شعلة حماسته وأظن أنى أستطيع أن
أتكلم عن أنفه الآن باطمئنان ، ثم أشار إلى ليز فاقتربت منه
فقال لها سأريك الآن منظر من أبدع المناظر وأبهجها ،
وأخـذ يدور فى أنحاء القاعة ويتنشق الهواء بصوت
عال كأنما يشعر برائحة غريبة حتى دنا من سيرانو فلمس كتفه
وقال له : ماهذه الرائحة الغريبة ياسيدى ؟ فصمت سيرانو
ولم يقل شيئاً ، فأدنى وجهه من وجهه وأطال النظر إلى
أنفه وقال له : قل لى ماهذه الرائحة الغريبة المنتشرة فى هذا
الجو فانك تستطيع أن تفهمها أكثر منى ، فما أتم كلمته
حتى لطمه سيرانو على وجهه لطمة هائلة رنت فى أرجاء
القاعة وقال: رائحة الذعر أيها الجبان ، فصفق القوم تصفيقاً
شديداً وأغربوا فى الضحك جميعاً حتى « ليز »

الفصل الثالث

« حرفة الأدب »

منزل روكسان منزل جميل أنيق تمتد أمام بابه شرفة عالية بديعـة قائمة على ساريتين ضخمتين تتسلق فوقهما أغصان شجرة ياسمين مغروسة أمام الباب حتى تصل الى الشرفة فتنتشر في أنحائها ، ويقابل هذا المنزل منزلٌ آخر يشبهه في شـكله ورونقه ولا يختلف عنه بشيء سوى أن حلقة بابه ملفّفة بقطعة من نسيج كأنها أصبع مجروحة[1] مضمّدة وبين المنزلين ميدان واسع يتوسطه مقعد مستطيل

---

(١) هو منزل كلومير وهي سيدة من الاشراف كانت تقام في بيتها الحفلات التي تجمع المتأدبين والمتأدبات وتلقى فيها المحاضرات الادبية والخطب العلمية شأن كثير من الشريفات في ذلك العصر . وقد لفت حلقه الباب بذلك النسيج حتى لا يزعج صوتها المجتمعين أثناء سماع المحاضرات

من الرخام جلست عليه وصيفة روكسان وراجنو الشواء يتحدثان ، فمسح راجنو دمعة كانت تترقرق فى عينيه وقال لها : ولقد حزنت كثيراً لفرارها مع ذلك الضابط الخبيث وبكيت ماشاء الله أن أفعل لأنها كانت سلوة حياتى ، ومعينة على أمرى ، وما هى إلا أيام قلائل حتى تكشف الغطاء عن ذلك الافلاس العظيم الذى كان كامناً فى حسابى والذى كنت أستره بجدى وجدها وتراكمت على الديون وعجزت عن الوفاء فلم أر بداً من الانتحار فخلوت فى حانوتى ليلة أمس وألقيت أخية فى عنقى ، وما هو إلا أن صعدت على الكرسى ووضعت قدمى على حافته لأدفعه من تحتى حتى دخل سيرانو فهاله الأمر وتعاظمه وفهم للنظرة الأولى كل شىء فابتدر الحبلَ فقطعه بسيفه وقال ماذا أصابك أيها المسكين ! فنفضت له جملة حالى وأبثثته همى فأشفق على وجذبنى من يدى حتى جاء بى الى هنا وقص على روكسان قصتى وقال لها : إن راجنو صديقنا وصاحب اليد البيضاء علينا وعلى

الأدباء جميعاً شعرائهم وكتابهم ، وهو وان لم يكن من نوابغ الشعراء المجيدين فهو أديب متفنن محسن الى رجال الشعر والأدب ضنين بهم وبكراماتهم ، فلم أحفِل كثيراً بتلك الغمزة التي غمز نيها فى حديثه ، ومازال بها حتى استثار عطفها وشفقتها فبكت رحمة بي واستدنتني اليها واستني ببعض الكلمات الطيبة ثم عهدت الى بهذا الشأن الذى أقوم به فى منزلها كما تعلمين ، فاستعبرت الوصيفة باكية وقالت : لقد كان يخيل الى ياراجنو أنك سعيد الطالع فى أعمالك وأنك تربح كثيراً فما الذى دهاك وجر عليك هذا البلاء ؟ قال : حرفة الادب ياسيدتى ، فقد كنت أحب رجال الشعر وكانت ليز تحب رجال السيف فلم يزل « مارس » يأكل مايشاء ثم يُلقى مايتبقى منه الى « ابولون » [1] حتى نزل بي ماترينَ

فرثت الوصيفة لحاله وظلت تلاطفه وتواسيه حتى هدأ وسكن ثم نهضت من مكانها واتجهت جهة الشرفة

---

(١) مارس إله الحرب وابولون إله الشعر وغيره من الفنون

وظلت تنادى : سيدتى روكسان ! أسرعى فقد دنا ميعاد المحاضرة ، فأجابتها سيدتها من داخل البيت هائنذا آتية فانتظرى قليلا ، فقال لها راجنو : أية محاضرة تريدين ؟ قالت سيحضر الساعة الى منزل « كلومير » وأشارت الى ذلك المنزل المقابل لمنزل سيدتها رجل من العلماء الباحثين اسمه « ألكاندر » ليلقى محاضرة عن الحب وقد دعيت سيدتي لاستماعها وسأذهب معها بالطبع ، فضحك راجنو وقال : ماسمعت قبل اليوم أن الحب فن من الفنون التى تلقى فيها المحاضرات ، قالت وتبتسم : ليس فى الفنون ماهو أحق بالمحاضرات من الحب

وهنا سمعا صوت قيثارة آتية من بعيد فالتفتا وراءهما فاذا سيرانو مقبل ووراءه غلامان صغيران يحمل كل منهما فى يده قيثارة يوقع عليها وهو ينهرهما ويتغيظ عليهما كأنهما طالبان بين يدى مؤدبهما ويقول لهما : قد أمرتكما أيها البليدان أن تثلثا النغمات وأنتما تأبيان الا تثنيتها ، فقال له

راجنو بخٍ بخٍ ياسيرانو ، متى كان عهدك بمعرفة المثالث والمثانى !
قال عهدى بها منذ ذلك اليوم الذى جثوت فيه بين يدى
جاصندى الموسيقى العظيم ، وما أنا الا تلميـذه وخريّج



سيرانو قادم الى منزل روكسان حاملا قيثارته
ووراءه غلامان موسيقيان

مدرسته ، ثم التفت الى أحد الغلامين وانتزع منه قيثارته
واستقبل شرفة روكسان وأخـذ يغنى هذه القطعة

« قد جئت أسلم على ياسمينك ، وأقدم تحياتي لورودك ، وألثم بخضوع وخشوع أوراق زنابقك البيضاء » فسمعت روكسان صوته فخرجت إلى الشرفة فرأته فقالت هائنذا قادمة ياسيرانو ، وكانت قد فرغت من زينتها ولباسها فنزلت لحيته وقالت له : ما هـذا المنظر الغريب ! ومن هذان الغلامان الصغيران ! قال هما ولدان موسيقيان قد ربحتهما اليوم فى رهان ، فضحكت وقالت أى رهان ؟ قال قد جادلت اليوم « داسوسى » فى مسألة نحوية موضوعها الفرق بين لا وبلى واشتد بيننا اللجاج ساعة فاستحمق وأشار إلى هذين الغلامين وكانا واقفين بين يديه وقال لى سأراجع المسألة الآن فى مظانها من الكتب وليكونن هذان الغلامان طوع أمرك ليلة كاملة تذهب بهما حيث تشاء ويغنيانك ما تريد إن كان الفوز لك فيها ، ثم قام إلى خزانة كتبه فراجع المسألة فكان الحق فى جانبى فأخذت

الغلامين وسرت بهما يغنيانني ويأتمران بأمري في كل ما أقترحه عليهما من الضروب والالحان حتى وصلنا إلى هنا ، قالت وهل أنت راض عنهما ؟ قال إنهما يجيدان بعض الاجادة وقد طربت لنغماتهما ساعة ثم سئمتهما ولا أدرى ماذا أصنع بهما الآن ، وأحسب أنى لاأستطيع احتمالهما حتى مطلع الفجر ، وصمت هنيهة ، ثم ابتسم والتفت إليهما وقال لهما أتعرفان منزل مونفلورى الممثل البطين ؟ قالا نعم ، قال اذهبا إليه وقفا تحت نافذة مخدعه الذي ينام فيه وأضربا لحناً طويلا مزعجاً مضطرب النغمات يذهب براحته وسكونه ويملأ صدره غيظاً وحنقا ثم عودا إلى بعد ذلك

فانحنى الغلامان بين يديه وانصرفا ، فالتفت سيرانو إلى روكسان وقال لها : قد جئت أسأل سيدتي كما أسألها كل ليلة ما رأيها في حبيبها كرستيان ؟ ألا تزال تراه إنسانا كاملا خاليا من العيوب والهنات حتى الآن ؟ قالت نعم ما في ذلك ريب فلقد جمع الله له بين فضيلتى الجمال الباهر ، والذكاء

النادر ، وقاما اجتمعا لانسان سواه ، قال أتريْنَ أنه ذكى إلى هذا الحد ؟ قالت نعم ، بل أذكى من كل من عرفت فى حياتى حتى أنت ياسيرانو ، فاغتبط سيرانو فى نفسه اغتباطا عظيما ولكنه تظاهر بالتبرم والاستياء وهز رأسه كالمرتاب وقال ربما ، قالت ولقد بلغ من الذكاء والفطنة تلك المنزلة التى يتكلم فيها المرء بأشياء غريبة مدهشة يظنها السامع لاول وهلة أنها لاشىء ، والحقيقة أنها كل شىء ، ولقد يضعف نور ذكائه أحيانا ويشرد ذهنه حتى يخيل إلىَّ أنه عيّ أو غبيّ ولكنه متى عاد إلى نفسه صاغ بلباقة ومهارة تلك الجوهرَ البديعة التى لم أر مثلها فى حياتى ، قال وهل يحسن الكلام عن القلب ؟ قالت انه لايقنع بالكلام عنه حتى يحلله تحليلا دقيقا ، قال وما رأيك فى كتابته ؟ قالت انه يكتب أحسن مما يتكلم ، وكأنّ أُسلوبه الماء النمير المترقرق على بياض الحصباء ، وما أجمل كلمته التى يقول فيها « خذى من قلبي ما شئتِ فسيبقى لى منه ما يكفينى »

ألا ترى أنه معنى بديع ؟ قال لا بأس به ، قالت واسمع هذه الجملة أيضا وقل لى ما رأيك فيها « إن كان لابد لكِ من أن تحتفظى بقلبى لديك فأعيرينى قلبك بدلا منه فانى فى حاجة إليه لاحتمال ما ألاقيه فى سبيلك من الآلام والاوجاع ، فقال وهو يكاد يطير فى نفسه فرحا : إنه يناقض نفسه بنفسه ، أحيانا يغالى وأحيانا يكون غير وفىّ ، ولا أدرى ماذا يريد بقلبه ، فتململتْ روكسان وقالت : إنك تضايقنى كثيراً ياسيرانو ، وما أحسبك إلا غيوراً ، فانتفض سيرانو وخيل إليه أنها قد ألمت بسريرة نفسه فظل ناظراً إليها ذاهلا لايدرى ماذا يقول حتى قالت له : وكذلك أنتم معشر الشعراء لايطيق أحدكم أن يسمع كلمة ثناء على رفيقه ، فهدأ رُوعه وعلم أين ذهبَتْ فى حديثها ثم قالت له : واسمع هذه الجملة أيضا فهى غاية الغايات فى قوتها ومتانتها « لو كان فى استطاعتى أن أرسم قبلاتى على صفحات قرطاسى لقرأتِ كتابى بشفتيك بدلا من عينيك »

ما رأيكَ في هذه أيضاً ؟ هل تستطيع أن تجد فيها مأخذاً ؟ قال لا أنكر أنها جملة بديعة لولا ركة في بعض أجزائها ، فاربدَّ وجهها غيظاً وقالت له إنك عنيد ياسيرانو فاسمع هذه القطعة أيضاً فهي خير من جميع ما مضى ، فقاطعها وقال لها وهل بلغ بك الاهتمام بأمره أن تستظهري كلماته وتعيها في صدرك ؟ قالت نعم ، قال ما يطمع كاتب من الكتاب في منزلة أعظم من هذه ياسيدتي ، قالت انه نابغة عظيم ما في ذلك ريب ، فاحمر وجهه خجلا كأنما خيل إليه أنها قد ألمّت بسريرة قلبه وأنها إنما تعنيه بكلامها وقال إنك تغالين ياروكسان .

وإنهما لكذلك إذ أقبلت الوصيفة مسرعة وقالت : قد جاء الكونت دي جيش ، فاضطربتْ روكسان وقالت لسيرانو لا أحب أن يراك هذا الرجلُ عندي فأنت صديق كرستيان وأخاف إن رآك هنا أن يدرك سر غرامي فيفجعني فيه ، فادخل المنزل ولا تظهر له حتى ينصرف لشأنه ، قال سأفعل كلما يرضيك ياروكسان ، ودخل المنزل

ودخلت الوصيفة وبقية الخدم وراءه

« دهاء المرأة »

أقبل الكونت دى جيش فرأى روكسان واقفة وحدها فى مكانها فانحنى بين يديها وحياها وقال لها : قد جئتك اليوم ياسيدتى مودعاً وربما كان الوداعَ الاخير ، قالت أمسافر أنت ؟ قال نعم قد صدر الامر إلى الجيش بالسفر إلى « أراس » بعد بضع ساعات لتخليصها من يد العدو ويظهر لى أن نبأ سفرى لم يؤثر عليك أقل تأثير ، قالت لاتظن ذلك ياسيدى الكونت ، قال أما أنا فانى حزين لفراقك حزنا شديداً ولا أدرى ما الله صانعٌ بى بعد اليوم هل كتب لى فى لوح مقاديره أن أراك مرة أخرى أم هو الفراق الدائم الذى لالقاء من بعده ، وأطرق برأسه حزينا مكتئباً ثم قال لها : وهل علمت أن الملك قدعهدالىّ أمس برآسة أركان حرب الجيش ؟ قالت ما كنت

أعلم ذلك من قبل ، وإنه لنجاح باهر ياسيدى الكونت فلله درك ، قال أى أننى أصبحت صاحب السلطان المطلق على الجيش بأجمعه بعد القائد العام ، وفى استطاعتى أن أنتقم لنفسى فى ميدان المعركة من جميع أعدائى وخصومى خصوصاً ذلك الرجل الوقح الجرىء ابن عمك سيرانو وأن أحاسبه حساباً غير يسير على جرائمه وآثامه ، فذعرت روكسان وخفق قلبها خفقاً شديداً لاخوفاً على سيرانو بل على كرستيان لانها فهمت من كلامه أن فرقة شبان الحرس ستسافر مع بقية فرق الجيش ، فقالت له أتذهب فرقة شبان الحرس إلى الحرب ؟ قال نعم كما تسافر جميع الفرق ، فاصفر وجهها وتخاذلت أعضاؤها ومدت يدها إلى المقعدة فاعتمدت عليه وهى تقول بصوت خافت متهافت : آه يا كرستيان ! فعجب الكونت لامرها وسألها ما بالها ؟ قالت ان هذا السفر يحزننى جداً خصوصاً عند ما أتصور أن الشخص الذى يهمنى أكثر من كل انسان فى العالم يخوض تلك

المعامع المهلكة التي يرفرف عليها طائر الموت ، ولا أعلم هل أراه بعد اليوم أم هذا آخر العهد به ، فافتر ثغره وتهلل وجهه بشراً وحبوراً وخيل إليه انها انما تعنيه بكلامها وأنه هو الشخص الذى يشغلها ويعنيها والذى تخشى عليه أن تُلمَّ به تلك الكارثة العظمى ، فقال لها ما كنت أعلم ياروكسان قبل اليوم أنك تضمرين لى فى نفسك هذا الحب كله ، فصمتت لحظة ثم التفتت اليه وقالت : وهل أنت مصمم على الانتقام من سيرانو ؟ قال نعم إلا إذا كنت تكرهين ذلك ، قالت لا ، بل لاأريد غير ذلك ؛ قال هذا ما أعتقده ، ثم قال ألا يزال هذا الرجل يختلف إلى منزلك حتى اليوم ؟ قالت لا ، إنه لايزورني إلا نادراً جدا ، وليته لا يفعل ، ولولا صلة القربى التى بينى وبينه ما أذنته بزيارتى ، قال قد حدثونى عنه أنه منصرف فى هذه الايام إلى مرافقة جندى نبيل من جنود الحرس الطارئين ، ويقولون انه لا يكاد يفارقه ليله ولا نهاره ، قالت ومن هو هذا الجندى النبيل ؟ قال قد

نسيت اسمه الآن، وهو كما وصفوه لي فتى طويل القامة مشرق الوجه أصفر الشعر تلوح على محياه مخائل العز والنعمة وتلمع في صفحة وجهه بارقة خفيفة من الجمال ولكنه عيّ بليد، ولا أفهم حتى الآن ماهي الصلة التي بينهما، فصمتت روكسان صمتاً طويلا ذهبت نفسها فيه كل مذهب، ثم التفتت إليه بغتة وقالت له وهي تبتسم ابتسامة غريبة لا يفهم معناها إلا من فهم سريرة المرأة واضطلع بغرائزها وسجاياها وقالت له أتظن ياسيدي الكونت أنك تكون قد انتقمت لنفسك منه إذا عرّضته لنار الحرب التي يحبها ويعبدها ولا يقترح على دهره شيئاً سوى أن يصطليَ بها ويخوض غمارها؟ هذه هي المرة الاولى التي رأيتك فيها تنظر في أمر من الامور نظر الغَرارة والسذاجة، قال آه لقد فاتني أن أنتبه إلى ذلك فما العمل؟ قالت عاقبه بحرمانه من أمنيته التي يتمناها، فذلك أقتل له من القتل وأنكى له من الموت، فليسافر

الجيش بأجمعه وليتخلف هو وحده بل لتتخلف معه فرقته جميعها ، فانها كما علمتُ مؤلفة من أشرار متمردين يذهبون مذهبه فى أخلاقه وطباعه ويساعدونه فى كل جرائمه وآثامه ، ولتكن حجتك فى ذلك إن شئت ان باريس فى حاجة إلى فرقة من الجيش تتخلف فيها للدفاع عنها وقت الحاجة ، وأنك قد اخترت لها هذه الفرقة للدفاع عنها ، وهكذا عوت الرجل هماً وكمداً وتتمزق أحشاؤه غيظاً وحنقاً ويغرب نجم شهرته غروباً لا طلوع له من بعده ، فيصبح بطل الطرق والشوارع ، لا بطل الحروب والمعامع

فابتهج الكونت ولمت أسارير وجهه ووضع يده على كتفها وقال لها : لله درك ياسيدتى ، لقد صدق من قال : « لا يحسن الانتقام من الرجل مثل المرأة »

ثم حنا عليها وقال لها : إذن أنت تحبينني ياروكسان ، فنظرت إليه نظرة باسمة متلألئة وأطرقت برأسها ولم تقل شيئاً ، ففسرَ ابتسامتها التفسير الذى أراده ، وابتسامة

المرأة لفظ مشترك يحتمل جميع المعانى وضروبها من الحب القاتل إلى البغض العميق ، ثم قال لها : ذلك ما كنت أقدره ياروكسان مذ عرفتك حتى اليوم فلم يخطئ ظنى ، ثم أخرج من جيبه كتباً مغلّفة معنونة بعناوين فرق الجيش فأمرّ نظَرَه عليها إمراراً حتى عثر بكتاب فرقة شبان الحرس ففصله عن بقية الكتب ووضعه فى صدره وهو يقول ماأشد دهاءك ياروكسان وما أوسع حيلتك ! نعم إن مزاج الرجل مزاج حربى متوقد فلا يقتله ولا يفت فى عضده ولا يلصق أنفه بالرَغام غير حرمانه من ميدان الحرب وتركه فى شوارع باريس يتسكع فيها تسكع العاطلين المتبلدين ، ثم نظر إليها باسماً وقال لها : أهذا شأنك دائماً ياروكسان أن تكيدى للناس أمثال هذه المكائد : فابتسمت وقالت لا ، بل لا أفعل ذلك الا عند الضرورة

فأطرق برأسه وصمت صمتاً طويلا وقد أخذت شفتاه تختلجان وترتجفان كأنما تحدثه نفسه بشىء يحاول أن يقوله

لها فلا يستطيعه ثم تشجع وقال : بقيتْ لى كلمة احب أن أقولها لك ياسيدتى فهل تسمحين لى بها ؟ قالت قل ماتشاء فانا مصغية إليك ، قال إنى أحببتك ياروكسان من عهد بعيد كما تعلمين ، وكان كل أملى فى حياتى أن أَعيش بجانبك عيش القانع بك عن جميع مُتع الحياة ولذائذها فحالت بينى وبينك الحوائلُ التى تعلمينها ، وقد كنت أَظن انى سلوتك وغَنيت عنك بغيرك ونفضت يدى أبدَ الدهر منك ثم مالبثت أن علمت أنى واهم فيما ظننت وأن ذلك الداء القديم لايزال كامنا بين أحناء ضلوعي فسمُج فى نظرى وجهُ الحياة ومرّ فى فمى مذاقُها وأصبحت حائراً قلقاً لايهدأ لى روع ولا يستقر بي مضجع ولا أدرى حين أراك وأرى ابتساماتك اللامعة المضيئة ونظراتك العذبة الجميلة هل تضمرين لى فى قلبك من الحب مثل ماأضمر أو أنها المصانعة والمجاملة ومجازاة الود بالود والرجاء بالتأميل ، ومازال هذا الشك يساورنى ليلى ونهارى حتى

رأيت الآن بعيني تلك الرجفة الشديدة التي سرت في أعضائك عند ما أنبأتك نبأ سفري فعلمتُ أنك تحبينني ، وما كشف أسرارَ الحب ولا هتك الستر عن مخابئه ومكامنه مثلُ مواقف الوداع

وها أنذا الآن على وشك السفر ولا أعلم هل هو فراق وشيك أم هو السفر الدائم الذي لا رجعة من بعده ، فأسألك أن تزوديني بقليل من الزاد أستعين به على مشقة السفر ووحشة الطريق ، حتى اذا دنت الساعة الاخيرة تمثلت صورته في ذهني فهانت عليَّ آلام الموت ، فان سمحت به فائذني لي أن أتخلف الليلة عن السفر مع الجيش على أن لا تطلعَ شمس الغد حتى أكون قد امتطيت جوادي ولحقت به في المكان الذي وصل اليه

فارتجفت روكسان وقالت ولكن ماذا يقول الناس اذا رأوا رئيس أركان حرب الجيش قد تخلف عن جيشه وبقي في باريس لغرض من أغراضه الغراميه ؟

قال ذلك مالم يفتنى النظر فيه والحيطة له ، يوجد بالقرب من هذا المكان دَيرٌ فى شارع أورليان أسسه رئيس الكابوشان الاب « أتاناس » وله قانون غريب يقضى بأن لا يطأ أرضه أحد من الناس سوى رهبانه وقساوسته ، وأنا وان لم أكن راهباً ولا قسيساً ولكننى صهر الكردينال ريشيلييه رئيس الكهنوت الأعظم . ولا شك أن الذين يخافونه ويخشون صولته لا يستطيعون أن يرفضوا نزولى بديرهم بضع ساعات ، بل ليس فى استطاعتهم ان أردتُ أن يمتنعوا عن أن يخبئونى تحت قلانسهم أو فى ثنايا طيالسهم أو فى فروج أكمامهم لانها واسعة جداً لا تضيق بمثلى ، وهاأنذا ذاهب الآن الى ذلك الدير المقدس لأكمن فيه بضع ساعات حتى اذا انتصف الليل لبستُ قناعى وجئتك متنكراً فى جنح الظلام فلا يشعر أحد بمقدمى ولا منصرفى

فاستطير عقل روكسان وجن جنونها ودهمها من الامر مالا تعرف وجه الحيلة فيه ولا طريق المخرج منه ،

ثم ما لبثت ان رجعت الى نفسها وملكت زمام عواطفها وقالت له بهدوء وسكون : إن مجدك وعظمتك يامولاى يأبيان عليك ذلك الأباء كله ، ولئن استطعت أن تكاتم الناس أمرك فانك لاتستطيع أن تكاتمه نفسك أو تخادع فيه ضميرك

إن فرنسا تطالبك بطرد العدو عن أرضها واستنقاذها من يده القاهرة المسيطرة ، فليكن هذا هو كل ماتفكر فيه ، ولا يشغلك عنه شاغل من شهوات نفسك ولذائذها ، ولاتسمح لأحد من الناس أن يتحدث عنك ، لا بل لاتسمح لنفسك أن تحاسبك على ليلة قضيتها لاهياً ناعماً فى بيت امرأة تحبها و « أراس » باكية حزينة تضطرب بين يدى قاهرها اضطراب الحمامة الوديعة فى مخالب الصقر الجارح ، وتصرخ صرخات مؤلمات أنت أولى يامولاى من يسمعها ويضطرب شعوره لها

سر ياسيدى على رأس جيشك ، وكن نجمه الذى

يهتدى به فى ظلماته، وملجأه الذى يأوى إليه فى شدته، واعلم أنك لن تستطيع أن تنزل منزلة الحب والكرامة فى نفوس الذين يحبونك الا اذا كانت فرنسا أحب اليك منهم، بل من نفسك التى بين جنبيك

فاستخذى لكلماتها وتضعضع وقال لها: اذن أنتِ تحبينني ياروكسان؟ قالت كيف لاأحبه من صميم فؤادى من خفق قلبى خفقة الحزن والألم جزعاً لفراقه وإشفاقاً على حياته! فصاح واطرباه وافرحتاه، سأنزل على حكمك فى كل ماتريدين وسأسافر الساعة طوعاً لأمرك فاذكرينى دائماً ولا تنسينى، قالت لاأستطيع أن أنساك قط، فتناول يدها وقبلها وانحنى بين يديها وانصرف

وكانت روجينا وصيفة روكسان مختبئة وراء سارية الشرفة تسمع حديثهما وتفهم مغزاه، فما أبعدَ الكونتُ إلا قليلا حتى برزت من مخبئها وهى تُغرب فى الضحك وتقول ماأشد حزنى لحزنكِ ياسيدتى! فضحكتْ روكسان

وقالت لها : كتمى كل شيء عن سيرانو فانه لايغتفر لى أبد الدهر حرمانى اياه من الحرب ، فوارحمتاه له ، ثم هتفت به فخرج من المنزل وهو يقول : ما أكثر الذين يحبونك ياروكسان ! قالت نعم ولكننى لاأحب الا واحداً منهم ، ثم قالت له قد دعيت الليلة الى هـذا المنزل وأشارت الى منزل كلوميير المقابل لمنزلها لسماع المحاضرة التى يلقيها « ألكاندر » عن الحب [1] فائذن لى بالذهاب

(١) كان من شأن الكثير من النساء المتعلمات الشريفات فى فرنسا فى أوائل القرن السابع عشر أن يعقدن فى منازلهن مجالس عامة أدبية تجرى فيها المذاكرات العلمية والفنية و تلقى فيها المحاضرات . وكانت تلك المجالس أو « الصالونات » كما كانوا يسمونها تضم بين حواشيها رجال الفضل والادب ومشاهير الشعراء والكتاب من عظماء فرنسا . وكانت المحادثات التى تدور فيها تغلب عليها صفة التحذلق والتأنق والتظرف وهو أمر طبيعى فى كل مجتمع يجمع بين الرجال والنساء فنشأت مع الايام بين هؤلاء النساء لغة خاصة فى الاحاديث والمكاتبات منشؤها رغبة المتكلمات أو

وابق أنت هنا ، فاذا جاء كرستيان فقل له ينتظرنى حتى أعود ، قال سأفعل ان شاء الله ، ولكنك لم تخبرينى كعادتك فى أى موضوع من مواضيع الحب تحبين أن يتحدث كرستيان الليلةَ اليك ؟ قالت لقد كان حديثنا بالأمس عن

الكاتبات في ايجاد عبارات لبقة ظريفة تلفت النظر الى المعانى التى يردن التعبير عنها أو بعبارة أخري تلفت الرجال الى جمالهن ورقتهن . ثم مازلن يغرقن فى ذلك حتى أصبحت تلك اللغة موضع سخرية الادباء والناقدين خصوصاً عندما جاء دور الانحطاط الاخلاقى وانتشار الفوضى فى الهيئات الاجتماعية وتقليد نساء الطبقات الدنيا نساء الطبقات العليا فى شمائلهن وأساليبهن وزعمهن أن لهن الحق فى الاشراف على الادبيات فى فرنسا ونقدها وتمحيصها . تلك الطائفة من النساء هى التى يصورها أو ينتقدها « إدمون روستان » فى هذه الرواية كما انتقدها من قبله كثيرون من الكتاب والروائيين كموليير وبوالو . ومع أن تلك اللغة قد زالت وانقرضت ومرت عليها القرون فلايزال باقياً منها حتى اليوم بعض آثارها مثل « سميك الذكاء » و « ظلمة النفس » و « قسوة الكلمات » و « الدستور المتواضع » وأمثال ذلك من الكلمات الطائرة فى جو الخيال والسابحة فى بحر اللانهاية

موقف الوداع » فليكن حديثنا الليلة عن « النظرة الاولى »
بل عن « الغيرة » لا بل عن « الأمل الضائع » لا بل
اتركه على سجيته لا تحدد له موضوعاً خاصاً حتى لا يستعد ،
فانى أريد أن أختبر بديهته كما اختبرت رويته من قبل ،
فقل له يحدثنى عن « الحب » وكفى ، ثم حيته وانصرفت
وتبعتها وصيفتها

وكان كرستيان مقبلا فى تلك اللحظة فسمع آخر كلماتها
فقال ماالرأى ياسيرانو ؟ قال عُدْ بنا إلى المنزل لمذاكرة الدرس
الجديد وما هى إلا ساعة أو بعض ساعة حتى نكون قد فرغنا
وعدنا قبل عودتها ، فصمت كرستيان هنيهة ثم رفع رأسه
وقال لا ، لا أريد الليلة دروساً ولا مذاكرة فانى أذوب
شوقاً لرؤيتها ، قال ولكنك لا تعرف كيف تحادثها ،
قال دعنى وشأنى فقد شببتُ عن الطوق وتجاوزتُ تلك
السن التى يعجز فيها المرء عن أن ينطق إلا بما يلقنه إياه

أبواه وأظآره [١]، قال إنك تخاطر بنفسك مخاطرة عظمى، قال فليكن ما أراد الله فقد استحييت من نفسي لكثرة ما مثلتُ من هذا الدور الشائن المعيب دَوْرِ الآلة الموسيقية التي يُوقّع عليها ضاربها فتنبعث منها نغماتها المطربة دون أن تشعر بنفسها وبما ينبعث منها، على أنني قد استفدت من دروسك الماضية ما يسمح لي بمحادثتها ومذاكرتها والافاضة معها في كل شأن من الشئون التي أريدها، وما أنا بغيٍّ إلى الدرجة التي تتصورها فسأكلمها بنفسي وسأشرح لها جميع عواطفي التي تختلج في صدري وما أحسبها تطالبني بأكثر من ذلك، قال وهل أنت على ثقة من نفسك؟ قال كيفما كان الامر فقد تجاوزت الصلةُ التي بيني وبينها حدَّ الذرائع والوسائل الى الحب الخالص المتين الذى تغتفر معه الهفوات، وتستحيل فيه السيئات إلى حسنات، ولئن عجزت عن أن أحدثها بلساني فسأحدثها بلسان القبلات واللثمات

---

(١) جمع ظئر وهى المرضع

وهنا سُمع صوت روكسان وهى خارجة من منزل «كلومير» فى جمع عظيم من النساء ، فقال سيرانو لكرستيان قد فات الأوان فائذن لى بالذهاب ، فَذُعِر كرستيان واستطير عقله وقال بل ابقَ معى ياصديقى ، قال لافقد أصبحتَ غنياً بنفسك عنى ، وتركه وانصرف

ولكنه لم يبعد إلا قليلا حتى عاد متسللا من حيث لايشعر به أحد واختبأ وراء حائط الحديقة يتسمّع حديثهما

« الشُرْفَة »

قالت روكسان لكرستيان وقد جلسا معاً على المقعد الرخامىّ فى وسط الساحة لم أُدْرِك من المحاضرة الغرامية التى أُلقيت فى منزل «كلومير» إلا ختامها ، فلم أستفد منها شيئاً فحدثنى أنت عن الحب وأطلق لنفسك العنان فيه ما شئت ، وها هو الليل قد أظلنا بسكوته وهدوئه وهاهى باريس قد آوت جميعُها إلى مضجعها فتحدَّث فانى

مصغية إليك ، فارتجف كرستيان ارتجاف الطالب الضعيف فى موقف الامتحان ولكنه لم ير له بدًّا من أن يتكلم ، فانثنى إليها وقال لها : أحبك ياروكسان ، وصمت ، فقالت له : وأنا أحبك أيضاً يا كرستيان ، ثم ماذا ؟ فلم يفتح عليه بكلمة أخرى فعاد إلى نغمته الأولى وقال لها : أحبك ياروكسان حبا جما ، وسكت ، فقالت له هذا هو النسيج فَوَشِّهِ وطرِّزْه ، فازداد ارتباكه واضطرابه وقال : آه ما أشدَّ حبّى لك ياروكسان ، قالت ما شككت فى ذلك قَط ولكنى أريد أن تقول لى كيف تحبنى ؟ قال أحبك حباً ما أحبَّهُ أحدٌ من قبلى أحداً ، قالت صوِّر لى عواطفك وشعورك ، قال ليتك تضمرين لى فى قلبك من الحب مثل ما أُضمر لك ، قالت إنك تقدِّم لى من اللبن مَخيضه وأنا لا أريد إلا زُبدته ، قل لى كيف تحبنى ؟ قال أحبك حباً يعجز لسانى عنَ التعبير عنه لانه فوق طاقتى ، قالت ولكنني أريد أن تعبر لى عنه وأن تلمس بيدك أوتار قلبى وتملك علىَّ

عواطفي وشعوري ، قال آه لو استطعتُ أن ألثم جيدك الفضيّ الجميل ، فجزعتْ وانحرفت عنه قليلا وقالت كرستيان ! إنك قد جننت ، قال ما أشوقني إلى لثمة من فيك أبرّدُ بها غليلي ، فنهضتْ قائمة وقالت : إنك تضايقني الليلة كثيراً ياسيدي ! وأرادت الذهاب فأمسك بثوبها وقال عفواً ياروكسان فان ذنبي عظيم ، وما زال يضرع عليها بنظراته المنكسرة حتى هدأت وجلستْ ، فقال لها آه لو تعلمين كم أحبك ، قالت أهذا كل ما عندك ! وأرادت النهوض مرة أخرى ، فأمسك بيدها وقد طار صوابه والتاثَ عليه أمرُه وظل يقول لها ، لا ، لا تغضبي ياروكسان فانني لا أحبك ، فضحكتْ وقالت له : ذلك خيرٌ لي ، فانتبه إلى هفوته وقال : لا تصدقي ماقلت لك فاني أردت أن أقول لك إنني لا أحبك فقط بل أعبدك وأدين بك ، فتململت وقالت : لقد ضاق صدري ، قال أعترف لك بأني قد أصبحت بليداً لا أفهم شيئاً ، قالت ذلك ما يحزنني كثيراً ، فالبلادة عندي

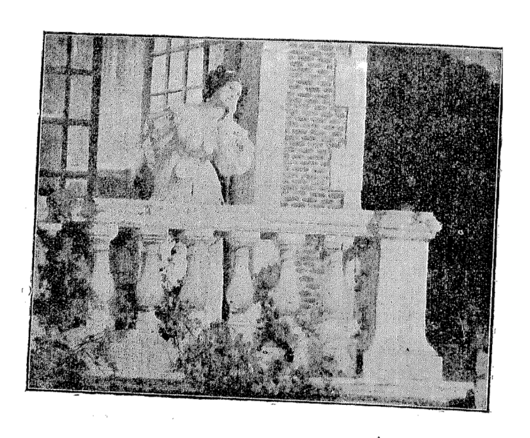
والدمامة سواء ، فاذهب الآن واجمع شتات ذهنك ثم عد إلىّ الليلة الآتية ، ونهضت قائمة فتشبث بها وقال انتظرى قليلا فانى سأقول لك شيئاً جميلا ، إنتظرى ياروكسان فانى أريد أن أقول لك . . . فقاطعته وقالت تريد أن تقول لى إنك تحبنى وتعبدنى وتموت وجدا بى ، فلقد عرفتُ ذلك كله ولا أريد ان اسمع منه شيئاً ، فاذهب لشأنك فقد ضقت بك ذرعا

ثم تركته ودخلت المنزل فجُنَّ جنونه وظلّ واقفاً مكانه يتحرّق ويتغيظ ويقول آه ذلك ما كنت أخافه ، أين أنت ياسيرانو ؟ فما أتم كلمته حتى رأى سيرانو مقبلا عليه يبتسم ابتسامة المتهكم ويقول له : أهنئك بالنجاح العظيم الذى أحرزته يا كرستيان ، فانتفض وقال أنت هنا ؟ ثم ترامى بين ذراعيه وقال الرحمةَ ياصديقى فانى أكاد أموت غماً ، قال وما الحيلة بعد الذى كان ، لقد انقضى كل شىء فلا سبيل إلى الرجوع ، قال إنْ لم ترلى الساعةَ رأياقتلت نفسى ،

إنى لاأستطيع أن أنصرف من هنا وهى واجدة على، فارحمنى واتخذها عندى يداً لاأنساها لك مدى الدهر ، فصمت سيرانو وهو يعالج فى نفسه ألماً ممضاً لاتستشف مكانه من أعماق قلبه غير عين واحدة وهى عين الله تعالى ، ثم قال له هاهو الظلام حالك لايلمع فيه نجم ، وهاهى الطريق مقفرة لايطرقها طارق ، فاستمع لما ألقى عليك ، فاستطير كرستيان فرحا وتناول يده فقبلها وقال آه ياسيدى يخيل إلى أنك قد رأيت لى رأياً ، قال نعم إن ائتمرت بما آمرك به ، قال ماعصيت لك أمراً قبل اليوم ، قال قف هنا أمام الشرفة وسأقف أنا من تحتها على قيد خطوة منك من حيث تراك روكسان ولا ترانى ثم نادها ، فاذا أشرفت عليك فسألقنك همساً مايجب أن تقوله لها

وانهما لكذلك إذ أقبل الغلامان الموسيقيان اللذان كان أرسلهما سيرانو لازعاج مونفلورى فى مرقده فقال

لهما أفعلتما ما أمرتكما به ؟ قالا نعم ، مازلنا نضرب اللحن المضطرب المشوش زمنا طويلا حتى طاش عقله وجن جنونه فأطل من النافذة وظل يشتمنا ويسبنا ويستعدى رجال الشرطة علينا حتى انصرفنا ، قال أحسنتما فارجعا الآن وقفا على رأس هذا الشارع وليكمن كل منكما وراء سارية من سواربه وارقبا الطريق فاذا رأيتما سوداً مقبلا فاضربا لحناً قصيراً ، فقالا له أى نوع من الالحان تريد أن نضرب ؟ قال اضربا لحناً محزناً إن كان القادم رجلا ، ومفرحاً إن كان امرأة ، فعاد الغلامان أدراجهما ووقفا حيث أمرهما ، ودفع سيرانو كرستيان وأقامه أمام الشرفة ووقف هو من تحتها على مقربة منه وقال له نادها واخفض صوتك ما استطعت ، فاتجه كرستيان إلى النافذة ونادى : روكسان ! روكسان ! فما لبثت أن فتحت الباب الموصل إلى الشرفة وخرجت إليها وقالت من ينادينى ؟ قال أنا ، قالت ومن « أنا » ؟ قال كرستيان ، قالت ماذا تريد ؟ قال أريد أن أكلمك ،



روكسان فى شرفتها تقول من ينادينى ؟

قالت ذلك مستحيل لأنك لاتحسن الكلام ، قال أضرع إليك ، قالت إنك لاتحبنى ، ولو كان فى قلبك ذرة واحدة من الحب لأحسنت الكلام فيه ، قال « وسيرانو يلقنه » يالله ! إنها تتهمنى بأنى قد سلوتها فى الساعة التى أتجرع فيها كأس الموت وجداً بها ، وكانت قد همت بالدخول فاستوقفتها هذه الكلمة وقالت وكيف تحبنى ؟ قال قد اتخذ طفلُ الحب من نفسى الجائشة المضطربة أرجوحةً لينة يلهو فيها ويلعب وينمو ويترعرع حتى إذا شبّ وأيفع وبلغ أشدّه عقّها وغدر بها وجازاها شرّ الجزاء على صنيعها وقسا عليها القسوة التى يقسوها الطفل على عصفوره الضعيف المسكين ، فأصغت إليه وشعرت أن فى حديثه روحاً جديدة لم تكن فيه من قبل فقالت له : ولم لم تخنقه فى مهده قبل أن يشب ويترعرع ؟ قال ما كنت أستطيع ذلك لانه وُلد جباراً قوياً متنمّراً حتى انه استطاع وهو لايزال يلعب فى أرجوحته أن يصارع شيطان الكبرياء حتى صرعه وألقاه جثة

هامدة بين يديه ، فاتكأتْ روكسان على حافة شرفتها وقد أطربتها هذه النغمة الجديدة وقالت : ما أشدّ سواد هذا الظلام ، إننى لا أتبين موقفك جيداً يا كرستيان ، ولكننى أشعر أن كلامك ينير لى مكانَك فتكلمْ فانك تطربنى كثيرا ، ولكن مالى أرى نغمة حديثك تصدر عنك متقطعة كأنما قد أُصبتَ بالنّقرس فى مخيلتك ، وكان عهدى بك قبل الآن طلق اللسان متدفقاً كالسيل المنهمر ، فذعر سيرانو وخاف أن ينكشف الامر فجذب كرستيانَ إلى ماتحت الشرفة ووقف هو فى مكانه وانثنى إليه وأسر فى أذنه : قد أصبح الموقف حرجاً جداً فاصمت أنت وسأتكلم أنا عنك بصوت يشبه صوتك ، ثم أنشأ يجيب روكسان على سؤالها مقلداً صوت كرستيان ويقول : ذلك لان كلماتى تتخبط فى هذا الظلام الحالك أثناء صعودها باحثة عن أُذُنك الصغيرة جداً فلايستقيم مسيرُها ،قالت ولم لاتضطرب كلماتى فى هبوطها اضطرابَ كلماتِكَ فى عروجها،

قال لأنها تنحدر إلى قلبي مباشرة ، وقلبي رحب واسع فلا تضل طريقها ، على أن كلماتي صاعدة وكلماتك منحدرة والنزول أسهل من الصعود ، قالت ما أبدع هذا المعنى ! ويخيل إلى الآن ان كلماتك قد انتظم مسيرها فانها تصل إلى أذني بأسرع من ذي قبل ، قال ذلك لانها ألفت هذه الحركة وحذقتها [1] ، فصمتت لحظة ثم دارت بعينيها فى الفضاء وقالت حقيقة انى أتكلم من علو شاهق ، قال اذن فاحترسى ، فان كلمة واحدة قاسية تلقينها على من موقفك هذا كافية لقتلى ، فاستضحكت وقالت لاتخف يا كرستيان فانى آتية إليك لاحدثك وجهاً لوجه ، قال لا تفعلى ، بل ابقى فى مكانك ، قالت لماذا ؟ قال لان هذا الموقف جميل جداً يعجبنى ويطربنى ، فلنتحدث كما نحن كأننا روحان

---

(١) يصور المؤلف فى هذه المحاورة تشدق نساء ذلك العصر وتحذلقهن فى أحاديثهن وحوارهن وتمسكهن بهذا النوع من الكلام المتكلف المتعمل الذى قضت عليه الاساليب الحديثة فيما بعد

هائمتان فى أجواز الفضاء تفتش كل منهما عن صاحبتها فلا تكاد تعثر بها ، دعينا نتحدث كما نحن وبيننا هذا الموج المتلاطم من الدُّجنة الحالكة ، لاترينَ منى إلا سواد معطفى المسبل على ولا أرى منك إلا بياض ثوبك الصيفىّ الجميل ، فأنت تمثلين الكوكب الساطع فى سمائه ، وأنا أمثل الظلام المخيم على سطح الغبراء

ان لهذا الموقف الشعرى الجميل فى هذه الساعة الساكنة من الليل أعظمَ الفضل فى صفاء ذهنى وانتعاش نفسى ويقظة قلبى وانطلاق لسانى من حبسته وجموده ، فكونى كما أنت ، ولأكن كما أنا ، لاتشعرين منى بغير خفقان قلبى ، ولا أشعر منك بغير أشعة جمالك ، أُناجيك كأننى أناجى الله فى علياء سمائه ، وتصغين الى نجائى أصغاء الملائكة الابرار إلى أنّات البائسين وزفراتهم على ظهر الارض

وكان قد غلبه الموقف على أمره واستلهاه حسنهُ



مناجاة سيرانو لروكسان بنغمة كرستيان

وجماله واستغرق شعوره ووجدانه فنسى انه يتكلم بلسان غيره فأطلق لنفسه عنانها وأصبح يحدثها بنغمة غريبة لاهى نغمته ولاهى نغمة كرستيان ، بل نغمة النفس الوالهة المعذبة المتألمة ،فنالت من نفسها منالا عظيما وقالت له إنك تحدثنى الآن يا كرستيان بلهجة غير لهجتك الأولى ، حتى ليخيل إلى أنك قد تبدلت من نفسك نفساً أخرى غيرها ، قال نعم لأن كلامى قبل الآن لم يكن صادراً من أعماق قلبى لأننى إنما كنت أحدثك بلسان . . . وكان يريد أن يقول « كرستيان » فاستدرك هفوته وقال : بلسان الدهشة والحيرة والاضطراب الذى يُلمُّ بكل من يجرُؤ على أن يقف موقفى هذا بين يديك ، أما الآن فنفسى هادئة وجأشى ساكن وروحى مطمئنة حتى ليخيل إلىَّ أننى أناجيكِ المرة الأولى فى حياتى ، قالت صدقت ويخيل إلىَّ أنا أيضاً أنك تتكلم بصوت غير صوتك الاول ، قال نعم لاننى

استطعت فى هذا السكون السائد والظلام الحالك
يحجبنى عن العيون أن أكون أنا نفسى وأن أناجي
طريقى لامن طريق . . . وأراد أن يقول « غيرى »
بهفوته وحاول أن يصلحها فلم يستطع فتلعثم و
فقالت له طريق مَنْ ؟ قال عفواً ياروكسان إن شـ
واضطرب جنانى بين يديك فقد سحرنى وملك علي
هذا الموقف الجديد الذى لم أقفه مرة فى حياتى ، ف
لامره وقالت : جديد ؟ قال نعم جديد ، لانه أول
استطعت فيه أن أكون صريحاً فى كلامى ، حراً فى
جريئاً فى حديثى ، أُطلق العنان لنفسى فتهيم
حيث تشاء ، لايحول بينها وبين الغاية التى تريد
قالت وهل لم يكن ذلك شأنك من قبل ؟ قال
خوفى من هزئك بى وسخريتك كان يزعجنى جد
قلبى رعباً وخوفاً ، فدهشت وقالت : سخريتى
قال تسخرين من تطرفى واندفاعى وتبسطى فى

بمكنونات نفسى ، فقد كان قلبى دائماً متسر بلا بسربال عقلى والعقلُ سربال ضاغط لا يطيقه القلب ، وكنت كلما هممت أن أترك السبيل لعواطفى أن تفيض وتنساب حيث تشاء أدركنى الحياء والخجل فتلوّمتُ واحتشمت ووقفت دون الغاية التى أريدها ، ولا ألبث أن أتطلع إلى الكوكب النائى فى سمائه وأخطو الخطوات الاولى اليه لتناوله واستنزاله من فُلكه حتى أشعر بالخجل من نفسى فأعود أدراجى قانعاً من حظى بزهرة صغيرة أَجدها فى طريقى من زهرات حديقة السماء فأقتطفها ، قالت ان الزهرة جميلة أحياناً ، قال ولكننى لا أريدها الليلة ولا أقنع بها، قالت إنك ما كلمتنى قط يا كرستيان بمثل هذه اللهجة البسيطة التى تكلمنى بها الآن ، قال نعم ، وليتنا نستطيع دائماً أن نحتقر فى مواقف الحب توافه الاشياء وحثالاتها وأن نترك التأنُّقَ والتجمل فى صِلاتنا وعلائقنا ونطلق العنان لانفسنا لتعبر عن مشاعرها وعواطفها بالصورة التى تريدها بدلا من أن نقيدها بتلك القيود الثقيلة

التى نحبسها فى محبس ضيق لا سبيل لها إلى التفلت منه

فلنطَّرحْ بعيداً عنا هذه الكاس الذهبية الصغيرة التى نتعاطى بها شرابنا قطرة قطرة فلا نكاد نشعر بلذة ما نتعاطاه، ولنندفع معاً إلى ذلك الغدير المترع المتدفق فنجثو على ضفته ونكْرَعُ من مائه العذب حتى نرتوى

« البلاغة »

قالت ولكننى أحب البلاغة يا كرستيان، قال إنى أُجل هذا الليل الساكن الهادئ وهذا الموقف الجليل المهيب وهذه النفحات العطرية المترقرقة وهذه القبة الجوفاء المرصعة بمصابيحها اللامعة أن أُهينها بهذا الشىء الذى يسمونه البلاغة، أو أن يكون حديثى معك بتلك اللغة التى يتفكه بها العشاق الكاذبون فى رسائلهم الغرامية، فلنتحدث بما توحيه إلينا ضمائرنا، لا بما توحيه إلينا دواوين الشعراء ورسائل الكتاب، ولنهدم تلك الحواجز المادية القائمة

بين نفسينا حتى تتلامسا وتماسّا وتستحيلا إلى نفس واحدة ، فانني أخشى إن نحن ظللنا نشتغل زمناً طويلا بهذه التجارب الكيمائية أن تتبخر عواطفنا وتتلاشى فى أجواز الفضاء ، وان يكون فيما نظنه كل شىء القضاءُ على كل شىء

قالت ولكن البلاغة جميلا جداً ، قال وأنا أكرها فى الحب ، وأرى أن من أكبر الجرائم وأفظعها أن نشتغل عن أنفسنا ومطارح آمالنا ومسارح عواطفنا بادارة هذه المعركة اللفظية التى لاطائل تحتها ، وان تكون تلك المحاولات التى لافائدة منها هى غاية مقصدنا من الحب ومنتهى أملنا منه والثمرة الأخيرة التى نجنيها من حياتنا

إننا ما اجتمعنا هنا لنرى كيف نتحدث ، بل لنتحدث ونتناجى ، وما وقفنا هذا الموقف الجليل المهيب بين أحضان هذه الطبيعة الحلوة العذبة لنشتغل بتهذيب اللغة وابتكار الاساليب واختراع المعاني ، ولا ليقول كل منا لصاحبه

ما أبلغك ، وما أسمى خيــالك ، وما أبدع تصوراتك وأفكارك ، ولا لنتدارس البلاغةَ وأصولها وقوانينها ، ولا لنتحدّى الشعراء والكتاب فى أساليبهم ومناهجهم ، بل ليسكبَ كلٌّ منا نفسَه فى نفس صاحبه فاذا هما نفس واحدة تشعران بشعور واحد ، وتحسّان إحساساً واحداً ، حتى لو استطعنا أن نصل الى هذه الغاية ونحن سكوتٌ لا نتكلم ولا ننبس بحرف واحد فعلنا

هذه هى البلاغة وهذه هى حقيقتها ، أما الاغراقُ فى التخيل والمبالغةُ فى الوصف وخلقُ الصور والاساليب التى لاوجود لها فى الخارج ولا أساس لها فى الذهن وابتكارُ المعانى الغريبة التى تنبعث شرارتها من شعلة الذكاء ولا تتفجر من ينبوع القلب فهى وان كانت جميلةً محبوبة تستلهى الخاطرَ وتستوقف الناظرَ ولكنها ليست من البلاغة فى شىء

نريد أن نترك السبيل لنفسينا أن تتحادثا وتتناجيا

كما شاءتا وأن لا ننغص عليهما نجواهما وسمرهما بهذه ضوضاء اللفظية التى نثيرها من حولهما

نريد أن نفارق هذا العالم المملوء بالأكاذيب والاباطيل، والصور والتهاويل ، إلى أفق طاهر نقىّ ، صاف مترقرق ، نتكاشف فيه ونتراآى ، ويتحدث كل منا إلى صاحبه بلغة تشبه فى جمالها وحسنها ، وبساطتها وطهارتها ، ورقتها وعذوبتها ، ذلك الافق الجميل الذى نسبح فيه ونطير فى أجوائه ، فيكون مثلنا مثل الكوكبين الهائمين فى أجواز الفضاء يتحادثان بلسان الضوء ويتناجيان بلغة الأثير

قالت وماذا تقول لى لو أردت أن تحدثنى بتلك اللغة ؟

قال أُلقى إليك بكل ما يخطر ببالى من الكلمات مبعثراً غير منتظم ولا مرتب ، كما تتناثر أوراق الزهر عن أغصانها فأقول لك مثلا :

أُحبك ياروكسان حب العابد معبوده ، لا أستطيع أن أصبر عنك لحظة واحدة ، أصبحت على وشك الجنون

بك وربما أكون قد جننت من حيث لاأدرى ، كأنّ قلبي معبد وكأن اسمك ناقوسه فاذا وقع نظرى عليك ارتعدتُ وارتجفت فرنّ اسمك فى قلبي رنين الناقوس فى المعبد ،قد احتملتُ فيك فوق مايستطيع أن يحتمله بشر فما شكوتُ ولا تألمت ، أحببت فيك كل شيء وأحببت من أجلك كل شيء ، أحببت فيك حتى كبرياءك ، وأحببت من أجلك حتى شقائى ، يُخيَّلُ إلىَّ أن الشمس على جدار قصرك أجمل منها على جدران القصور الأخرى ، وأن الروض الذى تخطرين فيه أبدع رياض الدنيا والآخرة ، لاأستطيع أن أنساك أو أنسى حالة من حالاتك أو حركة من حركاتك مهما طال عليها الزمن ، رأيتك صباح الأحد الماضى وأنت خارجة من بيتك وقد غيرت نظام شعرك الذى أعرفه لك فأصبح لامعاً متألقاً يدور بوجهك دورة الهالة بالقمر فبهرنى هذا المنظر وارتسم فى شبكة عينى فأصبحت أراه فى كل ما يقع عليه نظرى من المنظورات كما يرى الناظرُ

إلى ضوء الشمس هالةً بيضاء فى كل مايتناوله بصرُه من الأشياء ، وسمعتك منذ أيام تضحكين فما غرد طائر على فنن ولا رنت قطرات الغيث على صفحات الماء ولا مرت النسائم بين خمائل الأشياء الا خيل إلى أننى أسمع رنين تلك الضحكة فى كل ماأسمع من هذه الألحان

وهنا اضطربت روكسان واشتد خفوق قلبها وقالت بصوت خافت متهدج « نعم هذا هو الحب »

قال نعم هو الحب الذى غالب قلبى حتى غلبه واتخذه أسيراً عنده ، وهو حب شرس غيور يتوقد حِدّةً وحرارة ، وإنه على ذلك متواضع بسيط خال من الأثرة وحب النفس

إننى لاأستطيع أن أخلص لنفسى ياروكسان كما أخلص لك ، اننى فى سبيل هنائك أجود بهنائى كله وان لم تشعرى بذلك ، حسبى من الدنيا أن أسمع من بعيد رنين ضحكاتك فأعلم أنك سعيدةٌ مغتبطة وان ماضحيت به لك من

سعادتى وهنائى كان هو السبب فى هناء عيشك وراحة نفسك ، كل نظرة من نظراتك تثير فى فضيلة جديدة كانت كامنة بين أطواء قلبي لاأهتدى الى مكانها وتبث فى نفسى خاق الشجاعة والاقدام ، مم أخاف إن كنت راضية عنى ، وبم أغتبط إن كنت ساخطة على ، وهل الدنيا شىء سواك فى إقبالها وإدبارها ؟

قالت ماأعذب كلامك يا كرستيان : إن قلبى يخفق لها خفقاناً شديداً

قال أرأيت الآن كيف أن الكلمات الصادرة من القلب بلا تكلف ولا تصنع لايستطيع حائل أن يحول بينها وبين قلب سامعها ، ألا تلمسين بيدك نفسى الحزينة وهى صاعدة اليك فى هذا الظلام الحالك ، ألا تسمعين خفقان قلبى وهو يرنّ فى جوف هذا الليل البهيم ، آه ماأحلى هذه الساعة وما أجملها ، إنها الساعة الوحيدة التى ذقت فيها حلاوة السمر والمناجاة ، ما كنت أصدق أن أقف يوماً من الأيام هذا

الموقف العظيم بين يديك ، أتكلم وتسمعين ، وأبثك ما فى نفسى وتنصتين ، لم يبق لى من أرب فى الحياة بعد اليوم فليأت الموت إلى فقد بلغت جميع أمانى وأمالى ، هاهى يدك ترتجف الآن من تأثير كلماتى كما ترتجف الورقة الخضراء بين النسمات المتناوحة ، ولقد نمّ عليك غصن الياسمين الذى تمسكين فقد مشت فيه تلك الرجفة حتى وصلت إلى يدى ، ثم انحنى على طرف الغصن الذى فى يده فلثمه فى صمت وسكون

فقالت روكسان : نعم انى أرتجف وأبكى ، وما بلغ امرؤ منى فى حياته ما بلغت منى ، ولقد سحرني حديثك وملك عليَّ لبي حتى أصبحت أشعر أنى قد أصبحت ملك يدك وأن لاشأن لى فى أمر نفسى

قال فليأت الموت إلى إذاً فقد بلغت من حياتى ماكنت أرجو وأتمنى ، وليهننى أنى أنا الذى قدمت اليك بيدى تلك الكأس التى أسكرتك وأخذت بلبك فلم يبق لى مما أتمناه غير شيء واحد ، قالت ماهو ؟

وهنا نطق كرستيان وهو فى مكانة تحت الشرفة بعد هذا الصمت الطويل وقال « قبلة » فذعر سيرانو وقال له بصوت خافت : لقد تسرعت فى الطلب ، قال لا ، انها الآن ذاهلة مسحورة فلا أنتهز هذه الفرصة التى لاتواتينى فى كل حين ، فقالت روكسان ماذا قلت ؟ فقال كرستيان « أريد قبلة » فوكزه سيرانو برجله وقال اسكت يا كرستيان : فسمعت روكسان كلمته فقالت له مع من تتحدث ؟ وهل كرستيان شخص سواك ؟ قال أتحدث مع نفسى ، فقد ندمت على تطرفى واندفاعى فى هذا المقترح الذى اقترحته وقلت لنفسى اسكت يا كرستيان فحسبك منها أنها أصغت إليك وسمعت صوت قلبك وأذرفت من أجلك دمعة من دموعها الغالية فلا تطمع فيما وراء ذلك

وهنا رن صوت قيثارتى الغلامين من بعد فقال سيرانو ادخلى الآن يا روكسان فانى أسمع صوت قادم ثم عودى إلى بعد قليل ، فدخلت روكسان غرفتها وأقفلت باب نافذتها وأصغى

سيرانو إلى الصوت فسمع فى آن واحد لحنين مختلفين ، لحنا مفرحا وآخر محزنا ، فقال : يا للعجب ! إن القادم ليس برجل ولا امرأة ، فلابد أن يكون قسيساً ، وما أتم كلمته حتى أقبل قسيس شيخ وبيده مصباح ضئيل وجعل يمر بأبواب المنازل باباً باباً ويدنى مصباحه منها ليتبينها كأنه يفتش عن منزل يقصده ، فتقدم نحو سيرانو وقال له إنك تعيد لنا أيها الشيخ عهد ديوجين [1] فهل تفتش عن الرجل؟ قال لا بل عن المرأة ، إنى أفتش عن منزل السيدة مادلين روبان الشهيرة بروكسان ، فانبرى له كرستيان وهو يقول فى نفسه إن الرجل يضايقنا فى مثل هذه الساعة ولما ننته من أمر القبلة ، وأمسك بيده وأشار له إلى جهة بعيدة وقال له : هناك أيها الشيخ هناك ، فسر أمامك لا تعطف يمنة ولا يسرة حتى تجد المنزل الذى تريده ، فشكر

---

(١) هو الفيلسوف اليونانى المشهور وكان يحمل فى يده مصباحا ليله ونهاره فسأله بعض الناس مرة عم يفتش فقال افتش عن الرجل

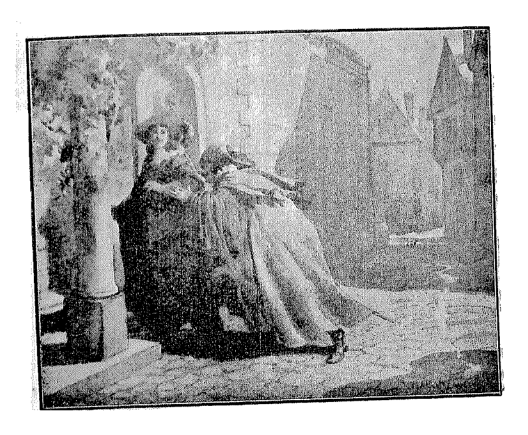
له الشيخ فضله وعاد أدراجه ، فقال كرستيان لسيرانو
لاأستطيع أن أبرح هذا المكان حتى أنال القبلة التى أريدها
قال لاتعجل ياصديق فستوافيكما سريعاً تلك اللحظة
السحرية العجيبة لحظة الذهول والاستغراق التى تشملان فيها
بخمرة الحب وتذهلان فيها عن نفسيكما ، فاذا شفتا كماذاهبتان
وحدهما كل منهما إلى صاحبتها حتى تتلامسا ، وصمت لحظة
ثم قال فى نفسه مادامت تلك اللحظة آتية لاريب فيها فخير
لى أن أكون صاحب الفضل فيها ، ثم قال له نادها يا كرستيان
فستنال منها القبلة التى تريدها ، فناداها ففتحت النافذة
وخرجت إلى الشرفة وهى تقول أباق أنت يا كرستيان
حتى الآن ؟ فقال سيرانو لقد جاء الساعة هنا كاهن شيخ
يسأل عن منزلك فلم تعجبنى زيارته فى مثل هذا الوقت فاضللته
عن الطريق ، وأظن أن فى يده كتاباً ، فذعرت روكسان
واضطربت مخافة أن يكون الكونت دى جيش قد أخلف
وعده وتخلف عن السفر واختبأ فى الدير وأن يكون

هذا الكاهن رسوله ، ولكنها مالبثت أن سرت عن نفسها وأنساها موقف الغرام كل شيء عداه وقالت أظن أننا كنا نتكلم عن . . . وتلعثم لسانها فقال سيرانو عن القبلة . ومالك لاتجسرين على النطق بها كأنها تحرق شفتيك ، فاذا كان هذا شأنك مع لفظها ، فكيف يكون شأنك مع معناها ، تجلدي ياروكسان ولاتجزعي فلقد تحولت منذهنيهة من الدعابة إلى الاضطراب ومنه الى الخفقان ومنه إلى التنهد ومنه إلى البكاء ، وليس بين الدموع والقبلة إلا رجفة

« القبلة »

فارتعدت روكسان وقالت لاأمنحك إياها حتى تصفها لي .

قال هي الميثاق الذي يعطى عن قرب ، والوعد الصادق الذي لاريبة فيه ، والاعتراف بالحقيقة الواقعة ، والنقطة المرقومة تحت باء الحب ، والسر العميق الذي يصل إلى القلب من طريق الفم ، واللحظة الابدية التي يقصر زمنها



سيرانو يدفع كرستيان الى الشرفة ليتناول القبلة

وتدوم حلاوتها ، واتفاق الخاطرين على معنى واحـد ، والطريق المختصر لاستنشاق رائحة القلب ، وتذوّقُ طعم النفس على الشفاه ، لها دوى النحل فى صوتها ، ومذاق العسل فى حلاوتها ، وعبير الازهار فى رائحتها

فاضطربت روكسان وقالت حسبك يا كرستيان ، فقال إن القبلة شريفة ياسيدتى حتى أن ملكة فرنسا لم تبخل بهـا على نبيل من نبلاء الانكليز ، وكلاهما شريف وعظيم ، قالت اسكت ولا تزد ، قال أنت الملكة التى أعبدها وأدين لها أكثر مما دانت فرنسا لملكتها ، وأنا اللورد بوكانجهام فى صدقه واخلاصه وألمه وحزنه ، قالت وفى جماله أيضاً ، فانتفض سيرانو وشعر بوخزة الألم فى قلبه وقال : نعم وفى جماله ، ولقد كنت لذلك ناسياً ، فقالت له اصعد أيها السعيد المجدود لاقتطاف تلك الزهرة التى لا نظير لها ، فأخذ سيرانو بيد كرستيان وقال له بصوت خافت

إصعد وتناول القبلة التى تريدها ، فجبن وتلكأ وقال ما أشد خجلى وحيائى ، قال اصعد أيها الحيوان وتناول القبلة التي لا يستحقها منك غير شفتيك الورديتين ، ثم دفعه بيده فتسلق أغصان الياسمين حتى بلغ مكان روكسان على الشرفة فالقت رأسها الجميل على عاتقه فاحتضنها إليه ورسم على شفتيها تلك القبلة التى لهادوى النحل فى صوتها ، ومذاق العسل فى حلاوتها ، وعبير الازهار فى رائحتها ، وسيرانو واضع يده على قلبه يتلوى فى مكانه تلوىَ الملسوع ويتأوه آهات خفيات مضمرات ، ولكنه ما لبث أن ارعوى وتجمّل ولجأ إلى سلوته التى اعتاد أن يلجأ اليها كلما عظمت آلامه وهمومه وأخذ يعزى نفسه ويقول

يا مأدُبة الحب العظيمة التى أنا صاحبها ومحييها ! هنيئاً للذين يذوقون طعامك ، ويتناولون ثمارك ، ويرتشفون كؤوسك ، أما أنا فحسبي منك هذا الفُتات الذى يتناثر علىّ من مائدتك ، فان روكسان لاتقبل شفتى كرستيان ،

بل تقبل عليهما كلماتي التي ألقيتُها في أذنها وسَحرتُها بها

وهنا رَن صوت قيثارتي الغلامين بلحنين مختلفين ، لحنٍ مفرح وآخر محزنٍ فسألتْ روكسان ما هذا ؟ فقال لها كرستيان لعله سيرانو يتمشى في الطريق مع غلاميه الموسيقيين ، فانفتل سيرانو من تحت الشرفة إلى موقف الغلامين فحدثهما قليلا ثم أشار اليهما بالانصراف ومشى يترنح في مشيته كأنه شارب ثمل ويتغنى ببعض الألحان كأنه قادمٌ الساعةَ فما وقع نظره على كرستيان حتى تظاهر بالدهشة وقال له : أباق أنت هنا يا كرستيان حتى الآن ؟ قال له بصوت عال تسمعه روكسان ، نعم أحدث روكسانَ وتحدثني ، والى أين أنت ذاهب ؟ قال لقد مللت هذين الغلامين وسئمت ألحانهما وتعبت من طول المسير فعزمت على الرواح إلى المنزل ، فأشرفتْ عليه روكسان عند ما سمعت صوته وقالت له انتظرني يا سيرانو فاني قادمة إليك ، وأقفلت باب الشرفة ، وفي هذه اللحظة أقبل الكاهن بمصباحه وهو

يحدث نفسه ويقول : ما زلت على رأيى الأول فان المنزل هنا فى هذا الميدان

وهنا ظهرت روكسان على عتبة بابها يتبعها كرستيان وراجنو فلما رأت الكاهنَ ذعرت واضطربت فتقدم نحوها وحياها ومدَّ يده اليها بكتاب فقالت له ما هذا ؟ قال كتاب بعثنى به إليك السيد الصالح التقى الكونت دى جيش صهر سيدنا ومولانا صاحب القداسة الكردينال دى ريشلييه من دير القديس « أتاناس » ولا بد أن يكون مشتملا على غرض من الاغراض الشريفة المقدسة أو مكرمة من المكارم العليا فاقرئيه ، فتناولتْه وقرأت فيه على مصباح راجنو وهى صامتة هذه الكلمات :

سيدتى

الطبول تدق ، وقد أعَد الجيش عُدته للرحيل ، والجميع يظنون أنى فى مقدمته ، ولكننى تخلفت وعصيت أمرك لأننى لم أستطع السفر دون أن أتزود منك بذلك

الزاد القليل الذى سألتك إياه ، فاغتفر لى ذنبى فانى ما أذنبت إلا فى سبيلك ، وهائنذا قادم اليك بعد قليل فهدى لى سبيل زيارتك ، إن ثغرك قد ابتسم لى اليوم ابتساماً جميلا ، ولا أحب أن أفارقك قبل أن أراه مرة أخرى يبتسم لى تلك الابتسامة البديعة المؤثرة

وقد بعثت إليك بكتابى هذا مع قسيس أبله لا يفهم من شؤون الحياة شيئاً سوى اقامة الصلوات وتعزية المحتضرين ومباركة المتزوجين ، فلا يعنيك من أمره شيء

دى جيش

وهنا برقت عيناها ببارق غريب والتفتت الى الكاهن وقالت له اسمع ياأبت نص الكتاب فهو بمثابة أمر صادر اليك ، وأخذت تقرأ بصوت عال مالا وجود له الا فى مخيلتها وتقول :

سيدتى

يجب عليك اطاعة أمر قداسة الكردينال ، وهو

يأمرك أن تتزوجى الليلة سراً من البارون كرستيان دى نوفييت ، وأنا وإن كنت أعلم أنك غير راضية عن هذا الزواج وأنك لاتحبين هذا الفتى ولا تجدين فى نفسك ارتياحاً لمعاشرته فاننى أرى لك أن تخضعى لأمر الكاهن الأعظم وتذعنى لرغبته ، فالخير كل الخير فيما يراه ويشير به ، فاصبرى على قضاء الله وقدره ، وانتظرى حسن المثوبة منه والجزاء الأوفى

وقد بعثت إليك بكاهن من أفضل الكهان وأتقاهم وأحفظهم للأسرار ليقوم بعقد هذا الزواج السرى بينكما فى منزلك فاقرئى عليه كتابى هذا وبلغيه أمرى وكونى على ثقة من إخلاصى لك واحترامى الدائم لمقامك الكريم

دى جيش

ثم طوت الكتاب وهى تتظاهر بالأسف والحزن وتقول : آه ماأسوأ حظى وأعظم شقائى ، ثم همست فى أذن كرستيان قائلة له ألا ترى أنى أحسن قراءة الرسائل ؟

قال اسكتى فاننى أكاد أموت فرحاً ، أما الكاهن فقد تهلل وجهه وانبسطت أساريره وظل يقول له الله من سيد نبيل كريم ما خاب ظنى فيه وفى حسن مقاصده وشرف أغراضه ، ثم رفع المصباح إلى وجه سيرانو وقال له لعلك الزوج يا سيدى ؟ فامتقع لون سيرانو وأشاح بوجهه عنه فتقدم نحوه كرستيان وقال له لا بل أنا ياسيدى ، فأدنى المصباح من وجهه فرأى وجهاً جميلا مشرقاً فظل يهز رأسه كالمرتاب ثم التفت إلى روكسان وقال لها يخيل إلى ياسيدتى أن مصيبتك فى هذا الزواج ليست عظيمة كما تتوهمين ، فارتعدت وخفق قلبها خفقاً شديداً مخافة أن يكون قد فهم شيئاً ثم ما لبثت أن عرفت وجه الحيلة فى ذلك ففتحت الكتاب بلهفة وقالت : لقد فاتنى ياأبت أن أقرأ عليك الحاشية التى كتبها الكونت فى كتابه وهى تتعلق بديركم المقدس فاستمعها ، وقرأت ما يأتى « ويأمرك صاحب القداسة أيضاً أن تتبرعى للدير من مالك الخاص بعشرة آلاف فرنك فائتمرى بأمره وادّخريها

يداً عنـد الله صالحة ، فتلألأ وجه الكاهن واستطير فرحاً وسروراً ولم يبق لتلك الريبة التى خالجته أثر فى نفسه وقال لها لامناص لك يابنيتى من الأذعان لأمر صاحب القداسة ، والله يتولاك برعايتـه ، فقالت سأذعن لأمره وأمرك ياأبت ، ثم هتفت براجنو فأمرته أن يمشى أمامهـم بمصباحه ففعل فدخلوا المنزل جميعاً وتراجعت روكسان قليلا قبـل دخولها فجذبت سيرانو من يده وأسرت فى أذنه قائلة : أما أنت فابق هنا حتى يأتي الكونت فامنعه من الدخول ودافعه بكل حيلة وترفق فى الأمر مااستطعت حتى يتم عقد الزواج ، فقال سأفعل مايرضيك ياروكسان فكونى مطمئنة ، فتركته ولحقت بالقوم وبقى هو وحـده يفكر فى الطريقة التى يمنع بها الكونت من الدخول إذاجاء

« سياحة فى القمر »

وما هى إلا هنيهـة حتى رأى شبح الكونت مقبلا

من بعيد فخلع سيفه والتف بعطفه وأنزل قبعته على عينيه وتسلق شجرة الياسمين وكمن بين اغصانها وأقبل الكونت واضعاً على وجهه نقاباً أسود وهو يتلمَّس الطريق في هذا الظلام الحالك ويقول ليت شعرى أين ذهب ذلك الكاهن المنحوس وماذا صنع بالرسالة التي بعثتُه بها ؟ لابد أن يكون قد بلَّغها روكسان وانصرف لشأنه ، ولا بد انها تنتظرني الساعة داخل المنزل

واتجه جهة الباب فما دنا منه حتى سقط جسم عظيم بين يديه سقطة هائلةً دوّت بها جوانب الميدان كانما هو هابط من علياء السماء فتأمله فاذا هو رجل متلفع ملثم فَذُعر وتراجع وقال من هذا ؟ فتقدم نحوه سيرانو بخطوات بطيئة متثاقلة وقال له بنغمة أشبه بنغمة الحالم المستغرق : كم الساعة الآن ، أيها الانسان ، فقال له من أنت ؟ قال أنا رجل من سكان كوكب القمر سقطت منه من زمن

لاأعلم مقداره هل هو يوم أو ساعة أودقيقة أوعام أوأعوام لان صدمة السقوط أذهلتني عن نفسي فلم أفق الا في هذه اللحظة ، ولاأعلم هل سقطت في كوكب الارض أم في كوكب آخر غيره ، فقل لي أين أنا وفي أي عام وفي أي يوم وفي أي ساعة؟ فعلم الكونت أنه مجنون أو ثمل فاراد ملاينته ومداورته فقال له اسمح لي بالمرور أولاً وسأخبرك فيما بعد عما تريد ، قال يُخَيَّل إليَّ أنك تظنني معتوهاً أومخبولا فاعلم أنني لاأحدثك عن خيال بل عن حقيقة لاريب فيها وأنني قد سقطت من كوكب القمر سقوطاً اضطراريا لم أملك فيه الخيار لنفسي فظللت أتخبط بين الكواكب والنجوم والمذنّبات والشهب حتى وقعتُ في هذا المكان الذي أجهله ولاأعلم أين موقعه من العالم ، ثم رفع نظره إلى وجه الكونت وصرخ صرخة هائلة فزع لها الرجل وتراجع بضع خطوات وظل يسأله ما بالك ! مابالك ! فقال دلّني سوادُ وجهك وظلمته على أنني قد سقطت في خط الاستواء بين قبائل الزنوج ،

فوا أسفاه وواسوء حظاه ، فلمس السكونت وجهه بيده وكان قد ذهل عن نقابه فحسره عنه وقال له لا تخف انما هو نقاب أسود كنت أسدلته على وجهى لبعض الأسباب الخاصة فهدأ سيرانو قليلا وقال له عفواً يا سيدى ، إذاً أنا فى ڤينيسيا أو ڤينا [١] فقل لى فى أى المدينتين أنا ؟ فضجر السكونت وقال له سواء أكنت فى هذه أم فى تلك فدعنى أمر فان إحدى السيدات تنتظرنى ، فقال آه لقد فهمت الآن لابد أن أكون فى باريس بلد الوعود والمقابلات، والاسياد والسيدات ، فالحمد لله على ذلك ، ومد يده الى ردائه وظل يمسحه كأنما ينفض الغبار عنه ، ثم وقف متأدباً وأحنى رأسه بين يديه وقال له اغفر لى يا سيدى مقابلتى إياك بهذه الملابس الرثة المغبرّة فقد كان سقوطى مع الزوبعة الأخيرة فانتشر غبار الاثير على ملابسى وامتلأت عيناى بذرات الضوء وعلقت بنعلى

---

(١) يشير الى ان عادة النقاب كانت معروفة فى هذين البلدين أكثر من غيرهما

بضعَ ريشات من ريش « النسر الطائر » ثم مد يده إلى
نعله كأنه يتناول ريشة عالقة بها وظل ينفخها فى الهواء ،
فازداد غيظ الكونت وعظم ضجره وقال له تنح عن طريقى
يا سيدى فانى أريد الدخول ، وظلّ يدفعه أمامه حتى بلغا
الباب فترامى سيرانو على الارض ومدّ ساقه فى مدخل الباب
وكشف عنها وقال له انظر يا سيدى إلى ساقى فقد عضنى
فيها « الدُب الاكبر » عضة مؤلمة لايزال أثرها باقياً حتى
الآن ، ولقد وقع لى ذلك فى الساعة التى كان يطاردنى فيها
« السماك الرامح » برمحه المثلث الأسنة وما أفلتُّ من
مخالب الدُب حتى سقطت فوق حمَةِ العقرب فلدغتنى فى
ساقى الثانية ، وانظر هاهو أثرها ، ومد ساقه الثانية أيضاً
فاستحال على الكونت المرور ، ثم قال له واؤكد لك
يا سيدى أنى لو عصرت أنفى الآن لجرى منه سيل دافق
يغمر هذا الميدان جميعه ، أتدرى لماذا ؟ قال لا ، قال لأنى
سقطت بعد ذلك فى نهر « المجرة » فظللت أَسبح فيه

حتى أعيانى الجهد ، ولولا أن « الدب الاصغر » مد يده
إلى فأنقذنى لما نجوت ، واعلم أنه لم يفعل ذلك تكرمة منه
وتفضلا بل كان يريد أن يَعضّنى أيضاً كما عضنى أخوه من
قبله فعجز عن ذلك لان أسنانه صغيرة جداً كأنها حببُ
الكأس فاستطعت الافلات منه وانحدرت الى « القيثارة »
فاخترقْتُها وعلقَتْ يدى بوتر من أوتارها فانقطع وظل
معى حتى الآن وسأريكه إذا أردت ، ومد يده إلى جيبه
كأنما يريد أَن يخرجه ثم قال لالزوم لذلك الآن ، فقد
عزمت على أَن اؤلف كتاباً أسميه « سياحة فى القمر » [1]
أُدون فيه هذه الرحلة جميعها وسأرصع دفتيه بالشُهُبِ الصغيرة
التى اصطدتها فى معطفى من غابات السماء

فاشتد جزع الكونت ونفد صبره وقال له ثم ماذا ؟
قال أظن أنك تريد أن تعرف الآن شيئاً من أخبار سكان
ذلك الكوكب الذى عشت فيه حقبة من الزمان . . .

---

(١) اسم كتاب لسيرانو دى برجراك كما ورد فى ترجمة حياته

فقاطعه الكونت وقال لا ، لا أريد أن أعرف شيئاً فدعني أمرّ ، فان بيني وبين أصحاب هذا المنزل ميعاداً لا بد لي من الوفاء به ، قال ولكنك وقد عرفتَ كيف نزلتُ من السماء لابد لك أن تعرف كيف صعدت اليهـا ، إنني صعدت إليها بطريقة عجيبة جداً أنا الذي اخترعتها وابتكرتها فلم ألجأ الى النسر البليد كما فعل « رجيو مونتانوس » ولا الى الحمامة البلهاء كما فعل « اركيتاس » وكان دي جيش مولعاً بعض الولع بعلم الفلك ولوع الكثير من الأشراف والنبلاء الذين يزاولون بعض الفنون تجملا وتلهياً دون أن يدركوا من أسرارها شيئاً ، فقال في نفسه ان الرجل وان كان مجنونا فهو واسع الاطلاع غزير المادة ، واستهواه حديثه فبـدأ ينصت له واستمر سيرانو يقول

ولم أقلد أحداً من الطيارين الذين سبقوني بل خطرت على بالي ست طرق لاختراق أطباق السموات لم تخطر على بال أحد من فحول علم الفلك ونوابغه ، فدَهشَ الكونت

وقال ستٌّ طرق؟ قال نعم، هل نعدنى أن تصغى الىّ حتى أسردها عليك جميعها ؟ قال نعم أعدك بذلك فتكلم وأوجز .
قال تعال إذن معى إلى هذا المقعد لنجلس عليه قليلا فقد انتقض على جرحى الذى فى ساقى ، ثم جذبه من ردائه فأجلسه بجانبه وظلّ يقول له :

أولها : أن اتجرد من ثيابى وأدير حول جسمى بضع قارورات بللورية ملأى بقطر الندى ثم أقف تحت الشمس فتمد إلى خيوط أشعتها فتجذبنى اليها كما هو شأنها فى امتصاص الابخرة والانداء حين تشرق عليها

وثانيها : أن أعمد الى صندوق كبير فافرغه من الهواء بواسطة حرارة المرايا المضلعة ثم أملؤه بالأهوية المتصاعدة وأجلس فيه فيصعد الى العلا

وثالثها : أن أصنع جرادة من الصلب ذات أذرع كبيرة وأضعَ فى جوفها بارودا ملتهبا ثم أمتطيها فكلما فرقع البارود اندفعتْ صاعدة فى جو السماء

ورابعها : أن أملأ « بالوناً » بالدخان ، والدخان كما تعلم يطلب العلا دائما فأركبه فيصعد بي حيث أشاء

وخامسها : أن أدهن نفسى بنخاع الثور فاذا دنا كوكب « فيبيه » أى القمر من الارض وهو كما تعلم مولع بامتصاص هذا الدهن امتصنى معه

وسادسها : أن أركب لوحاً من الحديد وأمسك بيدى قطعة من المغناطيس وأقذفها فى الهواء ، والمغناطيس كما تعلم يجذب الحديد ، فاذا سقطت تلقفتها وقذفتها مرة أخرى وهكذا حتى أصل الى غايتى

فاعجب الكونت بذكائه وفطنته وقال له حسبك ذلك وائذن لى بالذهاب وتأهب للقيام فانزعج سيرانو وتشبث بردائه وقال له ولكن فاتك يا سيدى أن تسألنى عن الطريقة التى اخترتها من بين تلك الطرق واعتمدتُ عليها فى هذه الرحلة القمرية ؟ قال قل لى وأسرع ، قال لم أختر واحدة منها ، بل اخترت طريقة سابعة هى أغرب

الجميع وأعجبها ، قال قل ماهى وعَجِّلْ ، قال أراهن انك
لاتعرفها ولو فكرت فيها ثلاثة أيام ، فضاق صدر الكونت
وقال أعترف لك أنى عاجز عن معرفتها ، فقل لى ماهى فقد
ضقت بك ذرعا ، وثار من مكانه غاضباً ، فوثب سيرانو
واعترض سبيله وقال له هاهى فاستمعها ، ثم مد ذراعيه
إلى الامام وظل يلوّح بهما فى الهواء كما يفعل السابح على
سطح الماء ويقول هُو ، هُو ، هُو ، فدهش الكونت
وقال ماهذا ؟ قال الموج المتلاطم ، قال لاأفهم ماتريد ،
قال المد والجزر ، قال لاأفهم شيئاً فقل ماذا تريد ؟ قال بما
انى أعلم أن القمر هو السبب فى حركة المد والجزر فقد
نمت على ضفة النهر ساعة المد حتى غمرنى الماء منتظراً
ساعة الجزر وما هي إلا لحظة حتى دنا القمر من اللجة
فجذبها وجذبنى معها ولم أزل صاعداً أخترق حجب السماء
حجاباحجابا حتى . . . ومد صوته بها طويلا فقال له الكونت

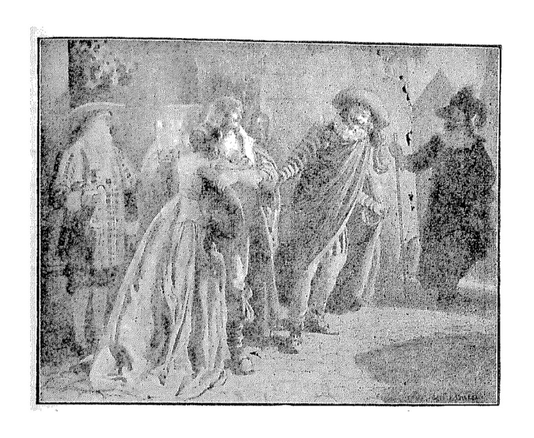
بضجر شديد حتى ماذا ؟ وكان سيرانوا قد سمع جلبة القوم وهم مقبلون من داخل المنزل فعلم أن الأمر قد انتهى فقال له : حتى تمت حفلة القرآن ، وألقى عنه رداءه ورفع قبعته عن رأسه فظهر وجهه وفى مقدمته ذلك الأنف الضخم العظيم فانتفض الكونت وقال : سيرانو ! ثم التفت وراءه فرأى العروسين مقبلين فى ملابس عروسهما وأمامهما الشموع ووراءهما القسيس والخدم ففهم كل شىء وصاح ماذا أرى ؟ يخيل إلى أنى قد جننت ، وأخذ يدور بعينيه ههنا وههنا كالذاهل المخبول ، ثم مشى نحو روكسان فانحنى بين يديها وقال لها : لله درك ياسيدتى ! إنك من أمهر الماكرات ، ثم التفت إلى سيرانو وقال له أقدم إليك تهنئتى أيها المخترع العظيم على تفوقك ونبوغك ، وسيكون مؤلفك الجليل أعظم مؤلف نافع للمجتمع ، ولا تنس أن ترصع دفتيه بتلك الشهب الذهبية التى اصطدتها فى معطفك من غابات السماء ، قال سأفعل انشاء الله ياسيدى وسأقدم الكتاب

اليـك تذكاراً لهذه المهزلة البديعـة ، فأعرض عنه والتفت إلى القسيس وقال له متهكما : لقد أديت الرسالة أيها الشيخ أحسن تأدية فلك الشكر على ذلك ، فلم يفهم القسيس غرضه وقال له لعلك راض عنى يامولاى ، قال نعم كل الرضا ، ثم أخـذ يخطو فى تلك الساحة خطوات واسـعة سريعة ثم وقف ورفع رأسه بعظمة وخيلاء وقد لبس وجهه تلك السحنةَ العسكرية القاسـية ونظر إلى روكسان نظرة جامدة مخيفة وقال لها بصوت قاس شديد: ودعى زوجك ياسيدتى ، فذعرت واصفر لونها وقالت لماذا ؟ قال لان فرقة الحرس ستسافر الآن مع بقيـة فرق الجيش ، وأخرج من ثنايا قميصه ذلك الكتاب الذى كان قد فصله عن بقية الكتب منذ ساعة ونادى كرستيان بصوت هائل رنان فلباه ووقف بين يديه فقال له : خذ هـذا الكتاب وسامه بنفسك إلى قائد فرقتـك ، فقالت روكسان : ولكنك كنت وعدتنى أن تتخلف هذه الفرقة . . . فقاطعها وقال

لها قد غيرت رأيي عند ما علمت انك انما كنت تكيدين لي لا لابن عمك سيرانو ، فصمتت وقد نال من نفسها منالا شديداً وملأ قلبها حزناً وشجناً أنها لم تكد تلمس بفمها شفة الكاس حتى انتزعت من يدها ، ثم ترامت بين ذراعي زوجها وظلت تقبله وتبكي بكاء مراً فضمها إلى صدره وظل يبكي لبكائها فصاح الكونت : حسبكما ذلك فأمامكما ليلة الزفاف ولعلها قريبة جداً ! ثم تركهما وانصرف ليصدر بعض أوامره إلى الجيش وهو يرمي سيرانو بنظرات هائلة لو رمى بها أحداً غيره لصعق لها ، على أن سيرانو كان في شاغل عنه بما كان يعالجه في أعماق نفسه من الالم الممض عند رؤية تلك القبلات الجميلات المتبادلة بين هذين العاشقين الجميلين ، وظل يقول بينه وبين نفسه : ياله من سعيد ! ويالي من شقي ! ، كلانا يحبها ، وكلانا يموت وجداً بها ، ولكنه استطاع لانه جميل أن يلثمها ويقبلها ، ولم أستطع لاني دميم أن أنال منها شيئاً في حياتي أكثر من أن أقبل

طرف الغصن الذى كانت واضعة يدها على طرفه الآخر من حيث لاتدرى ، وها هو ذا الآن يضمها إلى صدره ضمة الوداع ويتزود منها الزادَ الذى يعينه على سفره الطويل وشُقته البعيدة ، أما أنا فكل زادى منها هذه الدمعة التى تترقرق فى عينى ولا أستطيع إرسالها مخافة أن تراها

وهنا دقت طبول الجيش مؤذنة بالرحيل فدنا منهما سيرانو وقال لكرستيان حسبك ذلك الآن فهيا بنا ، فلم ينتبه كرستيان إليه واستمر فى شأنه فظلّ يجذبه من يده ويقول هيا بنا فقد دقت طبول الرحيل ، فقال امهلنى قليلا ياسيرانو فانك لاتعلم مايصنع الفراق بقلوب العاشقين ، قال أعلم ذلك حق العلم فهيا بنا ، فالتفتت إليه روكسان وقالت له انى أَكِلُ إليك أمره ياسيرانو فعِدنى ألا يهدد حياته شىء ، قال سأجتهد إن شاء الله تعالى ، قالت وعِدنى أن يكون حذراً متيقظاً ، قال سأحاول ذلك ، قالت وأن لا يتألم من البرد والصقيع فى تلك الاجواء الثلجية الباردة ،



كرستيان يودع روكسان قبل سفره الى الحرب وسيرانو
يجذبه من يده

قال سأفعل ما فى وسعى ، قالت وأن يكون لى وفياً مخلصاً، قال أظنه لايستطيع أن يكون غير ذلك ، قالت وأن يكتب لى دائماً ، قال أما هذه فأعدك بها



الفصل الرابع

« الميدان »

بدأ الفجر يرسل أشعته الاولى إلى جوانب الميدان وكانت فرقة الحرس نائمة فى سفح تل مرتفع يحميها ويحمى مواقعها ، وكانت قدمرت على الجنود ثلاثة أيام لم يذوقوا طعاما ولم يتبلّغوا بشيء حتى ساءت حالهم وشحبت ألوانهم وخارت قواهم فاستيقظ أحدهم وهو يتضور جوعاً ويقول آه ما أشد ألمى ! فاستيقظ بعض رفاقه على صوت أنينه وظلوا يتضورون مثله فشعر قائدهم بحركتهم وكان واقفاً على قمة التل ليله كله يتولى حراسة الموقع بنفسه فانحدر إليهم وقلب نظره فى وجوههم ثم قال لهم : ناموا يا أولادى فالنهار لايزال بعيدا ، فقال له أحدهم وكيف لنا بالنوم وقد أقلق الجوع مضاجعنا وحال بيننا وبين الغمض ،

فنكس رأسه وصمت وقد أضمر بين جنبيه لوعة لا يعلم إلا الله مكانها من أعماق نفسه

وإنهم لكذلك إذ سمعوا من ناحية العدو بضع طلقات نارية فثاروا جميعاً وابتدروا سيوفهم فجردوها من أغمادها فصاح فيهم « لبريه » هدئوا روعكم يا اخوانى والبثوا فى أماكنكم فان سيرانو قد عاد من رحلته التى اعتاد أن يرحلها سحر كل ليلة وأظن أن الاعداء قد لمحوا شبحه من بعيد فأطلقوا عليه بعض المقذوفات وأرجو ألا يكون قد أصابه منها شيء ، فسكن جأشهم وعادوا إلى مضاجعهم وما هى إلا هنيهة حتى ظهر سيرانو على قمة التل فهرع إليه صديقه لبريه متلهفاً وقال له : هل جرحت . قال لا ، لانهم يخطئوننى دائماً ، قال ولكنى أخاف عليك إن أخطأوك اليوم أن يصيبوك غداً ، قال وماذا أصنع وقد وعدتها عنه أن يكتب اليها كثيراً ولا بد لى من الوفاء بعهدى ، قال إنك لم تخبرنى حتى الآن عن الطريقة التى اتخذتها

للتنكر والتوارى عن عيون الاعداء وأرصادهم ، قال لقد اهتديت من زمن إلى مسلك خفىّ وراء هذا الجبل لا تناله أنظارهم ولا تمتد إليه خواطرهم ، فأنا أسلكه برفق وحذر حتى أوصل إلى الموضع الذى أجد فيه من يتولى توصيل الكتاب إلى روكسان ، قال إذن يمكنك أن تأتينا كل ليلة بشىء من القوت نسد به جوعتنا ، قال ليتنى أستطيع ذلك ، بل ليتنى أستطيع أن أقوت نفسى ، إننا جئنا هنا لنحاصر الاعداء فى أراسَ فاصبحنا محصورين خارجها ، وقد أحاط بنا جيش العدو من كل جانب وأخذ علينا شعابَ الارض فلا سبيل لنا إلى أى شىء حتى إلى القوت، وأطرق برأسه هنيهة ثم قال : ولقد وقفت الليلة أثناء عودتى على حركة فى جيش العدو هائلة جداً ، ويخيل إلىّ أن الغد يحمل فى طياته أعظم حادثة مرت بنا فى هذا الميدان ، فإمّا نجا الجيش الفرنسى من مخالب الجوع أو هلك من أوله إلى آخره

فاصفر وجه لبريه وقال له قل لى ماذا رأيت ؟ قال لاأستطيع ، لانى لست على يقين ، فدعنى وشأنى وأستودعك الله ، قال الى أين ؟ قال إلى خيمتى لأكتب إلى روكسان رسالة الغد وربما كانت الرسالة الاخيرة ، ثم مشى إلى خيمته ولبريه يتبعه بنظراته الحزينة الدامعة ويقول : وارحمتاه لك أيها البائس المسكين

« الوطن »

نشرت الشمس رايتها البيضاء ، فى آفاق السماء ، فاستيقظ الجنود من نومهم يتألمون من الجوع ويترنحون ضعفاً وإعياء فتقدم نحوهم قائدهم وحاول أن يعزيهم ويهون عليهم آلامهم وهو الى التعزية والتهوين أحوج منهم ، فلم يأبهوا له وأخذوا يرمونه بنظرات السخط والغضب فأمرهم أن يتقلدوا أسلحتهم ويأخذوا أهبتهم فأعرضوا عنه ولم يحفلوا به ومشى بعضهم إلى بعض يتهامسون ويتغامزون

ومرت بأفواههم كلمة « الثورة » وهى الكلمة الهائلة التى تأتى دائماً فى ترتيب قاموس الحياة بعد كلمة الجوع فانتفض القائد واستطير رعباً وفزعاً وهرع إلى خيمة سيرانو فهتف به قلباه فقال له أدرك الجنود يا سيرانو فقد نال منهم اليأس أو كاد حتى نطقوا بكلمة الثورة المخيفة ، فخرج إليهم سيرانو وأخذ يخطو بينهم خطوات هادئة مطمئنة ويسارقهم من حين إلى حين نظرات العتب والتأنيب حتى سكنوا وهدءوا وغضوا أبصارهم حياء منه وخجلا ، ثم أخذ يمازحهم ويداعبهم ويفتنّ فى مفاكهتهم ومطايبتهم حتى سرى عنهم بعض ما بهم ، فقال له أحدهم ، أما فى هموم الحياة وآلامها ما يشغلك عن الفكاهة يا سيرانو ؟ قال لا ، ولو ان لامرئ أن يختار لنفسه الميتة التى يريدها لاخترت لنفسى أن أموت فى ليلة صافية الاديم متلألئة النجوم تحت قبة السماء بأجمل سلاح وهو السيف وفى أجمل بقعة وهي الميدان ، وأن يكون آخر ما أنطق به ملحقة لطيفة يتحرك بها فمى

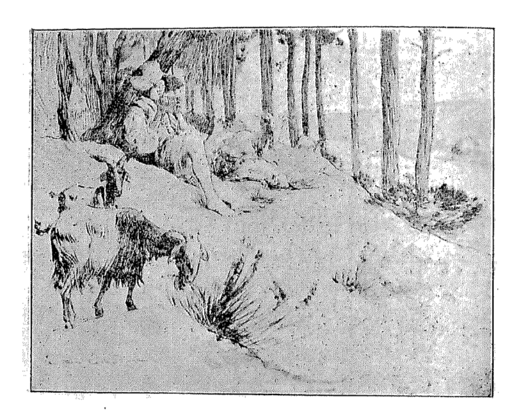


سيرانو يغنى الجنود الجاسكونيين أنشودة قوميــة تذكرهم ببلادهم
ليتلهوا بها عن آلام الجوع

فى الساعة التى يامس فيها ذباب السيف قلبى

ثم هتف « بابرتراندو » فلباه جندى شيخ قد أوفى على الستين من عمره فقال له أخرج نايك من كيسك وغن لهؤلاء الاطفال الشرهين تلك الاغنية الجاسكونية التى تذكرهم ببلادهم ومعاهد طفولتهم ومغانى صباهم فأخذ الرجل يغنيها ويجيد فى توقيعها وسيرانو يغنى معه ، فأطرق الجنود برءوسهم وقد تمثلت لهم بلادهم كأنها حاضرة بين أيديهم يرون جبالها ووديانها وغاباتها وأحراشها ويرون الرعاة السمر بقلانسهم الحمراء يسوقون أمامهم قطعان البقر والاغنام والفتيات الجميلات فى أثوابهن القصيرة حاملات جرارهن على رؤوسهن وهن ذاهبات إلى الغدران أو صادرات عنها فأخذت مدامعهم تتحدر على خدودهم فيمسحونها بأطراف أرديتهم فى صمت وسكون

فقال القائد لسيرانو : إنك تهيج أشجانهم وتستثير آلامهم بهذه الذكرى ، قال فليبكوا وليتألموا ، علهم يتلهون



بلاد جاسكونيا فى خيال الجنود الجاسكونيين عند سماع
الانشودة القومية

قليلا عن آلام الجوع التي يكابدونها ، وليت جميع آلامهم تنتقل من أمعائهم إلى قلوبهم فيستريحوا ، قال إني أخاف على حميتهم أن تفتر وتتضعضع ، قال لايُخفك ذلك ياسيدي ، فان بكاءهم على وطنهم الصغير لاينسيهم واجبهم لوطنهم الكبير ، وان أردت أن تكون على بينة من ذلك فانظر ماذا أصنع ، ثم أشار إشارة خفية إلى حامل الطبل أن يدق طبله دقة الهجوم ففعل فانتفض الجنود من أماكنهم وثاروا إلى أسلحتهم يتقلدونها ؛ فقال للقائد انظر ياسيدي إلى هؤلاء الأطفال الباكين كيف استحالوا في لحظة واحدة إلى ليوث كواسر عند ماسمعوا نداء وطنهم ، ثم التفت اليهم فهدأ روعهم وقال : لاعدمتكم فرنسا ياأبناء جاسكونيا

وانهم لكذلك اذ هتف الحارس القائم على رأس التل باسم الكونت دي جيش رئيس أركان الحرب ، فما سمع الجنود اسمه حتى وجموا وامتعضوا وانتشر على

وجوههم الألم والانقباض وأخذ بعضهم يقول لبعض : ما أثقل ظله ، ما أسمج وجهه ، إنه فاسد الذوق ، يلبس الشفوف الرقيقة فوق الدرع ، يلبس الحذاء اللامع فى ميدان الحرب ، ما أكثر تملقه ، إنه لم ينجح فى حياته إلا من طريق المداهنة ، حَسْبه أنه صهر ذلك الرجل الذى يأكل فى اليوم أربع أكلات فى الوقت الذى لا نكاد نظفر فيه بأكلة واحدة فى الاربعة الايام ، فانتهرهم قائدهم « كاربون دى كاستل » وقد سمع حديثهم وقال لهم : ولكن لا تنسوا أنه جاسكونى مثلكم ، فقال له أحدهم : نعم ، ولكنه جاسكونى عاقل ، وما خلق الجاسكونى إلا ليكون مجنوناً ، فقال لهم سيرانو : نصيحتى إليكم يا إخوانى أن تتجلدوا أمامه وتكتموا فى أعماق نفوسكم همومكم وآلامكم ولا تسمحوا له بالشماتة بكم ، أما أنا فسأجلس هنالك قليلا على هذه الصخرة لاقرأ شيئاً فى كتاب « دى كارت » حتى ينصرف ذلك الرجل لشأنه ،

فأسرعوا بمسح آثار الدموع من خدودهم واستدار واحلقات صغيرة وأخذوا يلعبون الورق ويتضاحكون كأنهم لا يشكون هماً ولا ألماً ، فدخل الكونت دى جيش متجهم الوجه مكفهر الجبين وكان قد سمع آخر حديثهم وقرأ على وجوههم ما يضمرون له من البغضاء بين جوانحهم فصاح فيهم : لقد سمعت باذنى بعض ما تقولون أيها الأشقياء فعلمت أنكم لا تتركون فرصة تمر بكم دون أن تتناولونى بألسنتكم وتنالون منى ، فتسموننى تارة متملقاً وأخرى منافقاً وتعيبون على حسن هندامى ونظافة ملبسى كأنما ترون أن الجاسكونى لا يكون صحيح النسب إلا اذا تصعلك وتشعث وأصبح من البائسين المفلوكين

وكان يتكلم والجنود مقبلون على ألعابهم يتشاغلون بها كأنهم لا يسمعون ما يقول ، فقال لهم وهو يشير الى قائدهم ولقد كنت أريد أن آمر قائدكم بمعاقبتكم ولكننى ... فقاطعه القائد وقال له لو أنك فعلت ذلك يا سيدى لما أذعنتُ

لأمرك ، فاصفر وجه الـكونت وقال ولماذا ؟ قال لأننى دفعت للقيادة العامة ضريبة الرآسة وهى تجعلنى صاحب السلطان المطلق على فرقتى لاينازعنى فيها منازع ولا أخضع فى أمرها لارادة غير ارادتى ، وبعد فليس من الرأى أن يحاسب القائد جنوده على الحب والبغض والرضى والسخط أو أن يطلب إليهم شيئاً سوى الطاعة والاذعان لأوامره ونواهيه ، فوجم الـكونت ولم يستطع أن يقول شيئاً ولـكنه التفت إلى الجنود وقال لهم انى أحتقركم جميعاً أيها السفهاء الثرثارون وأحتقر مطاعنكم ومغامزكم لأننى أعرف مكانة نفسى كما أن الناس جميعاً يعرفونها وأعلم أنى جندى شريف مقـدام لا أبالى بالمخاطر التى تعترضنى فى طريقى ، وقد رأيتم جميعاً موقفى العظيم فى « بابوم » الليلة الماضية وهجومى بنفسى ثلاث مرات على رجال الـكونت « دى بكوا » حتى ألجأتهم إلى الهزيمة التى تعرفونها

وكان سيرانو لايزال مكباً على كتابه يقرأ فيه فقال له

وهو مطرق برأسه لايرفعه : وما رأيك في وشاحك الابيض يا سيدى ؟ فدهش الـكونت واصفر وجهه وقال ومن أين لك علمُ ذلك ؟ نعم وقع لى ليلة أمس انني بينما كنت أجول فى أنحاء الميدان لاجمع رجالى استعداداً للهجوم الثالث إذ لمحت فصيلة صغيرة من فصائل جيش العدو تتقهقهر على مقربة منى فطمعت فيها واندفعت وراءها اندفاع اليائس المستقتل لا ألوى على شىء مما ورائى ، فماهو إلا أن دركتها وأعملت سيفى فى ساقتها حتى رأيتُنى بعد قليل وسط خطوط جيش العدو الأكبر وإذا الخطر محدق بى من كل جانب تخفت الاسر لا من أجل نفسى بل من أجل الجيش الذى أقوده وأدير حركاته ، وكان الظلام حالكا جداً فلا ينمُّ علىَّ شىء سوى ردائى الابيض فأسرعت بألقائه الى الارض لأستطيع أن أتوارى عن عيون الاعـداء فيخفى عليهم مكانى ، ثم انسللت من بينهم وغادرت صفوفهم آمناً مطمئناً ، وما هو الا أن بلغت مأمنى حتى جمعت رجالى وكررت عليهم كرّة

هائلة فكانت الواقعة الثالثة التى أحرزنا فيها ذلك النصر العظيم ، فماذا تقولون فى هذه الحيلة الغريبة ؟ وكان الجنود لايزالون مكبين على ألعابهم لايرفعون إليه أنظارهم يستمعون القصة وكأنهم لا يسمعونها حتى انتهى منها ، فأمسكوا عن اللعب وشخصوا بأبصارهم الى سيرانو ليروا ماذا يقول ، فقال له : إن هنرى الرابع ياسيدى ما كان يرضى لنفسه مهما كان الخطر المحدق به عظيما أن يتنازل عن ريشته البيضاء لأعدائه ، فهلل الجنود فرحاً وانبسطت أساريرهم وعادوا إلى جلبتهم وضوضائهم ، فقال له الكونت : ذلك لايعنينى ، انما الذى يعنينى أنى قد حقنت دمى واستبقيت حياتى لوطنى وسلبت العدو يوماً كان يريد أن يعده من أيام مجده وفخاره ، قال أما الفكرة فبديعة جداً لا أرتاب فيها ، ولكن الذى أعلمه أن الجندى ماخلق إلا ليموت ، فمن العار أن يخسر هذا الشرف بأى ثمن كان ، وأقسم لك ياسيدى اننى لو كنت حاضراً معك فى تلك الساعة ماهان على أن أرى

وشاحك العظيم في يد أعدائك دون أن أقاتل عنه حتى أفتديه ولو بحياتي ، قال : قسم ضائع لا قيمة له لانك لم تكن معي ، قال بل كنت معك ياسيدي وقاتلت عن وشاحك حتى استنقذته من يد أعـدائك وهاهو ذا ، ومد يده الى جيبه فاستخرج منه الوشاح وألقى به بين يديه ، فاربدّ وجه الكونت وانتفض غيظاً وألقى على سيرانو وعلى الجنود نظرة شزراء ملتهبة وقال لهم أتدرون ماذا أصنع الآن بهذا الوشاح ؟ قالوا لا ، قال سألوّح به في الجو تلويحاً لا يسركم ولا يهنؤكم . وصعد الى التل ولوّح به ثلاث مرات في الهواء والجنود يعجبون لأمره ولا يدرون ماذا يريد ، ثم نزل وهو يقول أما وقد انقضى كل شيء فسأفضي إليكم بسر من أسرار الحرب مازلت أكتمه في صدري حتى حان وقته فاستمعوه

قد اتفقت منذ أيام مع جاسوس من جواسيس العدو على أن يكون عوناً لي على قومه فيما أريد وأن يكون مخلصاً لي مؤتمراً بأمري . . . فقاطعه سيرانو وقال

له : ولكنك تصطنع رجلا خائناً يامولاى ، قال ومن أصطنع إن لم أصطنع الخائنين ؟ فهو يدلني على مقاتل قومه وعوراتهم ومكامن أسرارهم من حيث لا يدلهم على شيء إلا على ما أريد أن يدلهم عليه ، أي انه يخدعهم ويضللهم من حيث يظنون انه ينصحهم ويَصدقهم ، وقد جمع قائدنا العام مجلسه الحربى صباح أمس ونظر فى كارثة الجوع التى نزلت بنا فاستقر الرأى على أن يسافر هو بنفسه خُلسة على رأس فرقتين من فرق الجيش الى «أورلنس» ليجلب منها المؤونة والذخيرة ، فسافر من حيث لا يشعر العدو بمكانه وترك بقية الجيش هدفاً للهجوم العام ، فقال له كاربون : أخاف أن يعلم العدو بذلك فيكون الخطب عظيما ، قال قد عَلِمَ فعلا وهو يتأهب منذ الأمس لمهاجمتنا ، فهمس سيرانو فى أذن لبريه: ذلك ما حدثتُك عنه صباح اليوم ، واستمر الكونت يقول : وقد بعثوا جاسوسهم هذا ليتفقد لهم خطوط جيشنا ويدلهم على أضعف نقطة فيه ليهاجموها ، فاتفقت معه على أن يدلهم

على النقطة التي أريدها وأعطيه الاشارة منها مضمراً في نفسي أن أغريهم بالهجوم على أقوى فرقة في الجيش لتستطيع مشاغلتهم ومطاولتهم زمناً طويلا حتى يتمكن قائدنا من العودة بجيشه إلى مركزه آمناً سالماً ، ولما كانت فرقتكم هي أقوى فرق الجيش وأمضاها عزماً وأصلبها عوداً فقد رأيت أن أجعلها هدف ذلك الهجوم وإن كنت أعلم أنها ستموت عن آخرها ، وكنت أمرت ذلك الجاسوس أن يقفَ وراء هذا التل لينتظر إشارتي فيذهبَ بها ، وها أنتم أولاء ترون أنني قد أعطيته إياها بخفقة ذلك الوشاح فاستمدوا للموت فقد انقضى كل شيء

فقال له سيرانو : أهذا كل انتقامك ياسيدي ؟ إنك قد أحسنت الينا من حيث أردت اساءتنا ، فالجاسكونيُّ لايخاف الموت بل يخاف الحياة مع الذل والعار ، قال ماشككت في شجاعتك قط ياسيرانو ! فان من يقاتل مائة رجل وحده فيغلبهم لايبالي بخطر من الأخطار مهما

عظم شأنه ! ثم التفت إلى الجنود وقال لهم : لا أكتمكم
أنى كنت أستطيع أن أختار لاستقبال هذه النازلة
فرقة أقل شجاعة من فرقتكم لو أنى أحببتكم ورضيت عنكم
وحمدت عشرتكم وسيرتكم ، أما الآن فقد استطعت بعمل
واحد أن أؤدى واجبى وأشفى غليلى ، فقال له سيرانو : وشىء
آخر ياسيدى ، قال وما هو ؟ فمشى نحو خطوة وأسر فى
أذنه : أن تترمل روكسان ! فارتعد الكونت ونكس رأسه
وتسلل من مكانه دون أن يقول شيئاً

فالتفت سيرانو إلى الجنود وقال لهم : لقد آن أيها
الاصدقاء أن نضع على شعار جاسكونيا ذى الالوان الستة
لوناً دموياً أحمر كان ينقصه ليكون أجمل شعار فى العالم ،
فكونوا عند ظنى وظن فرنسا بكم ، واعلموا انه مامن ميتة
فى العالم أفخر ولا أمجد من هذه الميتة التى ستموتونها اليوم .
فهتفوا جميعاً بحياة جاسكونيا وحياة فرنسا وابتدروا

أسلحتهم يشحذونها ويصقلونها

« الدمعة »

والتفت سيرانو فرأى كرستيان واقفاً وراءه مطرقاً جامداً وقد انتشرت على وجهه غبرة سوداء من الحزن فتقدم نحوه وقال له : أخائف أنت يا كرستيان ؟ قال لا بل حزين لاني سأفارقها ، فانتفض سيرانو عند سماع كلمة الفراق ووضع يده على قلبه ورفع عينيه إلى السماء ولكنه لم يستطع أن يقول شيئاً ، وصمت هنيهة ثم قال له هون عليك الأمر ياصديقي فرحمة الله أوسع من أن تضيق بنا ، فقال كنت أريد على الاقل أن أكتب لها كتاب وداع أبثها فيه خواطر نفسي ولو اعجها في ساعتي الأخيرة ، قال لقد حدثتني نفسي ليلة الأمس ولا أعلم كيف كان ذلك بهذا المصير الذي سنصير إليه الآن وان هذا اليوم هو آخر أيامنا على وجه الأرض فكتبت اليها عن لسانك الكتاب الذي تريده وسأبعث

به إليها الآن ، قال أرنيه ، قال ها هوذا ، وأخرج الكتاب من جيبه فأعطاه إياه ، فأخذ يقرؤه حتى وصل الى سطر من سطوره الأخيرة فتوقف ذاهلا مدهوشاً وقال غريب جداً ما هذا الذى أرى ؟ قال ماذا ؟ قال نقطة بيضاء على الورق كأنها دمعة ، فاختطف سيرانو الكتاب من يده وقال أرنى ، وظل يتأمل فيه مصعداً منحدراً كأنه يفتش عن النقطة فلا يراها ، فقال له كرستيان إنها دمعة يا سيرانو ما فى ذلك ريب ولا شك فهل كنت تبكى ؟ فانتفض إلا أنه تجلد وتماسك وقال نعم ، قال وما الذى أبكاك ؟ قال هذا شأن الشعراء دائماً ، لا يتناولون موضوعاً من الموضوعات المحزنة للكتابة فيه عن لسان غيرهم حتى يتأثروا به كأنهم أبطاله وأصحاب الشأن فيه ، ولقد بدأت فى كتابة هذا الكتاب وأنت ماثل فى ذهنى لا تفارقه ، فما زال يمتد بي الخيال ويطير بي فى أجوائه حتى تمثل لى أننى أنا الحزين المتألم ، والمفارق المفجوع ، وأن الذى أصفه إنما هى هموم نفسى وآلامها ، فانحدرت من عينى

بالرغم منى هـذه الدمعة التى تراها ، فنظر اليه كرستيان نظرة غريبة واختطف الـكتاب من يده وقال له دعه معى الآن ، ثم طواه ووضعه فى ثنايا قميصه وانصرف

« جواز المرور »

وقامت فى هذه اللحظة ضجة فى المعسكر وسُمعت أجراس مركبة قادمة من بعيد وصائح يصيح من رجال الحرس بصوت غليظ أجش : من القادم ؟ فصعد سيرانو وكرستيان إلى التل لينظروا ماذا جرى فرأوا مركبة مقفلة جميلة تحمل شارة من شارات الشرف ويجلس بجانب حوذيها غلامان حسنا الزى والهندام فما شك الجميع فى أنهاقادمةمن باريس وأن راكبها رسول من قبل الملك يحمل أمراً من أوامره ، فاصطفوا صفين متقابلين وسكنوا سكوناً عميقاً لاحس فيه ولا حركة حتى وقفت المركبة على مقربة منهم فأتلعوا اليها اعناقهم وشخصوا بأبصارهم لينظروا

من القادم ، ثم فتح بابها فاذا سيدة باهرة الجمال مشرقة الطلعة وثبت منها وثبة الجؤذر من خميلته فصاح سيرانو وكرستيان معاً بصوت واحد : روكسان ! وكانت كما يقولون فصعدت إلى التل بخفة ورشاقة حتى بلغت قمته وقالت صباح الخير أيها الأصدقاء ، لعلكم جميعاً بخير ، فرفع الجنود قبعاتهم وأحنوا رءوسهم وعقدوا حولها نطاقاً منهم ومن أنظارهم وظلوا باهتين لمرآها ذاهلين ، وكأنما أدركهم الخجل منها لرثاثة ملابسهم وتشعُّث هيآتهم فظلوا يمسحون لحاهم ويفتلون شواربهم ويُقلبون النظر فى أعطافهم ليروا هل لصق بها أو خالطها ما تقذَى به عيون السيدات الجميلات ، ومرت بهم روكسان فى مواقفهم تحييهم واحداً فواحداً بابتساماتها اللامعة المتلألئة وكلماتها العذبة الجميلة حتى بلغت موقف كرستيان فألقت نفسها بين ذراعيه فقال لها وهو ذاهل مدهوش : ما الذى جاء بك يا روكسان ؟ قالت . أنت الذى جئت بى يا زوجى العزيز

كان سيرانو واقفاً مذ رآها وراء إحدى الربوات موقف الذهل المشدوه يُرعَد ويضطرب ويغالب فى نفسه ثورة هائلة تتوثب نارها بين أضالعه ، ثم ما لبث أن سمع صوتها تناديه فانتبه من غشيته وتقدم نحوها وانحنى بين يديها فابتسمت له وصافحته مصافحة طويلة وقالت له : لعلك بخير يا ابن عمى ، قال نعم وأشكر لك تفضلك بزيارتنا وإن كنت أرجو أن تكون زيارة قصيرة ، قالت لماذا ؟ قال لاننا فى ميدان حرب وأخشى أن يصيبك من شرها شىء ، قالت بل سأبقى معكم أطول مما تظنون ، فأعِدُّوا لى مقعداً أجلس عليه ، فابتدر الجنود تلبية أمرها ، ولم يبق بينهم حامل طبل أو صاحب صندوق إلا قدمه إليها ، فجلستْ وهى تقول : ما أطول المسافة بين باريس وأراس : لقد كنت أظنها أقصر من ذلك ، ولقد مررت فى طريقى ببلاد شملها الخراب والدمار ورأيت بعينى منظر الجائعين والعارين والمتألمين والصارخين ، وما كنت أحسب أن الحرب

تنال من الانسانية هـذا المنال العظيم ، والحق أقول يا أصدقائي إن العاطفة التي جاءت بي إلى هنا أجمل وأرق من العاطفة التي جاءت بكم ، فكم بين من يأتي ليقبل حبيبه ، ومن يأتي ليقتل عدوه ، والتفتت إلى كرستيان وقالت له : أليس كذلك يازوجي العزيز ؟ قال بلى ، فقال لها سيرانو : ولكن كيف استطعت اختراق خطوط العدو وتجشمَ هـذه المخاطر كلها ؟ قالت لقد كان ذلك سهلا جداً يا ابن عمي ، واسمحوا لي أيها الاصدقاء أن أقول لكم : إن أعداءكم الاسبانيين قوم ظرفاء أرقاء لم تسمح لهم شهامتهم وشرف نفوسهم أن يطلقوا النار على امرأة عزلاء ، فلقد كنت كلما مررت بحارس من حراسهم فتحتُ نافذة مركبتي وأشرفت عليه وابتسمتُ في وجهه ابتسامة لطيفة فلا يلبث أن يستقبلني بمثلها ويتنحى لي عن طريقي فأمضي في سبيلي ، فكانت الابتسامة هي «جواز المرور» الذي فتح لي جميع الأبواب الموصدة أمامي حتى وصلت إلى هنا ، قال ألم يسألك أحد عن وجهتك التي

تقصدينها ؟ قالت كان اذا سألني أحدهم قلت له : انني ذاهبة لرؤية عشيق ، فتقع هذه الكلمة العذبة الجميلة من نفسه موقع الماء من مهجة الظامىء الهيمان فيبش في وجهي ويحييني باحناء رأسه ويتركني وشأني ، فقاطعها كرستيان وقال لها : ولكنني لست بعشيقك ياسيدتي بل زوجك، قالت ماارتبتُ في ذلك قط يازوجي العزيز ، ولكنّ كلمة العشيق تنال من نفس العاشق المفارق وكلكم ذلك الرجل مالا تنال منها كلمة الزوج فسامحني واغفر لي ذنبي

وهنا دخل الكونت دي جيش رئيس أركان حرب الجيش فرأى روكسان واقفة موقفها هذا بين الجنود فدهش دهشة عظمى اذ رآها ودنا منها تحياها وقال لها : ماالذي جاء بك الى هنا ياسيدتي ؟ قالت جئت لأرى زوجي لأني لم أتمتع برؤيته بعد زواجي منه إلا تلك اللحظة القصيرة التي تعلمها ، فاربدّ وجهه غيظاً وقال لها : لقد أخطأت بعملك هذا خطأ عظيما، وليس من الرأي أن تلبثي هنا بعد الآن لحظة واحدة ،

فأعدى عدتك للرجوع من حيث أتيت ، قالت لماذا ؟ قال لأن المعركة ستدور بعد ساعة أو ساعتين ولا مكان للنساء فى ميادين الحروب ، فقال كرستيان : وسنموت فى تلك المعركة ياسيدتى عن آخرنا لان الكونت أراد ذلك ، فذعرت روكسان واصفر وجهها والتفتت إلى الكونت وقالت له أصحيح ما يقول ياسيدى ؟ إنك إذن تريد أن أصبح أرملة ، قال لا وأقسم لك ، قالت ألا تعلم انه إذا قُدّر لى هذا المصير كان ذلك آخر عهدى بالدنيا ونعيمها واستحال على عين الشمس أن ترانى بعد اليوم إلا إذا استطاعت أن تخترق بأشعتها صفائح القبور ؟ قال أقسم لك ياسيدتى انى . . . فقاطعته وقالت : كيفما كان الامر فمحال أن أغادر هذا المكان لانني أريد أن أموت مع أبناء وطنى ، فهتف سيرانو بصوت عال : لقد نطقت بكلمة الابطال ياسيدتى فاهنئك ، فابتسمت وقالت : ذلك لانى ابنة عمك

ياسيرانو ، فصاح الجنود جميعاً بصوت واحد : سندافع عنك ياسيدتى إلى الموت ، قالت شكراً لكم يا أصدقائى ، ذلك أملى فيكم وفى الدم الجاسكونى الذى يجرى فى عروقكم ، فتقدم نحوها « كربون » قائد الفرقة وانحنى بين يديها وقال لها : أمّا وقد أصبحت شريكتنا فى حظنا ومصيرنا فائذنى لى أن ألجأ إليك فى طَلِبَةٍ واحدة ، قالت وما هى ؟ قال أن تفتحى يدك القابضة على هذا المنديل الحريرى الجميل ، فلم تفهم ما يريد ولكنها فتحت يدها فسقط المنديل على الأرض : فالتقطه وقال لها : إن فرقتى ياسيدتى ليست لها راية ، وسيكون منديلك هذا رايتها التى تقاتل فى ظلها ، واعلمى أن جنودى سيموتون جميعاً دفاعا عن الراية التى قدمتْها لهم أجمل فتاة فى فرنسا ، ثم عَقد المنديل بسنان رمحه الطويل وركزه على قمة التل ، فظلت الريح تعبث به وظل الجنود ينظرون إليه نظر السائر الى نجمة القطب الخافقة فى كبد السماء

« الوليمة »

فالتفتت روكسان إلى الجنود باسمة وقالت: ألا تقدمون لى شيئاً من طعامكم وشرابكم أيها الاخوان فانى أكاد أموت جوعاً! فنظر القوم بعضهم إلى بعض وقد مشت فى وجوههم صفرة الموت ودهمهم من الأمر مالم يكن يخطر لهم ببال فشعرت روكسان بحيرتهم واضطرابهم فابتسمت وقالت أو قوموا بنا جميعاً إلى مطعم « راجنو » لنتناول عنده من الطعام مانريد ، فقال لها أحدهم : إنك تهزئين بنا ياسيدتى! فأين نحن من راجنو ومطعمه ؟ قالت إذن لاأستطيع أن أتصور كيف يكون سروركم واغتباطكم إذا علمتم اننى قد نقلت لكم هذا المطعم وصاحبه من باريس إلى هنا ؟ وتركتهم ذاهلين مدهوشين لكلامها وصعدت إلى التل وصاحت : راجنو ! راجنو ! هات لنا غداءنا ، فما أتمت كلمتها حتى أقبل راجنو والغلامان الخادمان يحملون على أيديهم سلال الخبز وصناديق

الخمر وأفخاذ اللحم الناضجة وأنواع الفطائر والحلوى فهتف الجنود : راجنو ! راجنو ! وداروا به يحيونه ويعتنقونه ويجاذبونه أثوابه فصاح فيهم : دعونى أيها الكسالى واذهبوا إلى المركبة واحملوا الطعام الذى جئنا كم به بانفسكم فحسبنا ماحملنا لكم ، فهرعوا إلى المركبة وعادوا بما بقى فيها من لحم وخمر وحلوى وفاكهة فرحين مغتبطين وهم يقولون كيف غفلت عيون الاعداء ياراجنو عن هذا الطعام الشهى؟ قال لأن عيون روكسان الجميلة كانت أشهى اليهم منه

وماهى إلا هنيهة حتى استداروا حلقات واسعة وأنشأوا يأكلون ويقصفون وروكسان قائمة فى خدمتهم تقدم لهذا كأساً ولهذا رغيفاً ولهذا سكيناً ومدامعها تتلألأ فى عينيها رحمة بهم وإشفاقاً عليهم وسيرانو واقف ناحية ينظر إليها نظر السرور والغبطة ويردد بينه وبين نفسه ! ياملاك الرحمة والاحسان ! ياأجمل نسمة طاهرة على وجه الأرض ! يانفساً نقية صافية لم يخلق الله لها مثالا بين

نفوس البشر ، حسبي منك أن أراك وأن ينفذ شعاعٌ من أشعة جمالك إلى قلبي المظلم الحالك فيضيء ظلمته ويشرق في جوانبه

وإنهم لكذلك إذ سمعوا صوت الكونت دى جيش مقبلا من بعيد فقال بعضهم لبعض : محال أن ينال هذا الرجل البغيض لقمة واحدة من طعامنا فلنطوعنه كل شيء حتى ينصرف لشأنه ، وما هي إلا كرة الطرف أن اختفى كل شيء في ثنايا معاطفهم وفروج أكمامهم ووراء صناديقهم ، ثم دخل الكونت وهو يقول : ما هذه الرائحة الجديدة ؟ فصمت الجنود ولم يقولوا شيئاً ، فظل يقلب النظر في وجوههم فيرى الحمرة التي سرت فيها من حرارة الغذاء ونشوة الشراب فيعجب لها عجباً شديداً ، ثم قال مالى أراكم منتعشين متهللين وعهدى بكم قبل هذه اللحظة تتهافتون جوعا وتتساقطون ضعفاً واعياء ! فقال له سيرانو : انها صحوة الموت ياسيدى ، فأشاح بوجهه عنه والتفت الى روكسان وقال لها : أباقيةٌ

أنت هنا حتى الآن ياسيدتى ؟ قالت نعم ، وما أنا ببارحة
هذا المكان حتى أعود بكم أو أموت معكم ، فأطرق هنيهة
ثم رفع رأسه وهتف بكاربون فلباه ووقف بين يديه فقال له :
إنك ستدير المعركه المقبلة بالنيابة عنى ياحضرة القائد ، قال
وأنت ياسيدى ؟ قال أما أنا فباق هنا لأدافع عن روكسان
بنفسى لأنى لاأستطيع أن أترك امرأة فى خطر ، فأكبر
القوم جميعاً هذه الشهامة الكبرى والعظمة النفسية وهمس
بعضهم فى أذن بعض : إن الرجل لايزال يجرى فى عروقه الدم
الجاسكونى ، فقال لهم سيرانو : إذن يمكننا أن نقدم إليه
شيئاً من طعامنا وشرابنا ، فاندفعوا جميعاً نحوه ومدوا
إليه أيديهم بما معهم من الطعام والشراب ، فألقى عليهم
نظرة عالية مترفّعة وقال لهم : نعم إننى أموت جوعاً وسغباً
ولكن الجاسكونىّ الشريف لايأكل فضلات طعام غيره ،
فصاح سيرانو : شهامةٌ أخرى أيها الاصدقاء لاتنسوها له ،
وهتف : ليحى الكونت دى جيش ، فهتف الجند بهتافه

فشكرهم الكونت بايماءة رأسه ثم انشأ يخطب فيهم خطبة الحرب ويلقى عليهم الاوامر العسكرية حتى قال لهم وهو يشير إلى مدفع جاثم بين يديه : انكم ما تعودتم اطلاق المدافع قبل اليوم ، فاعلموا ان المدفع يتراجع بشدة عند خروج القذيفة منه فكونوا على بينة من ذلك واحذروه ، فصاح أحدهم بصوت عال : ان مدفع الجاسكونيين مثلهم ياسيدى لايتراجع قط ، فابتسم له وشكره وقال لا يخيبنَّ أملى فيكم ياأبناء وطنى ، ثم التفت إلى روكسان وقال لها تعالى معى ياسيدتى لتشاهدى منظر استعراض الجيش ، فأعطته يدها فصعدا معاً إلى قمة التل

وما أبعدا إلا قليلا حتى مشى سيرانو إلى كرستيان وقال له همساً : كلمة واحدة أريد أن أقولها لك ياسيدى فامش معى قليلا ، فمشى معه فقال له : ربما فاتحتْك روكسان فى شأن الرسائل التى كانت ترد عليها منك وستقول لك انها

كانت تتلقى منك كل يوم رسالة فلا يدهشك ذلك ولا ترتبك لئلا يفتضح الامر ، قال وهل كنت تكتب اليها كل يوم ؟ قال نعم لأنني تعهدت لها عنك قبل سفرنا كما تعلم أن تكتب إليها كثيراً فلم أر بداً من الوفاء ، وما كان يكلفني ذلك أكثر من التعبير عن شعورك وخوالج نفسك وذلك مالا ينقصني العلم به ، فاذا فاتحتْك في هذا الشأن فلا يكنْ لك فيه قولٌ غير الذى قلت لك ، قال وكيف كنت تستطيع توصيل هذه الرسائل اليها وقد حصرنا العدوُّ من كل جانب وذادنا عن كل شيء حتى عن طعامنا وشرابنا ، قال الامر بسيط جداً ، كنت أخرج في سحر كل ليلة متنكراً تحت جنح الظلام فأكمن تارة وأظهر أخرى . . . فقاطعه كرستيان وقال له وهل هذا بسيط جداً ؟ الحق أقول لك ياصديقي إنني أصبحت أعجب لامرك كثيراً ، ولئن استطعت أن أفهم كل شيء فانني لاأستطيع أن أفهم اهتمامك بهذا الامر هذا

الاهتمامَ كله إلى درجة المخاطرة بحياتك فى سبيله ، قال ما فى الامر مخاطرة ولا مجازفة ، فقد كان يلذ لى كثيراً أن أقوم لك بهذه الخدمة وأن ألاقى ما ألاقى من الاخطار فى سبيلها ، قال وما الذى كان يعجبك من ذلك ؟ قال التمثيل قال أى تمثيل ؟ قال تمثيل عواطفك وشعورك ، فانى مذ أخذتُ نفسى بتمثيل دورك فى هـذه المأساة المحزنة لم نزل يستهوينى التمثيل ويُهيمن على نفسى حتى أصبحت أتخيل أنى صاحب الدور الذى أمثله وأنى أنا المعنىُّ دونك بكتابة هذه الرسائل والعناية بها والتذرع بكل وسيلة إلى توصيلها إليها ، قال وهل تبلغ لذة التمثيل بامرىء هـذه المبالغ كلها ؟ قال نعم ، وكثيراً ما أذرف الممثلون دموعاً لم يذرفها العاشـقون أنفسهم ، ثم التفت فرأى روكسان مقبلة فقال له : لقد فهمت الآن كل شىء فكن حكيما حازماً ، ثم تسلل إلى خيمته وتركه واقفاً مكانه

« حقيقة الجمال »

قال كرستيان لروكسان وقد جلسا معاً على بعض المقاعد : هل لك أن تحدثيني يا روكسان ما الذي جاء بك إلى هنا ؟ فانى لا أزال أعجب لأمرك كل العجب ولا أكاد أصدق أن الحب يجشم صاحبه هذه الاخطارَ التى جشمتِها نفسك فى سبيله ، قالت لقد سحرتَنى وملكتْ علىّ لبى رسائلك العذبةُ الجميلة التى كنت ترسلها إلىّ صبيحة كل يوم وتودعها شعور قلبك وهواجس نفسك وتكتبها بتلك اللغة الغريبة المؤثرة التى لولا مست الصخر الأصم لانفجر وتناثرت شظاياه فى أجواز القضاء ، وقد حاولت كثيراً أن أثبت لها وأقاوم تأثيرها على نفسى بكل سبيل فغلبتنى على أمرى وقادتنى اليك كما ترانى ، قال أمن أجل بضع رسائل بسيطة . . . فقاطعته وقالت لاتقل بسيطة ، بل هى الوحى الالهى الذى ينزل على

نفوس الملهمين من البشر ، بل هى القوة الغيبية التى تهيمن على العالم وتحيط به من جميع أقطاره دون أن يدرك أحد مكانها أو يعرف مأتاها ، ولقد كان يخيل إلى وأنا أقرؤها أننى أرى صورتك فيها كما يرى الناظر صورة البدر من وراء السحب الرقيقة فأهوى اليها بفمى لاقبلها فاذا أنا أقبل السطور والكلمات ، فأطرق كرستيان برأسه وقد ألم بنفسه من الهم والكمد ما الله عالم به ، واستمرت روكسان فى حديثها تقول ، إننى ما أحببتك يا كرستيان حباً صادقاً متغلغلا فى أعماق نفسى الا منذ تلك الليلة التى رأيتك فيها واقفاً تحت شرفى تناجينى بنجاء عذباً رقيقاً بتلك النغمة الرقيقة المؤثرة وتقضى إلى بذات نفسك كأنك قد ألمستنى فؤادك ووضعت يدى على قلبك ، ثم توالت على رسائلك بعد ذلك فكنت أسمع فيها دائماً تلك النغمة الموسيقية الخلابة وكأنك لاتزال واقفاً أمام شرفى تناجينى فلا أستطيع أن أملك نفسى دون البكاء والحنين ، وأقسم

لك لو أن « پينيلوب » وردت عليها من زوجها « عولس »
تلك الرسائل التى وردت على منك لما أطاقت صبراً على
فراقه ولا ألقت بنسيجها الذى عرفت به فى التاريخ وذهبت
تفتش عنه بين سمع الارض وبصرها حتى تلقاه ، فقال
ونفسه تذوب حسرة وكمداً : ما كنت أقدر يا روكسان
أن تلك الرسائل الصغيرة تبلغ من نفسك هذه المبالغ
كلها ، قالت لقد كان سلطانها على نفسى عظيما جداً ،
وكنت أعيد قراءتها مرات كثيرة حتى تتشربها نفسى
وتتمثلها روحى ، وحتى كان يخيل إلى أن كل كلمة من كلماتها
ورقة تطير الى من أوراق روحك ؛ فما لبثت أن شعرتُ
أنى قد أصبحت ملكا لك وأسيرة فى يديك وأن أمر
نفسى قد خرج من يدى فلا حول لى فيه ولا حيلة

فاكتأب كرستيان وتقبَّض وجههُ وقال لها : أهذا
كل ما جاء بك إلى هنا ؟ قالت نعم جئت لاستغفرك من
ذلك الذنب الذى أذنبته إليك ، فقد أحببتك لاول عهدى

بك لجمالك ورونقك وقسامة وجهك كأن الجمـال هو كل فضائلك ومزاياك ، فأهنتك بذلك إهانة عظمى ، أما الآن فانى أجثو بين يديك — لا بجسمى فانك لا تلبث أن ترفعنى بيدك بل بروحى التى لا يمكنك أن تغير مكانها منك أبداً — طالبة صفحك وعفوك عن تلك الجريمـة التى اقترفتها ، وما أحسبك تضن على بذلك فى هذه الساعة التى نقف فيها جميعاً على أبواب الابدية ونودع فيها الحياة الوداع الأخير

فانتفض كرستيان وشخص فى وجهها ساعة ثم قال لها : هذا شأنك فى الماضى ، ثم ماذا كان بعد ذلك ؟ قالت كنت بعد ذلك أكثر تعقلا وروية وأبعد فكراً ونظراً ، فامتزج فى نظرى جمال صورتك بجمال نفسك فاستحالتنا إلى صورة واحدة فاحببتها ، قال والآن ؟ قالت أما الان فقد انتصرت نفسك عليك انتصاراً عظيما فأصبحت لا أحب منك سواها ، ولا أشعر بسلطان لغيرها على قلبى ، فاصفر وجهه اصفراراً شديداً وأطرق برأسه وظل

يقول بينه وبين نفسه : إنها ماأحبتنى فى حياتها لحظة واحدة ، واستمرت هى فى حديثها تقول ، فليهنك ذلك الحب الثمين يازوجى العزيز ، فان أسعد الناس حالا فى هذه الحياة وأحظاهم بنعمة العيش فيها أولئك الذين منحهم الله نفساً جميلة شعرية تتعشقها القلوب وتتشربها النفوس وتهفو لها الأحلام وتقوم لهم فى كل موقف ومقام مقام الجمال الجثمانى ان فاتهم أو نزلت به كارثة من كوارث الدهر ، وما الجمال الجثمانى الا سحابة رقيقة تطير بها برودة الهواء أو هضبة ثلجية تذيبها حرارة الشمس ، وما أحب المحبون قط فى الصور الجميلة جمالها ورونقها ، بل جمال النفوس الكامنة فى طياتها ، ولا أبغض المبغضون فى الصور الدميمة قبحها ودمامتها بل قبح النفوس المستكنة فيها ، فاذا اختلف العنوان عن الكتاب فى احدى الحالتين كان الفوز العظيم للجمال النفسى على صاحبه ، وانى أعترف لك يا كرستيان بانى ماأحببتك عند النظرة الأولى الا لجمالك ، لانى ما

كنت أرى فى سماء حياتك كوكباً مشرقاً سواه ، وما هى الا أيام قلائل حتى أخذ ذلك الكوكب يتضاءل أمام عينى شيئاً فشيئاً بجانب تلك الاشعة الباهرة التى كانت تتدفق من ينبوع نفسك الجياشة الفياضة حتى أصبحت لا أراه ولا أشعر به ، فازداد اضطرابه واصفراره وظل ينظر إليها نظراً غريباً حائراً ، فقالت له مالى أراك حزيناً مكتئباً كانك فى شك من هذا الانتصار العظيم الذى تم لنفسك عليك ، فنظر اليها نظرة ساكنة جامدة ثم قال اسمعى يا روكسان ، انى لا أحفل بهذا الحب ولا أغتبط به ولا أريد إلا أن تنظرى الى دائماً بتلك العين التى نظرت بها لاول عهدك بى ، قالت انى أعجب لامرك كثيراً يا كرستيان ، فان الحب الذى تؤثره وتغتبط به حب تافه لاقيمة له ولا ثبات لظله ، أما الآن فانى أحبك لصفاتك الكريمة النادرة التى قلما اجتمعت لمخلوق سواك ، أحبك لذكائك الخارق ، وفطنتك النادرة ، وشرف عواطفك ، ورقة شعورك ، ولطف حسك ،

وسعة خيالك ، وذلك البيان الرائق الصافى الذى يشف عن
جوهر نفسك شفوف الغدير الساكن عن لآلئه وجواهره ،
أحبك من أجل ذلك كله حباً ثابتاً راسخاً لاتعبث به
صروف الدهر ، ولاتنال منه عاديات الأيام ، حتى لو استحالت
صورتك إلى صورة أخرى غيرها لما نقص حبي إياك ذرة
واحدة ، فارتعد كرستيان وشعر أن نفسه قدبدأت تتسرب
من بين جنبيه فمد يده اليها ضارعاً وقال الرحمة يا روكسان !
قالت : بل لو ذهب جمالك بحادثة من حوادث القضاء
فأصبحت بشع الصورة دميم الخلقة . . . فقاطعها وصاح
دميم الخلقة ؟ قالت نعم وأقسم لك على ذلك يا زوجي العزيز
ويا أحب الناس إلى ، فظل يرتعد ويضطرب اضطراباً خيل
إليها أنها نشوة الحب وسكرة السرور فقالت له : أسعيد
أنت الآن يا كرستيان ؟ فنظر إليها نظرة غريبة لا يعلم
إلا الله ما يكمن وراءها وقال نعم سعيد جداً ، ومن هو أولى
بالسعادة منى ؟ ونهض قائماً يريد الانصراف فقالت له

إلى أين ؟ قال لم يبق بيننا وبين المعركة الا لحظات قليلة ولا بد أن يكون هذا آخر اجتماع لنا ، فالوداع ياروكسان وداعاً لا لقاء من بعده ، فاضطربت وقالت، ولم يغلب يأسك على رجائك ورحمة الله أوسع من أن تضيق بك ؟ قال ان السعادة أضن بنفسها من أن تثبت زمناً طويلا فى مكان واحد فالوداع يا روكسان ! وأخذ يبتعد عنها شيئاً فشيئاً دون أن يضع يده فى يدها أو يقبلها قبلة الوداع ، فمشت وراءه وهى تعجب لأمره وتقول : ما بالك يا كرستيان ؟ قف قليلا لاقول لك كلمة واحدة ثم اصنع ما شئت ، انك لم تفهم غرضى ، وأقسم لك أنك لو فهمته لعلمت أنى أحببتك حباً ما أحبه أحد من قبلى أحداً ، قال حسبك يا روكسان وعودى الى هؤلاء الجنود المساكين البائسين فانهم يفكرون فى مثل ما أفكر فيه ويودعون الحياة كما أودعها ، فاذهبى اليهم واجلسى بينهم قليلا وعزيهم بابتساماتك العذبة الجميلة

عن همومهم وآلامهم ، أما أنا فذاهب لقضاء بعض الشؤون
وربما عدت اليك بعد قليل ، ثم اختفى عن نظرها

« المكاشفة »

دخل كرستيان على سيرانو فى خيمته شاحب اللون
مكفهر الجبين فقال له سيرانو ما بك يا صديقى ؟ قال انها
حدثتنى الآن حديثاً طويلا علمت منه أنها لا تحبنى بل
ما أحبتنى قط فى يوم من أيام حياتها ، قال ماذا تقول ؟
قال وأقول أيضاً إنها تحبك أنت ولا تحب فى الدنيا أحداً
سواك فانتفض سيرانو انتفاضة شديدة كادت تتطاير لها
أجزاء نفسه وقال أنا ؟ قال نعم لانها اعترفت لى بأنها
لاتحب منى الا نفسى ؟ وأنت نفسى التى تكمن بين أضالعى
فهى تحبك حب العابدمعبوده ، وماجاءت هنا الامن أجلك
وما أشك فى أنك تضمرلهافى قلبك من الحب مثل ما تضمر
لك ، فصرخ سيرانو وقال لا وأقسم ... فقاطعه كرستيان وقال

لاتفعل ، فلقد نمت عليك تلك الدمعة التى رأيتها بعينى فى كتاب الوداع الذى كتبته اليها ، وما هى بدمعة الشعر كما تقول بل دمعة الحب ، وما كنت تكتب إليها عن لسانى كما تزعم بل عن لسانك أنت ، فاعترف بأنك تحبها ، فأطرق سيرانو هنيهة ذهبت نفسه فيها كل مذهب ثم رفع رأسه وقال نعم يا كرستيان أعترف لك بأنى أحبها ، وأقسم لك أننى ماطمعت فيها قط ، قال نعم أعلمُ ذلك فوارحمتاه لك ولتلك الآلام الطوال التى قاسيتها فى ماضى حياتك ، أما الآن ففى استطاعتك أن تطمع فيها كما تشاء ، ولا يوجد فى العالم شىء يحول بينك وبينها ، قال لاأستطيع ، فان من يحمل وجها مثل وجهى لا يطمع فى حياة الحب والغرام ، قال إنها أقسمت لى أننى لو كنت بشع الخلقة دميمَ الوجه لما نقص حبها إياى ذرة واحدة ، فانتعش سيرانو وقال : أوَ قالت لك ذلك ؟ قال نعم مازالت تقوله لى حتى أملّتنى وأضجرتنى ، قال لاتحفل بقولها فهى فتاة شعرية الافكار

والتصورات تقول بلسانها غير الذى تضمره فى أعماق نفسها ، فابق محبوبها الجميل كما كنت ولأبق أنا لسانك الناطق بين يديها حتى يقضى الله فينا جميعاً بقضائه ، قال ذلك مستحيل بعد الآن ، فانى أشعر فى أعماق نفسى بخجل ما أحسب إلا أنه سيقضى على حياتى قبل أن تقضى عليها القذيفة التى تنتظرنى فى ساحة القتال ، فاذهب اليها واعترف لها بكل شىء وقل لها إن الرجل الذى أحببته من أجل ذكائه وفطنته وذلاقة لسانه وقوة بيانه كاذب غاش ينتحل مواهب الناس وفضائلهم لنفسه وليس له فيها من الحظ شىء ، قال ذلك فوق الاحتمال يا كرستيان ، قال لا بد من ذلك فليس من العدل أن أقتل هناءك من أجل أن الطبيعة جملتنى بهذه الحلية البسيطة من الجمال ، قال وليس من العدل أن أفجعك فى سعادتك لان الطبيعة منحتنى شيئاً من القدرة على التعبير عن عواطفى ، قال لا بد أن تفاتحها فى موضوع حبك فأنت محبوبها الحقيقى ، أما أنا نخلعتك الجميلة التى

تلبسها وتتجمل بها ، فانزعها عنك وتقدم إليها بأى ثوب تريده فهي لا تبالى بجمال الأثواب وزخرفها ، إنى ضقت ذرعاً بهذه النفس الغريبة التى أحملها دائما بين جوانحى حتى وعييت بأمرها عياء شديداً ولا راحة لى إلا فى الخلاص منها ، قال إنك تريد شقائى ياصديقى ، قال لا بل سعادتك ، فاذهب إليها وقص عليها القصة من مبدئها إلى منتهاها واترك لها الخيار فى أمرها ، فان اختارتك فقد أنصفتك ، ولقد كان عقد الزواج الذى جرى بيننا عقداً سرياً لا تحفل به الكنيسة ولا يعبأ به الناس فما أسهل التخلص منه ، وإن اختارتنى لا أكون غاشاً لها ولا خادعا ، قال ستختارك أنت بلا شك ، قال أرجو أن يكون كذلك ، وهاهى ذى مقبلة فاشرح لها كل شيء ، أما أنا فذاهب الى نهاية الخط لشأن من الشئون لابد لى من قضائه وربما عدت اليك بعد قليل ، فارتاب سيرانو فى أمره وأمسك بيده وقال له : إنى أقرأ على جبينك آية اليأس يا كرستيان ، فهل تقسم لى أنك لا تقتل نفسك ؟

قال نعم اقسم لك ألا أقتل نفسى ، ثم التفت فرأى روكسان على مقربة منه فقال لها : سيحدثك سيرانو حديثاً خطيراً فاذهبى اليه ، ثم وضع يده على مقبض سيفه فجرده من غمده وهرع الى ساحة القتال وهو يقول الوداع يانور السماء

« الفاجعة »

فدنت روكسان من سيرانو وقالت ما باله ؟ إنى أعجب لامره كثيراً ولا أدرى ما الذى دهاه ؟ فما هو ذلك الحديث الخطير الذى تريد أن تحدثنيه ، قال لاشىء ، انه يهتم بأصغر الأمور وأبسطها ، فلقد كان يروى لى تلك المحادثة التى دارت بينك وبينه منذ هنيهة ، قالت نعم ويخيل الى أنه لم يفهم غرضى أو أنه فى شك مما أفضيت به اليه ، واؤكد لك ياصديقى انى ما قلت له الا الحقيقة التى أعتقدها ، فاننى أصبحت بعد اطلاعى على تلك الرسائل البليغة التى كان يرسلها الىّ كل يوم من ميدان الحرب مفتتنة بعقله وذكائه أكثر من

افتتانى بحسنه وجماله ، حتى لو استحالت صورته الى صورة أخرى غيرها أو ذهب بجماله حادث من حوادث الدهر فأصبح . . . ثم سكتت حياء وخجلا ، فقال : دميما ؟ قالت نعم ولو أصبح كذلك ، قال وبشع الصورة ؟ قالت نعم ، قال ومشوه الوجه ؟ قالت نعم ، قال وضحكة الناس وسخريتهم ؟ قالت إن من كان له مثل عقله ولسانه لايكون ضحكة الناس وسخريتهم ، وهنا سمعا أول طلقة من طلقات المعركة فلم يحفلا بها واستمر سيرانو فى حديثه يقول : أتحبينه رغم كل شىء ؟ قالت نعم رغم كل شىء ، فقد غمر جمالُ نفسه جمالَ صورته حتى أصبحت لا أراها ولا أشعر بها ، فاغتبط سيرانو فى نفسه اغتباطاً عظيما وعلم أنه قد أشرف على السعادة التى ظل ينتظرها أعواماً طوالا ولم يبق بينه وبينها إلا كلمة أخرى ينطق بها فاذا هى بين يديه

فى هذه اللحظة أقبل « لبريه » من ناحية الميدان مسرعا وأسر فى أذن سيرانو هذه الكلمة « قد قتل

كرستيان » فانتفض وقال وكيف قتل ؟ قال بأول قذيفة من قذائف المعركة ، فاصفر وجهه وارتعدت فرائصه وغشت على عينيه غمامـة سوداء ، فعجبت روكسان لأمره وقالت له مابك ياسيرانو ؟ قال لاشيء ، قالت أتمم حديثك ، ماذا كنت تريد أن تقول لى ؟ فصمت وأطرق هنيهة وظل يقول بينه وبين نفسه : قد انقضى كل شيء ، فلا أستطيع أن أقول شيئاً ، ولقد كان كرستيان صديقى وعشيرى فليس فى استطاعتى أن أبنى سعادتى على أنقاض شقائه ؛ فظلت روكسان تنظر اليـه ذاهلة حائرة وتقول ليت شعرى ماذا جرى ! وسيرانو مطرق لايرفع رأسه حتى أقبل جماعة من الجنود يحملون على أيديهم شيئاً مسجًّى يشبه الجثة فوضعوه ناحية فارتعدت روكسان وكأن نفسها حدثتها بما كان فظلت تنظر إلى ذلك الشيء باهتة مدهوشة وتقول : انظر ياسيرانو ! ماهذا الذى أرى ! أتدرى ماذا يحمل هؤلاء الرجال ؟ فانتبه إليها وقال دعيهم وشأنهم ياسيدتى واستمعى بقية حديثى ، وحاول أن يجمع شتات ذهنه المبعثر

فلم يستطع ، فأخذ يتكلم كلاماً مضطرباً متقطعاً ويقول :
كنت أريد أن أقول لك . . آه ماذا كنت أريد أن أقول؟
لا أستطيع أن أقول شيئاً ، فقد انقضى كل شىء ، كنت
أريد أن أقول . . . آه قد تذكرتُ ، أقسم لك يا روكسان
انك صادقة فيما قلت ، نعم كان كرستيان كما قلت فتًى . . .
فقاطعته وصرخت صرخة عظمى وقالت « كان ؟ » يخيل لى
أنك ترثيه ، ودفعته بيدها دفعة شديدة وهرعت إلى الجثة
وكشفت الغطاء عنها فاذا كرستيان فى سكرة الموت

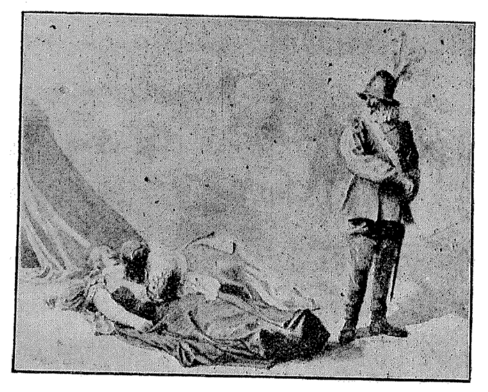
فألقت بنفسها عليه وقد أصابها مثلُ الجنون وظلت
تبكى وتنتحب انتحاباً محزناً وتصرخ صرخات مؤلمة ، ثم
لمحت فى صدره الجرح الذى ينبعث منه الدم فمزقت قميصها
واقتطعت منه قطعة وهرعت إلى موضع المـاء لتبللها
ففتح كرستيان عينيه فى تلك اللحظة وتأوه آهـة طويلة
فدنا منه سيرانو وأكبّ عليه وهمس فى أذنه : أبشر

يا كرستيان فقد بحت لها بكل شيء وخيرتها بيني وبينك فاختارتك من دوني وهي لاتحب أحداً سواك ، وعادت روكسان وفي يدها القطعة المبللة فظلت تمسح بها الجرح وتقول إنه لا يزال حياً ، وسيلتئم جرحه بعد قليل ، وسيعيش بجانبي دهراً طويلا ، أليس كذلك ياسيرانو ؟ ثم وضعت خدها على خده فشعرت ببرودة الموت تسرى في جسمه فاصفرت وتخاذلت أعضاؤها وظلت تناجيه نجاء محزناً مؤثراً وتضرع اليه أن يعيش من أجلها لأنها في حاجة إليه ولا تستطيع أن تهنأ بالحياة من بعـده ، ثم وضعت يدها على صدره فعثرت بذلك الكتاب الذي كان قد أخـذه من سيرانو فأمرت نظرها عليه فوجدته معنوناً باسمها ورأت عليه نقطة من الدم وتلك القطرة من الدمع فقالت وارحمتاه له ! انه كان يحدث نفسه بهذا المصير الذي صار اليه، واحتضنته الى صدرها وظلت تقبله وتلثمه ففتح عينيه للمرة الأخيرة فرآها فحاول أن يتحرك فلم يستطع فشهق شهقة كانت فيها نفسه

« المعركة »

وكانت المعركة قد اشتدت ودوى الميدان بصرخات الجنود وصياحهم وقعقعة السلاح وأزيز الرصاص وهتاف القواد بالجند أن تقدموا ولا تقهقروا أيها الأبطال البواسل وانتزعوا النصر من بين مخالب أعدائكم انتزاعاً ، فهاج الموقف نفس سيرانو فجذب يده من يد روكسان وكانت آخذة بها ليهاجم مع الهاجمين فاستوقفته وقالت له ابق معى قليلا ياسيرانو ، فلقد مات كرستيان وليس لى فى العالم من يعيننى على نكبتى فيه سواك ، لقد كنت الرجل الوحيد الذى أعرفه حق المعرفة وأدرك مااشتملت عليه نفسه من الفضائل والمزايا فقل لى ألم يكن فى حياته عظيما ؟ قال بلى ، قالت وذا همة عالية لا تسمو اليها همم الرجال ؟ قال بلى ، قالت وذا نفس عذبة صافية كأنها قطرة الندى المترقرقة فى الزهرة الناضرة ؟ قال بلى ، قالت وشاعراً عبقرياً لم تطلع الشمس على

مثله فى عهد من عهودها الخالية ؟ قال بلى ، قالت لقد هوى ذلك الكوكب المنير من سمائه وانحدرت تلك الشمس المشرقة إلى مغربها من حيث لارجعة لها فوا أسفا عليه ! ثم صرخت صرخة تتقطع لها نياط القلوب وألقت بنفسها عليه وظلت ترثيه وتندبه وتذرف فوق جثته جميع ماأودع الله عيونها من دموع ، فوقف سيرانو وجرد سيفه من غمده وقال : إنها الآن تبكينى فى بكائها على كرستيان فيجب أن أموت، وكان رصاص الاعداء يحصد الجاسكونيين حصداً فيتساقطون تساقط أوراق الشجر الجافة أمام الزوبعة الهائلة وهم لاينثنون ولا يتحلحلون والكونت دى جيش فى مقدمتهم يصيح بصوت عال : هاهو ذا جيش قائدنا قد اقترب فاصبروا ساعة أخرى يتم النصر لفرنسا ، فصرخ سيرانو : الوداع ياروكسان ، واندفع إلى قمة التل فاستقبله الكونت واعترض طريقه وقال له : قف مكانك لاتلق بيدك إلى التهلكة فقد آن أوان الهزيمة أو هلاك الجنود جميعاً ،



روكسان مكبة على جثة كرستيان وسيرانو يجرد
سيفه من غمده ليهجم على الاعداء

قال ان الجاسكونيين لا يتراجعون ولو أمرتهم بذلك ، فكل أمرهم إلى ودعني وشأني فاني ناقم موتور أريد أن أنتقم لصديقي الذي ثكلته ، وهنائي الذي فقدته ، فاذهب أنت إلى روكسان ودافع عنها كما وعدتها حتى تبلغ مأمنها

ثم صاح في الجنود : تشجعوا أيها الأصدقاء ولا تتقهقروا ، فالحياة أمامكم وليست وراءكم ، تقدموا أيها الابطال وموتوا جميعاً ، فما في الموت شيء سوى أن تنقلوا مكان اجتماعكم من الارض الى السماء ، موتوا فالموت أهون عليكم من أن تروا وطنكم ذليلا في يد أعدائكم ، قدمات أصدقائكم ورفقاؤكم فما بقاؤكم في الحياة من بعدهم ! رفرف علينا أيها العلم الصغير المطرز باسمها وابعث في قلوبنا جميعاً روح القوة والشجاعة لنموت عن آخرنا تحت ظلك الخافق

فظل الجنود ثابتين في أماكنهم ومنجل القضاء يحصدهم حصداً حتى وصل جيش العدو إلى قمة التل وصاح قائدهم : ألقوا بأسلحتكم أيها القوم فستموتون جميعاً إن لم

تسلموا ولا يجدى عليكم الموت شيئاً ، فأجابه سيرانو لا يسلم إلا الاذلاء الجبناء ومافينا جبان ولا ذليل ، الهجمةَ الاخيرة أيها الابطال فها هى طبول القائد الاعظم تدنو منا وتقترب وليس بينكم وبين النصر إلا كرة واحدة

وكان الامر كما يقول ، فما هى إلا ساعة أو بعض ساعة حتى أشرف جيش القائد العام وهاجم الاعداء من خلفهم فالتحم الجيشان ، وما هى إلا جولة أو جولتان حتى تم النصر للراية الفرنسية على الراية الاسبانية ولكن بعد أن تلاشى الجنود الجاسكونيون فى المعمعة جميعاً



الفصل الخامس

« بعد خمسة عشر عاماً »

لدير الراهبات بباريس فناء واسع قد غرست فى أنحائه بضع أشجار ضخمة باسقة قد تناثرت من تحتها أوراقها الساقطة الصفراء ووضع فى وسطه مقعد حجرى هلالى الشكل فخرجت الراهبات بعد أداء صلواتهن فى محاريبهن يتمشين فى ذلك الفناء ويتحدثن بأحاديث مختلفة لا يخلو بعضها من ذكر العالم الدنيوى وشئونه ، والحياة ووقائعها ، كأن ذلك الحجاب الحجرى الذى أسدل دونهن من الاسوار والجدران لم يستطع أن يقطع الصلة بينهن وبين الحياة التى هجرتها واطرحتها وأقسمن بين يدى الله أن ينسينها أبد الدهر ، فلم يزل بين جوانحهن بصيص ضعيف من تلك الذكرى يلمع من حين إلى حين لأنهن لا يستطعن مهما بلغن من قوة اليقين



راهبات الدير جالسات فى فنائه يتحدثن

اليقين ورسوخ الايمان وثبات العزيمة أن ينتزعن الطبيعة من بين جنوبهن كما يرفعن قبعاتهن عن رءوسهن وأرديتهن عن أكتافهن ويَرمين بها وراء تلك الأسوار والجدران كما أرادت منهن ذلك الشرائع النظرية التي لا صلة بينها وبين حقائق الحياة وطبائعها ، فقالت الأخت « مارت » للاخت « كلير » لقد رأيتك اليوم واقفة أمام المرآة مرتين ، ورأيت في يدك مشطاً تحاولين أن تمشطي به شعرك ، وسأرفع أمرك الى الرئيسة ، قالت إنك لا تستطيعين أن تفعلي إلا اذا استطعت أن تحدثيني عن تلك الأغنية الغرامية التي كنت تتغنين بها ليلة أمس في غرفتك بصوت خافت شجي كأنك تتذكرين بها عهداً قديماً ، فابتسمت الأخت « مارت » وقالت : إنني ان أعفيتك من الشكوى الى الرئيسة فلن اعفيكِ من الشكوى الى المسيو برجراك عند حضوره ، قالت كأنكِ تأبينَ إلا أن نصبح ضحكة الناس وسخريتهم ، فسيرانو رجل شديد قاس يكره الحركات النسائية المتطرفة

وينعى عليها نعياً شديداً ، قالت ولكنه يذهب فى نقده مذهب التهكم البديع المستطرف ، فهو الى الفكاهة أقرب منه الى الجد ، فقالت الأخت « مارجريت » : الحق أقول ياأخواتى إننى لم أر فى حياتى أظرف من هذا الرجل ولا أعذب منه لساناً ولا أحلى مجوناً ولا أطيب قلباً ولا أنقى سريرة ، فقالت لها : « كلير » أصحيح ياأختاه انه يختلف الى هذا الدير منذ اثنى عشر عاما ؟ قالت بل أكثر مثل ذلك مذ هجرت ابنة عمه الأخت روكسان العالم الدنيوىّ ونزلت بنا كما ينزل الطير الحزين وسط الطيور البيضاء ومزجت سواد رهبانيتها بسوادِ حدادها ، وسيرانو هو الشخص الوحيد الذى يستطيع أن يعزى نفسها ويمسح دموعها ويخفف أحزانها الكامنة فى أعماق قلبها ، فقالت « مارت » ولكنه وياللاسف غير متمسك بواجباته الدينية، وهو الى الالحاد أقرب منه الى الايمان ، فقالت « كلير » أظن اننا نستطيع أن نهديه اذا نحن حاولنا منه ذلك ، وهنا

أقبلت الرئيسة وقد سمعت هـذه الكلمة الأخيرة فعلمت أنهن يتكلمن عن سيرانو فقالت إنى أمنعكن جميعاً عن مفاتحته فى هـذا الأمر فدعنه وشأنه والله يتولى أمره ، فقالت · « مارت » ولكنه مكابر عنيد لايزال يولع بمحادثتى ومغايظتى كلما رآني ، فقد قال لى يوم السبت الماضى عنـد حضوره انه أكل بالأمس لحما ودسما فلم أطق استماع ذلك منه وكدت أختصمه ، قالت لاتصدقيه يابنيتى فانه حينما جاءنا فى المرة الماضـية كان قد مر به يومان لم يذق فيهما طعم الخبز ، فدهشت الراهبات جميعاً ونظرن الى الرئيسة باهتات مذهولات فقالت لهن لايدهشكن ذلك يابنياتى ، فسيرانو رجل فقير معدم لايملك من متاع الدنيـا شيئاً ، فقالت لها : « مرجريت » عجيب جداً ! من أخبرك بذلك ؟ قالت صديقه « لبريه » قالت ألا يساعده أحد ؟ قالت لا ، لانه لايريد ذلك

وإنهن لكذلك إذ أقبلت روكسان من ناحية باب

الدير فى لباسها الاسود وبجانبها الكونت دى جيش وكان قد وصل فى مجده الدنيوى الى الغاية القصوى التى لاغاية وراءها فأصبح القائد العام للجيش الفرنسى وأصبح يدعى « الدوق مارتشال دى جرامونت » وكان قد أشرف فى ذلك الوقت على سن الشيخوخة فهدأت فى نفسه تلك العواطف القديمة الثائرة عواطفُ الشرور والشهوات فأخذ نفسه بزيارة روكسان فى ديرها من حين الى حين للتعزية والوفاء والتكفير عن سيئاته الماضية اليها ، فلم يزل سائراً معها حتى بلغا ذلك المقعد فجلسا عليه ، ثم نظر اليها نظرة حزينة مكتئبة وقال لها : أهكذا تعيشين دائماً ياروكسان فى عزلتك هذه لاتفكرين فى شأن من شئون الحياة ولا تأسفين على عهد من عهودك الماضية ؟ قالت نعم دائماً ، لا أذكر غيره ولا يمر بخاطرى شىء سواه ، قال وهل غفرتِ لى ذلك الذنب الذى أذنبته اليك أم لا تزال فى قلبك بقية من العتب والموجدة علىّ ؟ فاغرورقت عيناها بالدموع

وصمتت هنيهة ثم رفعت نظرها الى صليب الدير العظيم الماثل أمامها وقالت : مادمت في هذا المكان وما دام هذا ماثلا أمام عينيّ فانا أغتفر جميع الذنوب حاضرها وماضيها، قال : وارحمتاه لذلك الفتى المسكين ! ما كنت أظن نفس إنسان فى العالم تشتمل على مثل الصفات التى كانت تشتمل عليها نفسه لولا أنك أقسمت لى على ذلك ، قالت إنك لو عرفته معرفتى اياه لامتلأتْ نفسُك إعجابا به وإعظاماً له ولكان حزنك عليه عظيما كحزنى ، قال وهل لاتزالين محتفظة بكتابه الأخير حتى اليوم ؟ قالت انه لايفارق صدرى قط كأنه الكتاب المقدس ، قال أتحبينه حتى بعد الموت ؟ قالت يخيّلُ الى أحياناً أنه لم يمت لأن مكانه من قلبى لايزال باقياً كما هو ، وكأن روحه ترفرف علىّ وتتبعنى حيثما سرت وأنى خلت ، ولا تزال ترنّ فى أذنى حتى الساعة تلك النغمة الجميلة التى كان يحدثنى بها ليلة الشرفة كأنْ لم يمرّ بها إلا يوم واحد ، قال وهل يأتى سيرانو لزيارتك أحياناً ؟

قالت نعم ، يفد إلى دائماً يوم السبت من كل أسبوع فى ساعة معينة لا يتأخر عنها ولا يتقدم ، فاذا حضر رآنى جالسة أمام مِنسجى فيجلس على مقربة منى فوق مقعد يُعدونه له ويبدأ حديثه معى بالهزل والمجون والسخرية بى وبمنسجى ويسميه الحركة الدائمة التى لا نهاية لها ، فاذا فرغ من ذلك أخذ يقص على حوادث الاسبوع يوماً فيوماً كأنه جريدة أسبوعية ، واعلم ياسيدى ان ذلك الصديق القديم والاخ الوفىّ هو الشخص الوحيد الذى يستطيع أن يسرّىَ عنى بعضَ همومى وآلامى ويحمل عنى الشىء الكثير من أثقال هذه الحياة وأعبائها ، ولولاه لمت فى عزلتى هذه هما وكمداً

وهنا فُتح باب الدير ودخل « ابريه » فتقدم نحو روكسان فحياها فقالت له كيف حال صديقك يا ابريه ؟ قال فى أسوإ حال ياسيدتى ، فان غرابة أخلاقه وشذوذ طباعه وتهوره فى ميوله وآرائه وصلابة عوده فى خصوماته ومناظراته قد بلغت به المبلغ الذى كنت أتوقعه له من عهد بعيد ، الفقرَ

والعُدم، والشقاء والبؤس، والخصوم الألداء، والأعداء الثائرين المتنمرين، الذين يكيدون له ليلهم ونهارهم لايهدءون ولا يفتُرون، وهو فى غفلة عن هذا كله، لايعجبه ولا يطربه ولا يلذ له غير الانتقاد المر والتهكم المؤلم بالأشراف والنبلاء ورجال الدين والأدباء والصحفيين والشعراء والممثلين، لايهادنهم ولا يواتيهم، ولا يهدأ عنهم لحظة واحدة، فينعى على القسيس نظرةً واحدة يلقيها عرضاً على وجهٍ جميل، وعلى الشاعر معنى بسيطاً يسرقه من شاعر متقدم، وعلى النبيل مشية الخيلاء يمشيها فى طريقه، وعلى الصحفى نشرَ اعلان خمر فى جريدته أو خبر مكذوب، كأنه موكل بهداية البشر وتقويم اعوجاجهم وتهذيب أخلاقهم، وكل مايعتذر به عن نفسه إن لامه فى ذلك لائم أنه يقول مايعتقد وينطق بما يعلم، كأنما لايوجد فى العالم كله من يعلم مايعلمه سواه

وما أظن الهيئة الاجتماعية التى يشاكسها ويشاورها ويزعم انه قادر على تقويم معوجها واصلاح فاسدها تستطيع

الصبر عليه طويلا ، ويخيل الى أن انتقامها منه سيكون هائلا جداً وانه سيموت عما قليل شهيد ذلك الشيء الذى يسميه الحرية الفكرية والنقد الصحيح

فقالت روكسان ولكنّ سيفه القاطع يحميه من هؤلاء جميعاً ، قال ربما يحميه ولكننى أخشى عليه عدوا واحدا هو أشد عليه من جميع أعدائه ، قالت ومن هو ؟ قال الجوع ، فانه يقاسى من آلامه مالا يستطيع أن يحتمله بشر ، وكثيراً ماقضى الليالى ذوات العدد شادّا منطقته على بطنه من السغب لايشكو ولا يتبرم ولا يسمح لنفسه أن يمد يده الى أحد غير خالقه الى أن تتيسر له اللقمة التى يعتقد انها معجونة بعرق جبينه فلا يمتن بها عليه أحد حتى ذبل جسمه وشحب لونه وعُرقت عظامه وأصبح أشبه بالهيكل منه بالانسان

أما اللباس فقد أصبح عاريا منه الا قليلا ، ولقد باع فى الاسابيع الاخيرة جميع ثيابه فلم يبق له منها الا رداء

واحد من الصوف الاسود يتعهده بالترقيع من حين إلى حين ، ولا أدرى ماذا يكون شأنه غداً اذا نزل به ضيف الشتاء القادم فلا يجد فى غرفته المظلمة الباردة بصيصاً ولا قبساً

فقال الدوق : إنك تبالغ كثيراً يالبريه فى الحزن عليه والرثاء له ، فسيرانو رجل عظيم لا يكترث بآلام الحياة ومصائبها ولا ينظر اليها بمثل العين التى تنظر بها اليها ، ولقد عاش طول حياته حراً مستقلا فى آرائه ومذاهبه غير مبال بما يلاقيه فى هذه السبيل من المكاره والآلام ، ولا يزال شأنه فى حاضره مثله فى ماضيه ، فاعجبوا به كل الاعجاب، ولا تهينوه بالتألم له والبكاء عليه

فدهش لبريه وظل ينظر الى الدوق نظراً حائراً مضطرباً لانه ما كان يتوقع منه بعد الذى كان بينه وبين سيرانو أن يجرى لسانه بكلمة ثناء عليه أو إعجاب به ، فقال له الدوق : لا تعجب يالبريه فانى وان كنت أعلم أنى قد نلت من حياتى

كل شىء وأنه قد حرم كل شىء فأنا أعتقد انه خير منى وأن نفسه تشتمل على أفضل مما تشتمل عليه نفسى ، وليتنى أستطيع أن أستغفره ذنبى الذى أذنبته اليه وأن أضع يدى فى يده فأصافحه مصافحة الصديق للصديق

ثم نهض قائماً وقال استودعك الله ياروكسان ، فنهضت روكسان لتوديعه ومشت معه تشيعه الى الباب فقالت له وهى تسايره وكان ذيل ردائها يجر معه كثيراً من أوراق الشجر الجافة المتساقطة فيحدث صوتاً أشبه بالحفيف : أتقول الحقيقة عن سيرانو ياسيدى أم أنت تتهكم به ؟ قال لا بل أقول الحقيقة التى اعتقدها ، وأقسم لك ياروكسان اننى كثيراً ماغبطته بينى وبين نفسى وتمنيت أن أكون مثله ، فدهشت وقالت ولكنك عظيم يامولاى ، قال إن المرء حينما يصل الى ذروة العظمة فى الحياة لابد أن تمر به ساعات مهما كان طاهراً وبريئاً يشعر فيها ببعض آلام خفية تلذع نفسه وتؤلمها ، وربما لاتبلغ فى قوتها وتأثيرها مبلغ تبكيت الضمير ولكنها على كل

تزعجه وتقلقه وتستولى على شيء من راحته وسكونه ، وهل استطاع العظماء أن يكونوا عظماء إلا لأنهم ارتقوا سلماً بنيت درجاتهم من جماجم الموتى وأشلائهم ، أو أن ينامو املء جفونهم إلا لأنهم أسهروا كثيراً من عيون البائسين والمعدمين فى سبيل راحتهم وهناءهم ، أو أن يمشوا فى طريقهم رافعى الرءوس شامخى الانوف إلا لأن وراءهم كثيراً من المطرقين الصامتين الذين لا تفارق أنظارهم الارض هماً وكمداً ، وربما لا يشعرون بشيء من تلك الجرائم التى يقترفونها وهم فى نشوة عزهم وضوضاء عظمتهم ولكنهم متى خلوا الى أنفسهم وآووا الى مضاجعهم ساورتهم تلك الآلام الخفية اللاذعة التى لا يشعر بمثلها الجائعون والظامئون ، والمرضى والمعوزون . لا تصدقى ياسيدتى أن فى الدنيا سعيداً واحداً قد خلت كأسه التى يشربها من قذى ينغصها عليه ، ولا بد للعظيم وهو صاعد الى قمة عظمته أن يشعر أن ذيل معطفه المسبل وراءه يجر معه كثيراً من أنات الباكين وصرخات المتألمين الذين

بنى عظمته على أنقاض شقائهم فيسمع لها خشخشة كخشخشة الأوراق الجافة التى يجرها وراءه ذيل معطفك الآن

ثم وقف مكانه وأطرق برأسه طويلا فنظرت اليه روكسان ذاهلة ووضعت يدها على عاتقه وقالت له : أتتألم يامولاى ؟ قال نعم فما نحن سعداء إلا فى أنظار الناس واعتبارتهم ، ولو كشف لهم من خبايا نفوسنا ما كشف لنا منها ولمسوا بأيديهم مواقع الألم من أفئدتنا لرثوا لنا أكثر مما نرثى لهم، ولرأوا أننا أولى بالرحمة والاشفاق منهم ، وليتهم يقفون على هذه الحقيقة فيعلموا أن السلامة والنجاة وراحة النفس وهدوءها فى القناعة والاقلال فيستريحوا من هموم الأحقاد وآلامها ، فانهم ما حسدونا ولا اشتعلت بين جوانحهم نيران الحقد والموجدة علينا إلا لأنهم ظنوا أننا سعداء ، ولو نظروا الينا بالعين التى ننظر بها الى أنفسنا لضرعوا الى الله تعالى أن ينجيهم مما ابتلانا به ويريحهم من همومنا وشقائنا ، ثم مد يده اليها فصافحها وقال أستودعك الله ياسيدتى ،

والتفت وهو منصرف الى لبريه وكان لايزال واقفاً فى مكانه فهتف به فلباه فقال له لى كلمة أريد أن أقولها لك فتعال معى ، فمشى وراءه. فالتفت اليه وقال له : نعم ان صديقك سيرانو بطل شجاع كما تقول روكسان ، ولكننى علمت من طريق خاص لاأستطيع أن أبوح لك به ان بعض أعدائه قد عزم على قتله غيلة فاذهب اليه وحذره ، وليقلل من الخروج من منزله ما استطاع ، قال ذلك مستحيل ياسيدى لأنه لايهاب شيئاً ولا يخاف أحدا ، قال لاتفارقه لحظة واحدة فحياته فى خطر عظيم ، قال سأفعل ماأستطيع يامولاى وسأشكر لك فضلك ماحييت ، ثم تناول يده فقبلها وانصرف

فما سار إلاقليلا حتى رأى « راجنو » مقبلا عليه يولول ويستغيث فسأله مابالُه ؟ فقال خطب عظيم يالبريه ! قال أى خطب ؟ قال قد أصيب صديقنا ، قال : سيرانو ؟ قال نعم ، قال قل كل شىء وأوجز ، قال خرجت اليوم من

منزلي ذاهباً اليه لزيارته في منزله فلما وصلت الى رأس الشارع الذي يسكنه رأيته خارجاً من المنزل فهرعت اليه لأدركه ، حتى اذا لم يبق بيني وبينه إلا بضع خطوات إذ سقط على رأسه من نافذة أحد المنازل المهجورة جذع عظيم يخيل إلي انه لم يسقط عفواً بل تعمده به متعمد ، فصرخ ابريه : يا للنذالة والجبن ! ثم ماذا ؟ قال فدنوت منه فرأيت وياهول ما رأيت ! رأيت ذلك الصديق الكريم والرجل العظيم والشاعر النابغة الجليل ملقى على الارض مضرجاً بدمائه وقد فتح في رأسه جرح كبير . . . قال وهل مات ؟ قال لا ، ولكن حالته سيئة جداً ، فحملته الى منزله أو الى ذلك الجحر الضيق الذي يسمونه منزلا . . . قال وهل يتألم ؟ قال لا ، لانه فقد رشده فلم يعد يشعر بشيء ، قال ألم يزره طبيب ؟ قال : أشفق عليه طبيب من جيرانه فزاره ، قال وارحمتاه لك أيها الصديق المسكين ! لا تخبر روكسان الآن بهذا الخبر ، وماذا

قال الطبيب ؟ قال لم أفهم من كلامه شيئاً ، فانه أخـذ يردد كلمات كثيرة ، حمّى ، التهاب ، أغشية الخ ، آه ياسـيدى لو رأيته وقد دارت برأسه الأربطة والضمائد وأصبحت صورته أشبه شيء بصور الموتى فى قبورهم ! هيا بنا نذهب اليه فهو وحيد فى غرفته وأخاف أن يحاول القيام من فراشه فيسقط ميتاً ، ثم ذهبا يعدوان ويتلهفان

« النغمة »

جلست روكسان أمام منسجها فى فناء الدير تنتظر حضور سيرانو وكان قد جاء ميعاده الذى يحضر فيه من يوم السبت من كل أسبوع وأخذت تقول : ما أجمل هذا اليوم ! ان الخريف يخفف عنى كثيراً من آلامى التى يهيجها الربيع ويستثيرها ، فحمداً لك ياإلهى على مامنحت ، وصبراً على ماابتليت ، ولك المنـة العظمى فى حالى رضاك وسخطك ، ونعمائك وبأسائك ، ما أعظم شكرى لك ياسيرانو ! إنك رسول العناية الالهيـة

إلى والعزاء الباقى لى فى هذه الحياة بعـد مافقدت كل عزاء وسلوى ، فليت الله يتولى جزاءك عنى فانى لاأستطيع أن أقوم بشكرك

وهنا حضرت راهبتان تحملان بين أيديهما المقعد الذى اعتادسيرانو أن يجلس عليه عند حضوره فوضعتاه وراء مجلس روكسان فشكرتهـما وانصرفتا ، ثم دقت الساعة الرابعـة فأصغت اليها روكسان حتى انتهت دقاتها ثم قالت : انه سيأتى الآن ، وأخذت تردد نظرها جهة الباب هنيهة فلم يحضر ، فمدت يدها إلى علبة إبرها وخيوطها وظلت تقول بينها وبين نفسها : قد دقت الساعة الرابعـة منـذ دقائق ولم يحضر ، أين خيوطى ؟ هاقد وجدتها ، هـذا يدهشنى جـداً ! انهـا المرة الأولى التى تأخر فيها عن ميعاده منذ خمسة عشر عاماً ، لابد أن تكون الأخت « مارت » قد أزعجته بنصائحها وعظاتها ، أين كستبانى ؟ ليت شعرى ماذا حـدث له ؟ قد



روكسان جالسة إلى منسجها تنتظر حضور سيرانو بقلق

أوشك الظلام أن يخيم وألوان الخيوط قاتمة فلا أستطيع التمييز بين متشابهاتها ، أنه ما تأخر عن زيارتي قبل اليوم ، ولكن لابد أن يحضر الآن ، وهنا سقطت ورقة جافة من ورق الشجر على منسجها فاصفرت وقالت : ورقة ميتة قد انقضى أجلها فهوت الى مستقرها ، يالله ! لا يمكن لشيء من الاشياء . . . ان الاوراق الجافة المتساقطة تزعجني جداً ، لا يمكن لأي شيء مهما كان أن يحول بينه وبين الحضور

وما أتمت كلمتها حتى وقفت راهبة على رأس السلم وصاحت : السيد برچراك ! فانتعشت روكسان وقالت : ليدخل ، فدخل وهو مصفر الوجه يتوكأ على عصاه ويمشي ببطء شديد وقد أسدل قبعته على جبينه فسترت الضمائد المحيطة برأسه ، وكانت روكسان مشتغلة بترتيب خيوطها وإصلاح منسجها فلم تلتفت اليه حتى جلس على مقعده وحياها ، فقالت له بنغمة العاتب دون أن تلتفت اليه: هذه أول مرة تأخرت فيها عن ميعادك منذ خمسة عشر

عاماً ياسيرانو ، فأجابها بصوت قاتم مظلم يحاول أن يجعله ضاحكا رنانا ، نعم ياسيدتى ، يالغرائب الدهر . . ما كنت أظن ان شيئاً فى العالم حتى الموت . . يستطيع أن يحول بينى وبين الحضور اليك فى ميعادى . . آه انى أكاد أموت . . غيظاً وحنقاً . . ماأخرنى عنك إلا ضيف ثقيل « يريد الموت » جاء لزيارتى فى وقت غير مناسب .. وما كنت أتوقع أن يفد إلىَّ فى مثل هذه الساعة ، قالت وكيف تخلصت منه ؟ قال لم أتخلص منه حتى الآن ، وكل ما فى الامر أنى اعتذرت اليه وقلت له : إن اليوم يوم السبت وهو الميعاد الذى يجب على فيه أن أقوم بزيارة صديق كريم لا يمكن أن يحول بينى وبين زيارته فى هذا الميعاد حائل ، فاذهب الآن وعد إلىَّ بعد ساعة واحدة ، قالت إذن سيطول انتظاره لك إذا عاد إليك لأنى لاأسمح لك بالخروج من هنا قبل المساء ، قال ربما اضطررت للذهاب قبل ذلك ، وأغمض عينيه وأطرق برأسه ، وكانت الأخت « مارت » مارة فى تلك اللحظة

فأومأت روكسان اليها برأسها فخضرت فقالت لسيرانو وهى لاتزال مشتغلة بترتيب خيوطها : انك لم تمزح مع الاخت « مارت » كعادتك ياسيرانو ، فانتفض ورفع رأسه فدهشت « مارت » عند رؤيته وفغرت فاها وحاولت أن تتكلم فأشار اليها بالصمت فلم تفهم شيئاً ولكنها صمتت ، فقال لها بصوت ضخم مضحك اقتربى منى أيتها الأخت ، مالك تعرضين عنى ياذات العينين الجميلتين ، هات يدك البيضاء لأقبلها باسم البركة والعبادة لا باسم الحب والغرام ، اقتربى منى لاخبرك خبراً غريباً جداً قالت وهى ترثى له ولحاله وما هو ؟ قال : قد أكلت بالأمس لحماً ودسما فارأيك ؟ فهزت رأسها وظلت تقول بينها وبين نفسها : وارحمتاه له ! انه يكذب على ، وربما مر به يومان لم يذق فيهما طعم الخبز كما فعل فى المرة السابقة ، ثم قالت له : أحب أن تزورنى فى غرفتى قبل خروجك من هنا فسأقدم اليك هدية من الحلوى جميلة جداً ، فقالت له روكسان احذر أن تذهب اليها ياسيرانو فانها تريد أن

تمظك ، فقال سيرانو أظن ان عظاتك الماضية يامارت قد أخذت مأخذها من نفسى ، فقد أصبحت أقرب الى الايمان منى الى الكفر ، ولذلك أسمح لك أن تصلى الليلة فى معبدك من أجلى ، فدهشت « مارت » وقالت ماذا تقول ؟ أتهزل أم تجد ؟ قال قد فات وقت الهزل ولم يبق أمامى إلا الجد ، فانصرفت لشأنها وهى تعجب لأمره كل العجب ، وأقبل هو على روكسان وقال لها وهى لاتزال مكبة على منسجها : ليت شعرى هل أعيش أو هل يعيش العالم حتى يرى ختام هذا النسيج ! قالت كنت فى انتظار سماع هذه الكلمة منك ياسيرانو ، إن نسيجى لاينتهى حتى تنتهى مُلحك وأحماضك

وفى هذه اللحظة هبت ريح شديدة فتساقطت على الارض أوراق كثيرة من أعالى الاشجار فانقبضت روكسان وقالت ان تساقط هذه الاوراق يحزننى جداً ، قال أما أنا فعلى عكس ذلك لانه يعجبنى منها كثيراً انها رغم حزنها على فراق أغصانها التى تركتها ورغم فزعها من الفناء الذى

يستقبلها على وجه الأرض فهي تتساقط برقة ورشاقة وتقضي هذه السياحة القصيرة بين الحياة والموت مائسة مختالة كأنها في حفلة رقص أو مجمع شراب ، فقالت إني أسمع منك نغمة حزن ياسيرانو فهل أنت حزين ؟ قال لا ، وليس من عادتي أن ألجأ إلى الحزن في أي موقف من المواقف حتى في الموقف الذي يحزن فيه الناس جميعاً ، قالت فلندع الأوراق تتساقط كيفما تشاء وأسمعني جريدتك الاسبوعية فاني في شوق عظيم اليها ، قال اسمعي ياسيدتي ، وكان الألم قد نال منه منالا عظيما وبدأ الذهول يخيم على عقله فأنشأ يقول

يوم السبت

أصيب الملك بمرض الحمى على أثر ثماني أكلات أكلها من عنب « سيت » فحكم الطبيب على مرضه بطعنة مبضع في قلبه لاقترافه جريمة الاعتداء على صاحب الجلالة

يوم الاحد

أشعلوا ليلة الحفلة الكبرى في قصر الملك ثلاثا وستين

وسبعمائة شمعة بيضاء ، يقولون إن جيوشنا قد انتصرت على جيوش جان النمسوى ، شُنق أربعة من السحرة ، حقنوا كلب السيدة « داتيس » الصغير

فاعترضته روكسان وقالت ماهذه الأخبار ياسيرانو ؟ فاستمر فى كلامه يقول

يوم الاثنين

لاشيء سوى أن « ليجْدامير » استبدلت بعشيقها ،

فتململت روكسان وقالت : ماهـذا الذى تقول ؟ إنك تمزح ياصديقى ، فلم يلتفت إليها وظل يقول

يوم الثلاثاء

انتقل البلاط كله إلى « فونتنبلو »

يوم الاربعاء

قالت السيدة « دى مونتجلا » للكونت دى فيسك « لا »

يوم الخميس

توّجت « فانسينى » ملكة على فرنسا أوماهو فى معنى ذلك

يوم الجمعة

قالت السيدة « دى مونتجلا » للكونت دى فيسك

« نعم »

وهنا ثقلت عيناه واحتبس صوته واهتز هزة شديدة

ثم سقط رأسه على صدره ، وساد من حوله سكون

عميق فاستغربت روكسان سكوته والتفتت وراءها فرأته

على هذه الحالة ولم تكن قد نظرت إليه قبل هذه اللحظة

فارتاعت وهرعت إليه ووضعت يدها على عاتقه ونادته :

سيرانو ! فانتفض ورفع رأسه وظل يدير يديه حول قبعته

ويضغطها ضغطاً شديداً ويقول : لاشىء ، لاشىء ، أؤكد

لك ياسيدتى أن الأمر بسيط جداً ، قالت : قل لى مابك

ياسيرانو ؟ وما هذه الغبرة السوداء المنتشرة على وجهك

قال : لاشىء ، إنه الجرح القديم الذى أصبت به فى معركة

« أراس » لايزال يعاودنى من حين إلى حين حتى الآن ، فتنهدت

وأرسلت بصرها إلى السماء ثم قالت : كل منّا له جرح قديم ياسيرانو ، غير أن جرحك فى جسمك وجرحى هنا دائماً لا يندمل أبداً ، وأشارت إلى قلبها ، ثم قالت : هنا كتاب الوداع الاخير الذى كتبه إلىّ قبل موته قد تشعّث وتقبّض واصفر ورقه ولا تزال آثار القطرتين، قطرةِ الدمع وقطرةِ الدم ظاهرة فيه ، فارتعد سيرانو وقال كتابه الأخير ؟ وشخص ببصره إلى السماء كأنما يتذكر شيئاً بعيداً ثم قال : ألا تذكرين ياروكسان أنك كنت وعدتنى مرة باطلاعى على هذا الكتاب ؟ قالت نعم أذكر ذلك ، قال هل لك أن تفى بوعدك الآن ؟ قالت هاهوذا ، ومدت يدها إلى صدرها فاخرجت الكتاب من كيس صغير حريرى معلق فى عنقها وأعطته إياه ثم عادت إلى مقعدها

وكان الليل قد بدأ يرخى سدوله على أكناف الدير فأخذت روكسان ترتب خيوطها وإبرها لتضعها فى علبتها وأخذ سيرانو يقرأ الكتاب بصوت عال رنان كأنما هو يخطب أو يهتف أو يناجى ويقول

الوداع ياروكسان ، فانى سأموت عما قليل ، وربما كانت هذه الليلة آخر ليالىّ فى الحياة

كنت أرجو أن أعيش بجانبك لاتولى حراسة سعادتك التى عاهدت نفسى على أن اكفلها لك ماحييت ، فحالت المقادير بينى وبين ذلك ، فليت شعرى ماذا يكون حالك من بعدى ؟

إنى لا أخاف الموت من أجلى بل من أجلك ، ويخيل إلى انك ستقضين بعد موتى أياما شديدة عليك وعلى نفسك الرقيقة الحساسة ، وهذا كل جزعى من الموت ، فوارحمتاه لك أيتها الصديقة المسكينة !

وكانت روكسان تصغى إلى قراءته ذاهلة مدهوشة وتقول بينها وبين نفسها : ماأغرب صوته وما أعظم تأثيره ! إنه يقرأ وكأنه يحدثنى ويناجينى ، ويخيل إلى أن وراء هذه النغمة الغريبة التى ينطق بها سراً كامناً فى أعماق نفسه

واستمر هو فى قراءته يقول

ستغتمض عيناى بعد قليل وستنطفئ تلك النظرات التى كانت مرآتك الصقيلة التى تتراآى فيها صورتك البديعة الساحرة وترتسم فيها دقائق حسنك وأسرار جمالك فمن لك بمرآة ترين فيها نفسك بعد أن تمتلىء عيناى بتراب القبر

إن بين جنبىَّ كنزاً ثميناً من حبك لم أستطع أن أكشف لك الا عن مقدار قليل من جواهره ولآلئه ، وكنت أود أن أفرغه جميعه بين يديك قبل موتى ولكن ماذا أصنع وقد أعجلنى الموت عنه ولا حيلة لى فى قضاء الله وقدره

الوداع ياروكسان ! الوداع ياحبيبتى ! الوداع يا أعزّ الناس علىَّ وآثرهم فى نفسى ، ان قلبى لم يفارقك لحظة واحدة فى حياتى وسيبقى ملازماً لك بعد مماتى ، فليكن عزائى عنك أن روحى سترفرف عليك وتحوم حولك فى كل مكان تكونين فيه ، فكأننا لم نفترق وكأنَّ حجاب الموت المسبل دوننا وهم من الاوهام وباطل من الاباطيل



تصغى روكسان بدهشة الى صوت سيرانو وهو يقرأ الكتاب
بنغمة ذكرتها شيئاً قديماً

وكان قد ذهل عن الكتاب الذى فى يده وعن كل مايحيط به من الاشياء ولم يبق فى خياله سوى أنه يناجى المرأة التى يحبها ويفضى اليها بأسرار نفسه ويودعها الوداع الاخير، فاغمض عينيه واستغرق فى شعوره ووجدانه واستحال صوته الى صوت غريب لايشبه الاصوات فى رنته ونغمته لانه صوت الروح وهتافها ونفثاتها المتصاعدة الى آفاق السماء ، فظلت روكسان تضطرب وترتعد وتقول بينها وبين نفسها : انها نغمة غريبة جداً تذكرنى بنغمة مثلها سمعتها فى ساعة من ساعات حياتى الماضية فليت شعرى متى كان ذلك ؟

وكان الظلام قد نشر ملاءته السوداء على أكناف الدير فالتفتت اليه وحدقت النظر فيه فلمحت بياض الكتاب فى يده فعجبت له كيف يستطيع القراءة فى هذا الظلام الحالك ، فنهضت من مكانها ومشت نحوه تختلس خطواتها اختلاساً حتى بلغته فوقفت بجانبه فرأت عينيه مغمضتين

ورأته لايزال مستمراً فى قراءته ، فاشتد ذعرها وخوفها ووضعت يدها على كتفه وقالت له كيف تستطيع القراءة والظلام حالك وعيناك مغمضتان ، فانتفض انتفاضة شديدة فسقط الكتاب من يده وسقط رأسه على صدره

وساد بينهما سكون عميق ذهل كل منهما فيه عن نفسه ، ثم أخذت روكسان تستفيق شيئاً فشيئاً وتقول بينها وبين نفسها ! آه ماذا أرى ! ان الأمر هائل جداً ! إن النغمة التى أسمعها منه الآن هى بعينها النغمة التى كانت ترن فى أذنى ليلة الشرفة منذ خمسة عشر عاما ! لابد أن يكون هو صاحبها ، آه ماأعظم شقائى ! لقد فهمت الآن كل شىء وليتنى مافهمت شيئاً ، ثم وقفت أمام سيرانو صامتة مطرقة حتى استفاق من غشيته فتقدمت نحوه وأخذت بيده وقالت له لاتخف عنى شيئاًياصديقى فقدعلمت الحقيقةالمؤلمة التى لاريب فيها ، لقد كنتأنت الذى ناجانى ليلة الشرفة وحدثنى عن الحب وكشف لى عن خبايا القلب

الانسانى ، فقاطعها وهو يرتجف ويرتعد وقال : لا لا ،
لم أكن أنا ، قالت وكان الظلام فى تلك الليلة حالكا جداً
فلم أستطع أن أتبينك لأعلم أنك أنت الذى يحدثنى ويناجينى ،
فصاح لا وأقسم لك ، قالت وكانت تلك الكلمات العذبة
الجميلة التى سحرتنى وملكت علىّ شعورى ووجدانى
كلماتك ، فصرخ لا بل كلماته ، قالت وذلك الصوت الموسيقى
الذى كان يرن فى أذنى رنين القيثارة الآلهية فى آذان سكان
السماء كان صوتك ، قال لا ، قالت وتلك الرسائل البليغة
المؤثرة التى جشمتنى مشقة السفر من باريس إلى أراس
كانت رسائلك ، قال لا ، قالت وذلك الكتاب الذى قرأته
الآن بتلك النغمة العذبة الجميلة كان كتابك ، قال لا تصدقى
ذلك ياسيدتى فما أذكر اننى أحببتك فى حياتى قط ، قالت أحببتنى
ولا تزال تحبنى حتى الساعة ، قال ذلك مستحيل لان مثلى
لا يجرؤ على أن يحب مثلك ، قالت ذلك ماحملك على كتمان
أمرك وتمثيل هذا الدور المحزن الاليم ، قال وقد بدأ

صوته يضعف ويتهدج إنك واهمة يا روكسان ، قالت ما أنا بواهمة ولا مخدوعة، ولم كتمت أمرك عني هذه السنين الطوال ما دمت تحبني وما دام هذا الكتاب كتابك وهذه الدمعة دمعتك ؟ قال ولكن الدمَ دمه ، قالت قد اعترفت من حيث لا تدري فوا رحمتاه لك أيها البائس المسكين ! وأطرقت برأسها اطراقاً طويلا لا يعلم إلا الله ماذا كانت تحدثها نفسها فيه ، وانهما لكذلك إذ دخل لبريه وراجنو وهما يصيحان ويولولان حتى دنوا من سيرانو فقال له لبريه : ماذا صنعت بنفسك أيها المسكين ! ولماذا جئت إلى هنا وقد أوصاك الطبيب بملازمة فراشك لا تبرحه لحظة واحدة ، فصاحت روكسان : الطبيب ؟ ولماذا ؟ قال لبريه : ألا تعلمين ما حل به ياسيدتي حتى الآن ؟ قالت لا أعلم شيئاً ، فأراد أن يقص عليها القصة فقاطعه سيرانو وقال له أتدري يالبريه لم جئت إلى هنا رغم أوامر الطبيب ؟ قال لا ، قال لأتلو على روكسان

الجريدة الاسبوعية التى اعتدت ان أتلوَها عليها يوم السبت من كل أسبوع ولا أستطيع أن أخلف وعدى لها ، ثم التفت إلى روكسان وقال لها : إننى لم أتمم لك جريدتى الأسبوعية فاسمحى لى باتمامها ثم أنشأ يقول :

وفى يوم السبت الثالث والعشرين من شهر مايو سنة ١٦٥٥ « قتل المسيو سيرانو دى برجراك »

وهنا حسر قبعته عن رأسه فظهرت الأربطة والضمائد المحيطة به مضرجة بالدم ، فذعرت روكسان وجنت عليه وقالت ماصنعوا بك ياصديقى ؟ قال كنت أتمنى طول حياتى أن أموت فى ميدان حرب بضربة سيف من يد بطل ، فقضى الله أن أموت فى زقاق ضيق بجذع شجرة من يد خادم لا كون قد حرمت كل شىء فى حياتى حتى الميتة التى أحبها ، وأطرق برأسه ثانية وظل على ذلك ساعة وقد ساد من حوله سكون عميق لاتسمع فيه إلا معمعة الاحشاء المتقدة فى قلوب الجاثين حوله



حسر سيرانو القبعة عن رأسه ففهمت روكسان كل شيء

ثم استفاق قليلا فرفع رأسه وفتح عينيه فرأى راجنو جاثياً تحت قدميه يبكي وينتحب فقال له لا تبك ياراجنو وقل لى مامهنتك اليوم ؟ فان لك فى كل يوم مهنة جديدة ، قال أنا الآن خادم عند « موليير » ولكنى سأترك خدمته منذ الغد ، قال لماذا ؟ قال لانه لص من لصوص الأدب وهم عندى أقبح اللصوص وأسفلهم ، قال وهو يبتسم هل سرق من شعرك شيئاً ؟ قال لا بل من شعرك أنت ، فقد سطا على روايتك « أجريبين » فأخذ منها موقفاً كاملا وضمنه روايته الجديدة « إسكابين » التى مثلت ليلة أمس ، قال لقد أحسن فيما فعل ، وماذا كان وقع ذلك الموقف فى نفوس الجماهير ؟ قال مازالوا يضحكون حتى رحموا أنفسهم ، قال ذلك كل مايهمنى ، فلقد قدر لى طول عمرى أن يكون دوزى فى رواية الحياة دور الملقن الذى لايعده الجمهور شيئاً وهو كل شىء ، ثم التفت إلى روكسان وقال لها : أتذكرين تلك الليلة التى كنت أحدثك فيها بلسان

كرستيان ؟ قالت نعم أذكرها ولا أذكر شيئاً سواها ، قال إنها رمز حياتى من أولها إلى آخرها ، صعد كرستيان منذ خمسة عشر عاماً إلى شرفتك ليتناول القبلة التى سمحت له بها مكافأة له على تلك الكلمات البليغة المؤثرة التى أنا صاحبها ومبتكرها ، واليوم يتمتع « موليير » بهتاف الجماهير وتهليلهم اعجاباً بتلك القطعة الهزلية البديعة التى خطها قلمى ، وما أنا بآسف على ذلك ولا واجد ، فكرستيان فتى جميل فيجب أن ينال هو القبلة ، وموليير شاعر شهير فيجب أن يكون هو صاحب القطعة

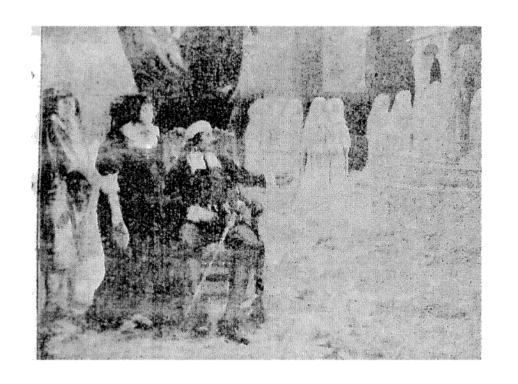
والتفت حوله فرأى الراهبات داخلات إلى الكنيسة فى ملابسهن البيضاء وهن يرتلن صلواتهن على نغمات « الارغن » فأصغى إلى أصواتهن ساعة ثم تأوه طويلا وقال آه ما كنت أعبأ بالحياة ولا آسف على شىء فيها لولا الموسيقى وروكسان ، ولئن كان صحيحاً ما يقولون من أن فى السماء موسيقى كما فى الارض وأن الصدِّيقين

اللذين يفترقان فى هذه الدار يلتقيان فى الدار الاخرى غداً فليس ورائى ما آسف على فراقه

فصاحت روكسان ابق فى الحياة ياسيرانو فأننى أحبك ، قال ذلك مستحيل ، إلا إذا استطاعت كلمتك هذه أن تمحو قبحى ودمامتى ، كما رووا فى بعض الاساطير ان أميراً دميم الخلقة سمع مرة من يقول له إنى أحبك فتلاشى قبحه بتأثير تلك الكلمة وأصبح جميلا وضيئاً ، ولو أننى عشت بعد اليوم ألف سنة ما نقص ثقل أنفى قيراطاً واحداً ،فبكت واشتد نشيجها وقالت اغفر لى ذنبى ياسيرانو فقد كنت السبب فى جميع ما حل بك فى حياتك من المصائب ، قال لا بل بالعكس ، فلقد قضيت حياتى كلها محروماً لذة عطف المرأة وحنانها حتى ان أمى كما حدثونى لم تكن تستطيع أن ترانى جميلا كما يرى الامهات أولادهن المشوهين ، ولو كانت لى أخت أو عمة أو خالة لكان شأنهن معى ذلك الشأن ، ولم أر يوماً من الايام فى عيون النساء جميعاً جميلات

كنّ أودميات غير نظرات الهزء والسخرية والنفور والاشمئزاز ، وأنت المرأة الوحيدة التي استطاعت أن تتخذني صديقاً واستطعت أن ألجأ من عطفها ورحمتها الى ظل ظليل ، فما أعظم شكرى لك ، فقالت عش ياسيرانو فانى أحبك ، بل ما أحببت فى حياتى أحداً سواك ، وما لبست ثوب الحداد خمسة عشر عاماً إلا من أجلك ، قال لا تحاولى الغدر بكرستيان ياسيدتى واحذرى أن يخف حزنك عليه وبكاؤك على مصرعه فانه صديقى ، وكل ما أطلبه اليك أن تضمى الى شارات حدادك شارة صغيرة من أجلى ليكون حزنك علىّ جزءاً من حزنك عليه ، فصاحت : آه ما أشقانى ! لقد أحببت فى حياتى حبيباً واحداً ففقدته مرتين

وكان كوكب الليل قد أشرق من مطلعه فانبسطت أشعته فى فناء الدير فانتعش سيرانو حين رآه وقال ها هوذا صديقى « فيبيه » قد أرسل إلى أشعته لتحملنى اليه فشكراً له على ذلك ، سأصعد الليلة إلى السماء على نعش جميل من تلك



سيرانو يصغى إلى ترتيل الراهبات صلواتهن وهن داخلات
إلى الكنيسة

الأشعة الفضية اللامعة دون أن أحتاج الى تلك الآلات الرافعة التى سردتها على الكونت دى جيش ، وسيكون مقامى هناك فى ذلك الكوكب الجميل مع تلك النفوس العظيمة التى أحبها وأجلها ، سقراط وأفلاطون وغاليلى وجميع الذين ماتوا ضحايا صدقهم واخلاصهم

وهنا انتحب لبريه وقال : وا أسفا عليك أيها الصديق الكريم ! وما أشد ظلمة الحياة من بعدك ! فانتبه اليه سيرانو وقال له : لاتحزن على كثيراً يالبريه فانى ذاهب لملاقاة صديق كربون دى كاستل وسائر أبناء وطنى الذين ماتوا ميتة الشرف والفخار فى ميدان أراس ، وسيكون مجتمعنا هناك جميلا جداً لايكدره علينا ممثل ثقيل ولا نبيل جاهل ولا شاعر مغرور

وصمت صمتاً طويلا كان يعانى فيه من الآلام مالا يحتمله بشر ثم ثار من مكانه هائجاً مضطرباً وجرد سيفه من

غمده وأخذ يصيح : لالا ، لا أريد أن أموت على هذا المقعد ميتة العاجز الجبان ، فذعر أصدقاؤه ونهضوا بنهوضه وحاول راجنو أن يمسكه فدفعه عنه وأسند ظهره الى شجرة ضخمة وقال دعونى فانى أريد أن أموت واقفاً ، وأخذ ينظر أمامه ويحدق النظر كأنما يرى شبحاً مقبلا عليه ثم قال : تعال أيها الموت ! تقدم ولا تخف ! فقد أصبحت رجلا ضعيفاً خائراً لاقبل لى بمواثبتك ومغالبتك ، تقدم فما أنا بسيرانو دى برچراك ، إنما أنا خياله الماضى وصورته الضئيلة ، فهل بلغ بك الجبن أن تخاف الصور والخيالات ؟ لقد ضعف فى يدى ذلك السيف الذى كنت أقاتلك به وأصبح رأسى ثقيلا ويداى مغلولتين وكأنّ قدمىّ مصبوبتان فى قالب من الرصاص ، أقبل ولا تخف ، مالى أراك تنظر إلى أنفى نظر الساخر الهازىء ؟ أشماتة هى أيها الساقط الجبان ؟ ماذا تقول ؟ تقول إنك أقوى منى ؟ نعم ما أنكرت عليك ذلك ، ولكنى على هذا سأقاتلك

وأثبت لا لأنى أطمع فى أن أنتصر عليك ، بل لأنى أريد أن أموت ميتة الابطال من قبلى

ثم أخذ يدير عينيه يمنة ويسرة ويقول من هؤلاء ؟ مرحباً بكن أيتها الرذائل ، لقد عرفتكن ياأعدائى القدماء ، ما أكثر عددكن وأقبح وجوهكن ، نعم سأموت ولكن بعد أن شفيت منكن غليلى ومثلت بكن أقبح تمثيل ، أغربن من وجهى قبحكن الله وقبح صوركن وأزياءكن

وظل يطعن بسيفه يميناً وشمالا وأمام ووراء ويقول خذ أيها الكذب ، خذ أيها الطمع ، مت أيها الغدر ، تبًّا لكِ أيتها السفالة ، سحقاً لك ايتها الخيانة

وظل يدور حول نفسه ساعة حتى بلغ منه الجهد فسقط بين أذرع ابريه وراجنو ، وظل على ذلك هنيهة ثم فتح عينيه وحدق النظر أمامه طويلا وقال : تقدم أيها الموت وخذ ماتريد منى ، أتدرى ماذا تستطيع أن تسلبنى! إنك تستطيع أن تسلبنى حياتى وجسمى وهذا السيف العزيز



سيرانو يحارب الرذائل وهى تتمثل له فى صور أشباح مخيفة

على وهذه الريشة التى وضعتها يد الفخار فى قبعتى بل جميع ماتملك يدى ، ولكن شيئاً واحداً لاتستطيع أن تسلبنيه ، وسيرافقنى فى سفرتى التى انتويتها الى السماء حتى أقف به بين يدى الله تعالى رافع الرأس عزة وفخاراً وهو . . . . وهنا عجز عن النطق فحاول أن ينطق الكلمة التى أرادها فلم يستطع ، فانحنت عليه روكسان وقبلته فى جبينه وأرسلت دمعة حارة على وجهه وقالت : وما هو ياسيرانو ؟ ففتح عينيه للمرة الأخيرة فرآها فابتسم وقال : حريتى واستقلالى !

ثم خفق قلبه الخفقة التى لم يخفق بعدها

وكذلك انقضت حياة هذا الرجل العظيم كما تنقضى حياة أمثاله من العظماء لم يتمتع يوماً واحداً برؤية مجده وعظمته حتى اذا قضى سمح له التاريخ بعد مماته ، بما ضن به عليه فى حياته

*
* *

أما روكسان فلم يعلم الناس من أمرها بعد ذلك شيئاً سوى أن مقعدها الذى كانت تقعد عليه أمام منسجها قد أصبح خالياً مقفراً ، فلم يعرفوا ألزمتْ جوف محرابها تدعو الله تعالى ليلها ونهارها أن يلحقها بصديقها أم رقدت بجانبه فى مقبرة الدير الرقدة الدائمة

